

في حب الصحابيات
رؤية عصرية ودروس عملية
أحمد صلاح
الوادي
للثقافة والإعلام

في حب الصحابيات

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية

إدارة الشئون الفنية

صلاح ، احمد
في حب الصحابيات/أحمد صلاح.
- ط١- القاهرة: الوادي للثقافة والإعلام، ٢٠١٥.
٣٣٦ ص؛ ٢٤ سم.
تدمك: ٨ ٩ ٢٢ ٨٥ ٩٧٧ ٩٧٨
١- أهل بيت الرسول ٢- زوجات النبي ٣- الإسلام – تراجم
٤- بنات النبي أ- العنوان
٢٣٩,٨

* تاريخ الإصدار: ١٤٣٦هـ-٢٠١٥م
* حقوق الطبع: محفوظة
* رقم الإيداع: ٣١٩٦/ ٢٠١٥م
* الترقيم الدولي: ISBN: 978 - 977 - 6515 - 00 - 0
* الكود: ٢/٤٠٦

الوادي
للثقافة والإعلام

الإدارة: ٤٢ ش رشدي (برج جوهر) - تليفاكس: ٢٣٩٢٩٨٧٨
المكتبة والتسويق: ١٤أ ش الجمهورية - عابدين - ت: ٢٣٩١٢٤٢٠
ص.ب (١٣٠ محمد فريد) القاهرة ١١٥١٨
alwady.c.m@gmail.com
darannshr@hotmail.com



في حب الصحابيات

أحمد صلاح



بسم الـلـه الرحمن الرحيم

مقدمة

أفكر ..

كيف تنظر فتاة في القرن الواحد والعشرين إلى صحابية في العام الأول من الهجرة ..

وأتساءل ..

إذا كانت المسافة بين زمننا وزمن صحابيات رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم قرونًا، فما هى المسافة بين فتيات جيل صاخب، يتنفس التكنولوجيا ويدمن السرعة، ويمطر كل يوم بعشرات الأفكار الجديدة والمتناقضة والغريبة ، وبين فتيات جيل الرسول والوحى والمعجزات والصراع القبلى، والمحن الكبرى، والجهاد من أجل بناء صرح عظيم اسمه الإسلام؟

أحاول أن أتخيل ..

كيف تنظر ميرفت إلى السيدة خديجة؟

وكيف ترى نادية السيدة عائشة؟

وما رأى سعاد في السيدة حفصة ؟

وهل تعرف سناء السيدة زينب؟

وهل سمعت جورى عن جويرية، وأم محمد عن أم أيمن، وفاطمة عن فاطمة؟

هل تعرف البنات أن اللـه جعل لهن أمهات أخريات غير أمهاتهن، في آية صريحة واضحة في مقدمة سورة الأحزاب:

(النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ...) [الأحزاب:6] ..

هل تدركين المعنى وتشعرين القيمة والمكانة التى وضعك اللـه سبحانه وتعالى فيها؟

لقد جعل زوجات آخر نبى وأعظم نبى محمد صلى اللـه عليه وسلم أمهات لك، تتحدثين إليهن وتتعلمين منهن وتحكى لزملائك عن مواقفهن وبطولاتهن ..

ولأنك مسلمة .. فلقد أصبح لك شرف أن تقولي لخديجة وسودة وعائشة وحفصة وزينب وأم سلمة وأم حبيبة وجويرية وميمونة وصفية وزينب ...

يا أمي ..

لن ينال هذا الشرف إلا أنت، وكل مسلم ومسلمة

والسؤال لك الآن ..

هل تعرفين عن أمك ما يجب أن تعرفه البنت عن أمها؟

كم مرة تذكرينها في اليوم؟ كم مرة زرتها في كتب السيرة والتاريخ؟ كم مرة تذكرت لها حكمة خففت عنك عناء كرب، أو نصيحة هدتك لحل أزمة مررت بها، أو موقفاً اقتديت به في حياتك؟

إذا كنت تذكرين أمك وأمهاتك، فذكرى غيرك؛ فهم في حاجة إليك وإليهن ..

وإذا كنت لا تذكرين ..

فبين يديك الآن ذكريات بعطر النبوة، وحكايات تحدث مرة واحدة في التاريخ..

بين يديك الآن حكايات أمهاتك وأصدقاء أمهاتك، ومن سار معهن على الطريق ..

بين يديك الآن كتاب أمهات وصحابيات المؤمنين ..

ينادونك بحب أن تجلسي معهن قليلا في حوار أسرى ..

في زمن نتمنى له أن يعود.

أحمد صلاح رياض

ahmedsalah146@yahoo.com

facebookأحمد صلاح رياض

خديجة بنت خويلد

الأميرة المجاهدة

خديجة بنت خويلد
الأميرة المجاهدة

" رحلة موفقة كالعادة "

نطقت بها " نفيسة " صديقة السيدة خديجة، وهى تنظر إليها فى ابتسامة خفيفة لا تخفى إعجابها بها، وهما يقفان أمام إحدى القوافل التجارية التابعة للسيدة خديجة، وهى تتحرك فى اتجاه الشام، والتى ما لبثت أن بادلتها الابتسامة، وهى تمسك بها من يديها متسائلة فى ود:

" وما يمنعك أن تكونى صاحبة رحلات موفقة مثلى؟ "

غمزت نفيسة بعينها التى لا زالت تطل منها أشعة الإعجاب، وهى تقول:

" يمنعنى أن أكون خديجة ".

* * *

وفى الحقيقة، لقد كانت السيدة خديجة تستحق كل هذا الإعجاب، ليس من صديقتها الحبيبة نفيسة فحسب، بل من مكة كلها ..

فبالإضافة إلى قدرتها الفائقة كسيدة أعمال محنكة، تتمتع بمهارات إدارية، تفوقت بها على غيرها من الرجال، بما جعلها قادرة على إدارة ثروتها التى ورثتها من زواجها السابق، حيث تزوجت من رجل اسمه " أبو هالة "، ثم من آخر اسمه " عتيق "، ومن أسرتها نفسها، حتى وصلت قيمة تجارتها فى بعض الأعوام إلى تجارة قريش بأكملها.

كانت قريش كلها تنظر إلى السيدة خديجة بعين الإعجاب .. بل والانبهار أيضًا.. وكيف لا وهى السيدة الجميلة ذات الحسب والنسب والعائلة الكريمة.

فأبوها خويلد صاحب موقف بطولى، تعرفه مكة كلها، عندما دافع عن الكعبة ضد رجل من اليمن، كان يريد أن ينقل الحجر الأسود إلى بلده.

أما أمها فهى فاطمة بنت زائدة بن الأصم، وأخوها هو حكيم بن حزام .. التاجر الثرى.

إنها خديجة القرشية، بنت خويلد بن أسد بن عبد العزّى بن قصى بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤى بن غالب القرشية.

لم يكن نجاح خديجة غير العادى فى تجارتها، بالإضافة إلى كونها امرأة، ومكانتها المرموقة التى جعلتها سيدة مجتمع من الدرجة الأولى فى مكة، هما السببان الوحيدان لتعلق الأنظار بتلك الشخصية النادرة فحسب ..

بل أخلاقها أيضًا ..

لسانها العف، احترامها لغيرها ولنفسها، وعفتها التى جعلت قريش تختار لها لقبًا يميزها عن كل نساء مكة، مهما كن على خلق يشهد به الجميع .. الطاهرة ..

كان غيرها الكثير من العفيفات ذوات الأخلاق الكريمة ..

لكنها وحدها صنف آخر من النساء، تزينت بالأخلاق وتزينت بها الأخلاق ..

فرغم حجم تجارتها المهول، لم يعرف عنها أنها تعاملت بالربا قط ..

ورغم ثرائها المبهر، لم يعرف عنها أنها شربت الخمر قط ..

ورغم مكانة عائلتها وشهرتها فى قريش، لم يعرف عنها أنها سجدت لصنم قط.

إنها خديجة صاحبة الفطرة النقية والعقل الراجح والمكانة المرموقة والجمال الهادئ.

صفات جعلت مكة كلها لا ترى خديجة إلا بشكل واحد ..

أميرة ..

ألبستها قريش فى عقلها تاج الأميرات ..

ويومًا بعد يوم، كانت خديجة تحافظ عليه بأخلاقها وذكائها، فتزيـده بريقًـا يعكـس أشـعة الشمس على عيون النسا ء والرجال، فتطرف أعينهم من شدة الضوء.

تفاعل الذكاء الفطرى لخديجة كسيدة، مـع عـالم التجـارة، لتعـرف معـادن النـاس وتكشـف خبايا نفوسهم ..

ومكنتها هذه الخبرة من أن تحسن اختيار من تتعاقد معه على قيادة القوافل التجارية مـن الرجال ..

كانت تجمع أولًا المعلومات عن الرجال قبل أن تبعث إليهم ..

أمانتهم التجارية، قـدراتهم الإداريـة، تعـاملهم مـع النـاس، قـدراتهم عـلى القيـادة وحسـن التصرف ..

* * *

" من هذا الفتى؟ "

همست بها خديجة لنفسـها، وقـد أسـندت ظهرهـا عـلى أريكـة ناعمـة فى منزلهـا الفخـم، وتابعت وهى تفكر بعمق:

" فتى غريب، صحيح أنه ماهر بالتجارة، لكنه يبدو مختلفًا عـن بـاقى تجـار مكـة، لم أعهـد تلك الأخلاق المميزة، وذلك العقل الراجح " ..

ثم نادت على خادمها ميسرة، وقالت له بعد أن حسمت أمرها فى حزم:

" اذهب إلى محمد بن عبد الـلـه، وأبلغه أن خديجة بنت خويلد تطلبك فى عمل " ..

وعلى الفور، اندفع ميسرة ليخبر الفتى الذى تنظر إليه قريش بالإعجاب نفسـه الـذى تنظـر به إليه خديجة، ويلبى الفتى طلب السيدة خديجة ويذهب إليها؛ كى تطلب منـه التعاقـد عـلى رحلة تجارية لحسابها إلى الشام.

ويوافق الفتى بطلب من عمه أبى طالب نفسه، الذى وجدها فرصة لتخفيف مـا عليـه مـن أعباء اقتصادية، ويبدأ الفتى بعدها رحلته التجارية إلى الشام ..

ورحلة أخرى لم يكن يعلمها أى منهم .. مع السيدة خديجة نفسها.

* * *

" ألا تسابقنى؟ "

هتف بها ميسرة الذى خرج مع الفتى محمد فى رحلته التجارية إلى الشام، معاونًا له فى الرحلة لتدبير شئونه، وبكل ود وحب وافق الفتى أن يسابق ميسرة، الذى بدا وكأن شيئًا ما برأسه يريد أن يتأكد منه ..

ففى أثناء حديث ميسرة مع الفتى محمد، لاحظ شيئًا غريبًا ..

فثمة غمامة فى السماء كانت فوق رأسه، فوجئ ميسرة أنها تتحرك كلما تحرك الفتى، وتسكن كلما سكن، حتى ظن أنه يتعرض لنوع من الخداع البصرى، فقرر أن يقطع الشك باليقين، فطلب من الفتى محمد أن يسابقه، إلا أن ما حدث بعدها أصاب ميسرة بالذهول ..

لقد تحركت الغمامة مع الفتى بنفس سرعته، لا تريد أن تفارقه ..

وعندها توقف ميسرة عن الجرى، وهو ينظر إلى الفتى، وهو يقول فى نفسه متسائلًا فى دهشة:

"ما الذى يحدث بالضبط؟ من هذا الفتى العجيب؟"

إلا أن الدهشة لا زالت تطارد ميسرة لا تتركه، وهو يرى نفسه مدفوعًا لأن يتابعه بكل دقة، كلما مر وقت الرحلة، يومًا بعد يوم.

وفى مرة حل التعب بالفتى محمد، حتى جلس إلى شجرة يستظل بها، ساعتها .. لم يتمالك ميسرة نفسه مما رأى، وأخد يفتح عينيه بشدة من هول المفاجأة ..

فلقد رأى أغصان الشجرة تتحرك لتظل الفتى!!

للمرة الثانية لم يصدق ميسرة عينيه، وظن أنه أثر الهواء، إلا أنه سمع صوتا يناديه من خلفه، وهو يصيح:

"يا ميسرة .. من هذا الفتى؟"

أدار ميسرة رأسه فجأة، وكأن أحدًا انتشله من ثباته، ليجد رجلًا مهيبًا يظهر عليه علامات الشرود، وقال فى صوت خافت:

إنه محمد بن عبد الله، يخرج بقافلة تجارية للسيدة خديجة ..

أمسك الرجل المهيب بذراع ميسرة، وقال له فى حزم وهو يشد على يديه:

"يا ميسرة، الزم هذا الفتى، لم يجلس أحد تحت هذه الشجرة إلا نبى".

كان الرجل المهيب عالمًا من علماء اليهود، الذين يعرفون - على وجه الدقة - مواصفات النبى الخاتم، كما ذكر عندهم فى التوراة، وكان الموقف ينطق أمامه بالنبوة.

ترك الرجل المهيب ميسرة غارقًا فى شروده، يكرر الكلمة على مسامعه، يحاول أن يعيها، وهو يتمتم ناظرًا إلى الفتى تحت الشجرة متسائلًا:

"نبى .. ما معنى هذا الكلام؟"

خرج ميسرة فى رحلات كثيرة، ولكن هذه الرحلة لم تكن كأى رحلة، بمرور الوقت يدرك ميسرة أنه لم يصاحب مجرد فتى ماهر فى التجارة وعلى خلق فحسب، إنه فتى صاحب كرامات واضحة، فسرها أحد علما ء اليهود بالنبوة ..

لقد كانا مشهدين لن ينمحيا أبدًا من ذاكرة الغلام ..

أتمهما المشهد الثالث ..

عندما وصلت الرحلة إلى هدفها، ونزلت البضائع إلى السوق، كان ميسرة يساعد محمدًا من ناحية، إلا أن عين الملاحظة لا تفارقه، يريد أن يكتشف المزيد والمزيد عن هذا الفتى العجيب.

ووقف الفتى محمد يمارس عملية البيع والشراء، حتى جاء إليه يهودى يريد أن يشترى سلعة، ودار بينهما الجدل حول الثمن، وأخذ ميسرة يتأمل الحوار الدائر بينهما، يصر الرجل على ثمن، بينما يصر الفتى محمد على ثمن آخر، واستمر الجدل بينهما، حتى صاح الرجل فى الفتى محمد فى ضيق قائلًا:

أوتقسم باللات والعزى أن هذا هو الثمن؟

بدا الضيق على الفتى، واحمر وجهه، وقد لمعت عيناه فى حدة، وهو يقول:

لم أسجد يومًا للات والعزى حتى أقسم بهما.

سكت الرجل هنيهة قبل أن يتراجع مصدومًا ومستسلمًا، وهو يقول:

سأدفع ما تريد من ثمن.

بدأت الصورة تتكامل لدى ميسرة فى تناسق عجيب، فلم يصدم ميسرة من تصرف الرجل فحسب، بل صدم أيضًا من إنكار الفتى للات والعزى، بصورة جعلته على يقين أن هذا الفتى مختلف عن كل الرجال الذى عرفهم فى تجارة السيدة خديجة ..

وربما فى مكة .. كلها.

* * *

" إنه نبى يا سيدتى .. نبى "

صاح بها ميسرة للسيدة خديجة، بعدما عاد إليها يحكى لها تفاصيل الرحلة العجيبة، التى لم ير مثلها فى حياته قط، حتى فى حركة البيع والشراء التى تفوقت على كل الرحلات السابقة أضعافًا مضاعفة؛ لتلاحقه السيدة خديجة، وتقول له فى لهفة:

نبى؟ ماذا حدث؟

وظل ميسرة يحكى ويحكى ..

قصة الغمامة ومشهد الشجرة وموقف الرجل اليهودى ..

ظل ميسرة يحكى وظلت السيدة خديجة تتذكر وتقارب الصور جنبًا إلى جنب ..

كانت تتذكر حكايات ابن عمها الرجل العجوز ورقة بن نوفل، عن نبى آخر الزمان وعلامات النبوة ..

وظلت تتذكر عندما كانت تجلس مع النساء فى أحد أعياد قريش، حين دخل عليهم رجل يهودى، وصاح فيهم:

أيها النساء، لقد ظهر نبى آخر الزمان، فمن استطاعت منكم أن تتزوجه فلتفعل.

ساعتها نهرته كل النساء إلا هى .. خديجة ..

كانت تعلم بالخبر، لكنها لم تر علاماته على أحد.

الآن تحققت النبوءة، وظهرت العلامات فى محمد بن عبد اللـه ..

فتى قريش .. نبى آخر الزمان ..

أيكون الأمر حقيقة؟ أيصبح محمد أجيرها نبى آخر الزمان؟

بدأت مشاعر سيدة قريش ذات الأربعين عامًا تتحرك، ومهما نجح وقار الأميرة الجميلة فى أن تخفى المشاعر عن كل الناس، فلم تكن تستطيع أن تخفيها أبدًا عن صديقتها الحبيبة " نفيسة بنت منية "، والتى قالت لها فى إحدى جلساتهما فى لطف وقد بدا عليها الاهتمام بمحمد:

ما رأيك بمحمد؟

ما أن سمعت السيدة خديجة الاسم حتى همت بالكلام فى اندفاع، إلا أنها تراجعت عن اندفاعها لتقول فى جدية مصطنعة:

فتى ماهر، حليم كريم، شهم، حسيب نسيب، وفوق ذلك له شأنه.

ثم قامت من مجلسها، ونظرت فى الفراغ، وهى تقول:

وإنى أشعر بفؤادى أنه نبى آخر الزمان .

قامت نفيسة من مجلسها متجهة إلى خديجة بهدوء، وقد اتسعت ابتسامتها، وهى تقول:

ومحبوب ومجتهد أيضًا.

أخفت خديجة وجهها حياء، بينما أدارت نفيسة وجهها بيدها، ونظرت فى عينيها، وهى تقول بصورة مباشرة:

خديجة .. هل تقبلين محمد زوجًا لك؟

قرأت نفيسة ما بداخل صديقتها خديجة بصورة فاجأتها، ودفعتها لأن تبرق بعينها لها، ثم تدير وجهها خجلا فى إشارة واضحة تعرفها النساء، مما دفعها لأن تتابع فى حزم ورفق:

يا خديجة .. هل تسمحين لى أن أدبر هذا الأمر؟

التفتت إليها خديجة وقد بدت وكأنها أنزلت ثقلًا من على كاهلها قائلة:

نعم يا نفيسة .. نعم.

كان يكفى هذا القرار خديجة لكى يثبت أنها سيدة من طراز فريد بالفعل، فهى فى جرأة تحسد عليها، تجاوزت صعابًا ما كان لغيرها أن يتجاوزها ..

فارق السن بينها وبين محمد، والذى يصل إلى خمسة عشر عامًا، والفارق المادى الهائل بين شاب فقير يعمل عندها، وبين سيدة من أكثر تجار مكة ثراء.

كانت خديجة من العقل والحكمة ما جعلها ترجح كفة الخلق والنسب الكريم عند محمد على ذلكين الحاجزين العظيمين.

وكانت نفيسة من الحكمة أيضًا، ما جعلها تعرض الأمر على محمد بصورة طبيعية، وكأنها تبحث له عن زوجة، فلما وجدت منه موافقة مبدئية على أمر الزواج، قالت له فى هدوء:

وما رأيك فى خديجة؟

سكت الفتى هنيهة مستغربًا، ثم قال:

السيدة خديجة؟ وهل تقبلنى؟

مطت نفيسة شفتيها فى حنكة، وهى تخفض رأسها لثوان، وكأنها تفكر، ثم رفعت رأسها قائلة:

أسألها وأبلغك.

أنهت نفيسة اللقاء، وهى تحاول أن تخفى فرحتها بتوفيقها فى زواج حبيبتها خديجة بنت خويلد على فتى مكة النابه .. محمد بن عبد اللـه ..

وكان كل ما فى مخيلتها أنه مجرد زواج.

لكنها لم تكن تعلم أنها نجحت فى زواج هو الأشـهر فى التـاريخ، وأن الأحـداث العظيمـة قـد بدأت تقترب من عش الزواج السعيد .. أحداث ستهتز لها مكة .. والدنيا كلها.

* * *

محمد وخديجة ..

قصة الحب التى تحاكى بها كل من عرفهما، وعـش هـادئ يظللـه الحـب والحنـان، ويحميـه التفاهم والحوار ..

خمس سنوات يتولى فيها محمد تجارة خديجة لتنمو وتنمو، خمس سنوات وخديجـة يزيـد فخرها بزوجها الذى يزداد صيته يومًا بعد يوم، بين أهل مكة كتاجر وإنسان.

خمس سنوات ويتوج حبهما بزينب .. المولودة الأولى ..

كانت فرحة خديجة بابنتها لا توصف، فهى البنت الأولى التى تنجبها رغم زواجها مـن قبـل، وهى الابنة الأولى من زوجها محمد.

ملأت زينب البيت حبًّا على حب، ودفئًا على دفء، وكانت تقفز الفرحة من عينى خديجـة، وهى ترى زوجها محمد يحمل زينب بين ذراعيه، ويلاعبها.

وكعادة العرب عامة والأشراف خاصة .. ترسل خديجـة ابنتهـا زينـب إلى مرضـعة فى الباديـة لترضعها لمدة عامين، ثم تعود إليها؛ لتربيها على مكارم الآداب والأخلاق ..

كانت زينب هى هبة اللـه الأولى للزوجين الحبيبين، ولكنهـا لم تكـن آخرهـا، فلقـد أنجبـت خديجة بعدها بعام أو عامين أم كلثوم، وتلتها بعام واحد ابنتهما الثالثة رقية، وعندما جاء العام العاشرعلى زواجهما أرسل اللـه لهما فاطمة، ليمتلئ البيت عـن آخـره بـأربع زهـراوات، تتفـتح عليهن عيون خديجة كل يوم لتعطيهن من حنانها وأخلاقها وحكمتها لسنوات ...

* * *

"أبو العاص بن الربيع "

هتفت بها هالة بنت خويلد أخت خديجة، والتى اعتادت أن تزورها بين الحين والآخر، كما اعتاد ابنها أبو العاص بن الربيع، والتى نظرت إلى أختها، وهى تحدق فى عينها، وتقول:

أبو العاص ابنك، ما به؟

ابتسمت هالة، وهى تقول:

وصل إلى سن الزواج.

بدأت خديجة تصلها الرسالة، لتداعبها بنظرة ذكاء منها، قائلة:

وهل وجدتِ العروس؟

لاحقتها هالة مداعبة، وهى تقول:

نعم يا أختى العزيزة، وجدتها فى هذا المنزل، فتاة جميلة مؤدبة، ابنة لزوجين كريمين، واسمها زينب ..

ثم مالت على خديجة، وهى تقول:

هل تعرفينها؟

ضحكت خديجة، ثم قامت من مجلسها، وهى تقول:

لا تكفى عن أسلوبك الساخر يا هالة حتى فى أكثر الأمور خطورة ..

اصطنعت هالة شيئًا من الجدية، وهو تقول:

إذن سأتحدث بجدية إذا كان أسلوبى هذا سيفسد الأمر ..

ثم تابعت:

أنت تعرفين أبا العاص جيدًا، وأنا لن أجد له خيرًا من زينب زوجة له ..

ثم لاحقتها قائلة فى حسم:

ما رأيك؟

قالت خديجة فى هدوء:

لن أقول لك رأيى قبل تناول الغداء.

هالة:

إلى هذه الدرجة يحتاج الأمر إلى تفكير، ومع ذلك إذا كنت مصرة فإنى أحتاج إلى رأيك حتى أستطيع أن آكل بشهية ..

خديجة:

أبو العاص شاب مؤدب وعلى خلق، ولكنى أحتاج إلى معرفة رأى زينب أولًا، ثم استشارة والدها ثانيًا .

تهللت هالة فرحًا، وهى تقول:

هل يعنى كلامك أنك موافقة؟

خديجة:

بكل تأكيد.

بعد أيام قليلة كانت خديجة - والتى تقترب من الخمس وخمسين عامًا - تزف ابنتها إلى بيت زوجها أبى العاص بن الربيع، لتذوق بعد كل هذه السنين فرحة زواج الابنة الكبرى..

إلا أن شيئًا ما نغص هذه الفرحة ..

شيئًا يخص رقية وأم كلثوم.

فلقد أتت إلى البيت رسالة غير متوقعة بخصوصهما ..

غير متوقعة ..

أبدًا.

* * *

" أبو لهب يطلب يد رقية وأم كلثوم، لعتبة وعتيبة "

قالتها إحدى النساء التى أرسلتها أم جميل زوجة أبي لهب للسيدة خديجة، والتى ما لبثت أن سمعت الخبر حتى أصابها الضيق والهم.

لم تكن أبدًا أم جميل زوجة أبي لهب هى المرأة التى تتمناها خديجة حماة لبناتها، فهى امرأة متكبرة سليطة اللسان، لا تتهاون فى إيذاء الناس، ولا يمكن أن تأتمنها على بنتيها.

ومحمد أيضًا يعلم ذلك ..

لكن ربما كانت علاقة محمد بعمه أحد الأسباب التى جعلته يفكر فى الأمر .. وربما كانت موافقة رقية وأم كلثوم على الارتباط بعتبة وعتيبة، هى السبب الرئيسى الذى رجح كفة الزواج .. وتم عقد القران بالفعل.

لم ترتح خديجة لما حدث، لكن الأمور سارت طبيعية إلى حد ما، وربما تراجع ذلك التخوف شيئًا فشيئًا مع مرور الوقت ..

إلا أن تخوفًا وقلقًا بدأ يظهر فى اتجاه آخر، أصاب خديجة بالقلق أضعافًا مضاعفة على زوجها محمد ..

" وما الذى يفعله محمد؟ "

همست بها خديجة لنفسها وهى فى حالة شرود، تحاول أن تفسر الحالة الجديدة الطارئة التى ظهر عليها زوجها محمد وهو يقترب من الأربعين عامًا، دون أن تصل إلى شىء، ثم تابعت وهى تحدث نفسها:

"أسبوع كامل ومحمد فى غار حراء، فى حالة تأمل فى الكون والحياة".

الغريب أنه رغم حالة القلق والغموض الذى يحيط بموقف زوجها محمد، إلا أن خديجة لم تشأ أن تزعجه أو تعترض على تصرفه ..

رغم كل هذا القلق، كانت خديجة صاحبة الخمس وخمسين عامًا تواظب على الصعود المرهق للجبل؛ حتى تصل إلى غار حراء، فتضع لزوجها الطعام، وترسل إليه حبها عبر

نظرات الحنان، ثم تمكث معه بالأيام تشاركه خلوته وتأمله، ثم تتركه فى خلوته دون أن تعترض أو تبدى اندهاشًا أو تذمرًا ..

غريب أمر هذه المرأة ..

هل تثق بزوجها إلى هذا الحد؟ هل تشعر فى قرارة نفسها أنها أمام شخص غير عادى، وبالتالى فلابد أن يكون له أفعال غير عادية؟

هل تذكرت فجأة النبوءة القديمة منذ ثلاثة عشر عامًا، عندما جاء إليها ميسرة من رحلة الشام، ليخبرها بأن الراهب اليهودى قال عنه إنه نبى ..

ربما كانت خديجة هى الوحيدة التى تعرف الحقيقة .. تعرفها قبل أن يعرفها محمد نفسه ..

وظلت خديجة تصعد الجبل وتنقل الطعام، وتشارك زوجها فى الخلوة، ثم تبتسم له، وتتركه إلى بيتها وبناتها تحتضنهم وتربيهم ..

عامان وخديجة تنتظر .. تنتظر زوجها أن يعود إليها حاملًا الرسالة ..

رسالة النبى المنتظر.

* * *

" زملونى .. زملونى"

هتف بها محمد فى فزع، وهو مندفع داخل المنزل بمجرد أن فتحت له خديجة، ليهرع إلى فراشه قبل أن تغطيه خديجة وتسأله فى لهفة:

ما بك يا محمد، ماذا حدث؟

حكى لها الرسول ما حدث فى غار حراء من ذلك الكائن الغريب الذى نزل إليه، ليطلب منه أن يقرأ وهو فى قمة الفزع والرعب، حتى ظن الرسول أنه جن، وأنه قد أصيب به.

أخذت خديجة تهدئ من روع زوجها، وتربت عليه، وهى تقول له فى حماس:

"كلا والله لا يخزيك الله أبدًا، وإنك لتصل الرحم، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق" .

كانت كلمات خديجة بردًا وسلامًا على محمد، فبدأ يهدأ ويتمالك نفسه، ويحاول استيعاب ما حدث بهدوء.

كم أنت رائعة يا خديجة!! ..

كم أنت عاقلة حكيمة!! ..

لم تكتف خديجة بذلك، بل كانت الخطوة التالية مباشرة أن دعت زوجها إلى الذهاب إلى ابن عمها ورقة بن نوفل لسؤاله ..

وبمجرد أن سمع ورقة بن نوفل ذو التسعين عامًا ما حدث، حتى التفت إلى محمد، وقال له فى ثقة:

"يا محمد .. إنك لنبى آخر الزمان، ولقد أتاك الناموس الذى جاء موسى، وإن قومك سوف يكذبونك ويؤذونك ويخرجونك" ..

ثم تابع فى شوق:

"ليتنى كنت شابًّا إذ يخرجك قومك، فيدركنى هذا اليوم، فأنصرك نصرًا مؤزرًا".

سكت الرسول هنيهة، محاولًا استيعاب الموقف، ثم قال لورقة متسائلًا:

"أومخرجى هم؟"

قال ورقة:

"نعم، لم يأت رجل بما أوتيت به إلا أوذى".

عاد الرسول وخديجة إلى المنزل فى حالة تفكير عميق فيما قاله ورقة بن نوفل ..

زوج سيتحمل مسئولية العالم وهو فى سن الأربعين ..

وزوجة أصبحت زوجة صاحب الرسالة، وهى فى سن الخامسة والخمسين ..

وثلاث بنات يحتاجون إلى الرعاية والمتابعة ..

يا لها من مهمة ثقيلة، ويا له من طريق طويل سيدأ بعد الستين ..

ومن الآن.

" أشهد أن لا إله إلا اللـه، وأشهد أنك رسول اللـه "

قالتها خديجة بعد أربعة أيام فقط من نزول الوحى، هى نفس الفترة التى انقطع فيها جبريل من السماء ليتركها وزوجها فى بحر من التفكير والتخمين، حتى نزل الوحى بعد أربعة أيام ينبئ الرسول قائلًا:

يا محمد .. أنت رسول اللـه، وأنا جبريل من السماء.

لم يعد محمد الآن زوجًا لخديجة فحسب، بل أصبح رسول اللـه.

شىء صعب أن تكتشف امرأة فجأة أن زوجها أصبح مسئولا عن العالم، وأن تكليفه بهذه المهمة لم يكن من بشر، إنما جاء من السماء.

كانت خديجة أول من وقفت بجانب محمد رسول اللـه فى دعوته، لتبدأ معه مشواره الطويل فى مواجهة العالم.

كانت خديجة أول من أسلمت على وجه الأرض، وأول من أسلمت من النساء على وجه الأرض .. شرف آخر يضاف إلى الأميرة ..

ويبدأ الرسول طريقه بدعوة أقربائه ..

ثلاث سنوات تدفعه وتعينه وتصبره وتشير عليه .. حتى جاءت اللحظة الحاسمة.

لحظة إعلان الرسالة فى مكة.

اللحظة التى سيعرف فيها الجميع أمر الرسالة وأمر النبوة .

وكانت بداية المواجهة .. ليست مواجهات الرسول ضد مكة فحسب، بل مواجهات خديجة نفسها.

واجه أبو لهب الرسول وكذبه وسخر منه وآذاه، حتى أنزل اللـه سورة فيه:

(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ {1/111} مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ {2/111} سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ {3/111} وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ {4/111} فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ {5/111})

[المَسَد].

وهنا وقع ما كانت تخشاه خديجة منذ زمن، فلقد جن جنون أم جميل، وشحنت نفسها بالحقد على الرسول، فقررت الانتقام منه فى بناته، وأمرت عتبة وعتيبة بأن يطلقا أم كلثوم ورقية.

هكذا دفعة واحدة ..

وكم كانت صدمة خديجة، وهى ترى بنتيها يطلقان بغير ذنب.

ليس هذا فحسب، بل جا ء عتيبة إلى الرسول ليطلق ابنته ويسبه، حتى دعا عليه الرسول أن يسلط عليه كلبًا من كلابه ..

مسكينة خديجة ..

كيف تتحمل أم هذه الصدمة؟

لكن سلاح الإيمان بالله ألهمها الصبر، وصدقها مع الله وجهادها مع رسوله، جعل الله يبدل حزنها فرحًا بعد أقل من عامين، حيث أبدل الله رقية زوجًا خيرًا ألف مرة من عتبة بن أبى لهب.

عثمان بن عفان ..

الآن ترتسم البسمة على الشفاه .. الآن تفرح خديجة وتسعد بابنتها، وتحمد الله على كرمه وعطاياه ..

يومًا بعد يوم يشتد الإيذاء على المسلمين، ويومًا بعد يوم تقف الزوجة بجانب زوجها، تهون عليه وتدفعه لإكمال الرسالة، وتشحذ من عزيمته أمام الصعاب.

إلا أن الرسول فى السنة الخامسة من البعثة يدعو المسلمين للهجرة للحبشة، لتودع خديجة ابنتها رقية أول المهاجرين إلى الحبشة، هى وزوجها عثمان بن عفان.

لا تدرى خديجة أى شىء تتحمل ..

حزنها على ابنتها أم كلثوم، أم فراق بنتها رقية وسفرها إلى أرض غريبة لا تعرف عنها شيئًا، أم الإيذاء الشرس الذى يتعرض له الرسول وأصحابه ..

إلا أن الأميرة لا تتوقف عن الجهاد أبدًا ..

ففى السنة السادسة من البعثة، تقرر قريش المقاطعة العامة للرسول وأصحابه، ويجمع أبو طالب المسلمين وأهله فى شعب أبي طالب، ويتعرض المسلمون لحصار شرس .. لا طعام، لا زواج، لا معاملات ..

وتدخل خديجة الحصار مع المسلمين ..

الآن لا تجد خديجة -أكثر أهل مكة- ثراء اللقمة وشربة الماء، وهى صابرة مجاهدة لا تشتكى، بل يصلها الطعام، فتقول:

"والله لا آكل حتى يأكل المسلمون" ..

فتقوم فتوزع الطعام على ضعفاء المسلمين.

يشتد الحصار يومًا بعد يوم، وبعد ثمانية وستين عامًا تعبت الأميرة ..

يتعب الجسد، ويبدأ المرض يتسلل إليه ليسكنه.

بعد ثلاث سنوات ينتهى الحصار، وتعود خديجة إلى بيتها منهكة القوى ضعيفة هزيلة .. أرهقتها السنون وأجهدها الحصار ..

واقتربت لحظة الفراق، وينزل جبريل من السماء ليقول:

"يا محمد .. إن الله يقرئ خديجة السلام، ويقول لك بشر خديجة بقصر من قصب فى الجنة، لا صخب فيه ولا تعب" ..

الآن يغرب وجه الأميرة عن النبى، وعن مكة وعن الدنيا كلها ..

الآن يحزن النبى كما لم يحزن قط، حتى قال عمار بن ياسر: "والله لقد خشينا على رسول الله من شدة حزنه على خديجة" ..

الآن يبكى النبى بكاء مريرًا .. فلقد ماتت خديجة.

لكن لم ينسها الرسول أبدًا، حتى بعد زواجه من كل زوجاته، حتى بعد أن تزوج من أحبها، وبنت أحب الناس إليه " عائشة " .. كانت خديجة دائمًا وأبدًا متربعة فى قلب الرسول، لا ينافسها ولا يقدر أن ينافسها أحد.

كان يشعر بها ويسترجع ذكرياتها عندما تدق هالة أخت خديجة بابه لزيارة بناته، فى يوم كان يذبح فيه الذبائح ويوزعها على زوجاته حيث سمع دق الباب، فقال: اللهم اجعلها خديجة، ثم قال لها لما رآها:

مرحبًا بأخت خديجة وأحباء خديجة.

حتى تغار عائشة، وتقول فى ضيق:

خديجة خديجة .. وكأن ليس فى الدنيا إلا خديجة ..

فيقول الرسول:

"يا عائشة .. لا تؤذى خديجة؛ فإنى رزقت حبها، وإنى أحب من تحب خديجة، فمن أحب خديجة فهو حبيبى".

وبعد غزوة بدر، يأسر المسلمون أبا العاص بن الربيع زوج ابنته زينب، وكان لا يزال مشركًا، فأرسلت إليه زينب عقد السيدة خديجة لتفك به أسره، فلما رآه الرسول، قال وهو يبكى:

قلادة خديجة، ونظر إلى أصحابه، وقال:

إن زينب بعثت بهذا المال لافتداء أبى العاص، فإن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا.

فبكى بعض الصحابة، وقالوا:

نعم يا رسول الله .. نشاء.

فأعطى القلادة لأبى العاص بن الربيع، وقال له:

خذ القلادة، وعد إلى زينب، وقل لها احفظى قلادة خديجة.

ويوم فتح مكة، بعد أربعة عشر عامًا من وفاتها ترك الجيش والناس والعالم بعد دخول مكة، ليجلس مع سيدة عجوز ساعة، بعد أن فرش تحتها عباءته، وبعد أن فرغ، سأله أحد الصحابة:

من هذه يا رسول اللـه؟

قال الرسول: إنها صاحبة خديجة.

قال الصحابى: فيم كنتم تتحدثون يا رسول اللـه؟

قال الرسول: كنا نتذكر الأيام الخوالى .. أيام خديجة.

وتغار عائشة مرة أخرى، فتقول فى ضيق:

أما زلت تذكر هذه العجوز، وقد واراها اللـه التراب، وقد أبدلك اللـه خيرًا منها؟!

قال النبى فى حسم:

لا واللـه .. ما أبدلنى اللـه ما هو خير منها، هى التى آمنت بى إذ كفر الناس، وصدقتنى إذ كذبنى الناس، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس، ورزقنى اللـه منها الولد.

حتى شعرت السيدة عائشة بغضب النبى، فقالت له فى توسل:

استغفر لى يا رسول اللـه.

قال النبى:

لا .. حتى تستغفرى لخديجة.

وداعًا يا خديجة ..

يا من قال فيك رسول اللـه:

خير نساء العالمين: مريم ابنة عمران ، وخديجة بنت خويلد، وآسية زوجة فرعون، وفاطمة بنت محمد.

وداعًا يا خديجة .. يا أميرة النساء فى الدنيا والآخرة.

دروس وتحليل

1- المرأة تستطيع أن تنجح وتتفوق وتقود (كانت السيدة خديجة سيدة أعمال، حققت نجاحًا، تفوقت به على الرجال في مكة):

ليس صحيحًا أن قدرات المرأة أقل من قدرات الرجل، وأن النجا ح والتفوق والقيادة من نصيب الرجل فقط، فلا فرق (كقاعدة مبدئية) بين الرجل والمرأة في مستوى الذكاء والقدرة على التفكير والإبداع. صحيح أن الرجل قد يتفوق في القوة البدنية، ولكن المرأة تتفوق في القدرة على التحمل، وتتمتع بقدرة هائلة على الصبر على الآخرين، ولا يستطيع الرجل أن ينافسها في قوة العاطفة .. هذه المسلمة التي يؤمن بها المجتمع العربي والمسلم، ستتكسر لو أعطيت المرأة نفس الفرصة في الحركة والتدريب والتأهيل والتفاعل المجتمعي، ساعتها ستحقق نجاحات في العمل لا تقل أبدًا عن الرجل، وستتفوق عليه في مجالات وسيتفوق عليها هو في مجالات، ولكن تبقى القاعدة أن النجاح والتفوق والقدرة على القيادة والإنجاز والتغيير ملك للاثنين لا للرجل فقط، فقط لو آمنا بقدرة المرأة، ووفرنا لها كل الإمكانات التي تتوفر للرجل.

2- **الأخلاق الحسنة تزيد من جمال الفتاة المتوسطة الجمال، والأخلاق السيئة تهبط بالفتاة الجميلة إلى قاع سحيقة (كانت السيدة خديجة مثار إعجاب قريش كلها، ليس لنسبها ومالها فقط، بل وأخلاقها أيضًا)**:

طبيعي ومطلوب أن تهتم الفتاة بجمالها ورشاقتها وزيها، وهذا أمر دعا إليه الإسلام، وحث عليه في حدود مواصفات وقواعد وضعها لحجاب المرأة، دون اشتراط زي بعينه، لكن الخطورة أن تعتقد الفتاة أن هذا هو رأس مالها الوحيد في الحياة، الذي سيحقق فرصة الزواج والنجاح فيها، فمن الممكن أن يحقق الجمال فرصة الزواج، ولكنه غير قادر وحده فقط أن يحقق النجاح في الزواج، والواقع يقول إن زيجات كثيرة كان المظهر هو البطل الوحيد فيها، إلا أن هذه الزيجات لم تستمر طويلًا؛ لأن التجربة أثبتت أن الفتاة في حاجة

إلى حسن الخلق، وإلى درجة من الثقافة والوعى، تمكنها مـن إدارة العلاقـة مـع زوجهـا وأهلـه وتربية أبنائها التربية المتوازنة، تلك التربية التى تجمع بـين التربيـة الإيمانيـة والخلقيـة والعقليـة والجسمية والنفسية والجنسية، وبمقدار تمكـن الفتـاة مـن الارتفـاع بمسـتوى أخلاقهـا وثقافتهـا ووعيها ودرايتها بمشكلات الحياة، وكيفية التعامل معها، سيكون نجاحها، وسيكون جمالها حينئذ زينة لها تسر الناظرين، وإذا تدنى مستوى أخلاقهـا وثقافتهـا ووعيهـا، سـيتحول جمالهـا فى نظـر الناس إلى قبح ولو بعد حين.

3- رغم ثراء خديجة قبل الإسـلام، إلا أن فطرتهـا السـليمة منعتهـا أن ترتكـب المعـاصى، والكثير من الفتيات يرتكبن المعاصى رغم إسلامهن (السيدة خديجة رغم حجم تجارتهـا المهـول لم يعرف عنها أنها تعاملت بالربا قط، ولم يعرف عنها رغم ثرائها أنهـا شربـت الخمـر قـط، ولم يعرف عنها أنها سجدت لصنم قط):

الإسلام ليس قيدًا على البشر، بل هو دعـوة للفطـرة السـليمة التـى تـرفض المعصـية، وتنبـذ الخلق السيئ، وتنفر من المعـاملات السـيئة بـين النـاس .. إنـه دعـوة إلى أصـول يعرفهـا النـاس جميعًا، إذا ما صحا ضميرهم وصلحت نيـاتهم وطهـرت نفوسـهم، وهكـذا كـان سـلوك السـيدة خديجة بتلقائية قبل أن تعرف دين الإسلام، فرغم أن تجار مكة كلها كانت تتعامل بالربا، إلا أن فطرة خديجة لم تكن ترتاح إلى هذه الطريقة فى التعامل المالى، ورغم أن شرب الخمر كـان أمـرًا عاديًّا، وخصوصًا بين أبناء الطبقة الثرية، إلا أن نفسها كانـت تعافـه، وعقلهـا كـان يـرفض الشىء الذى يتسبب فى ذهاب عقلها، ويجعلها لا تسـتطيع الـتحكم فى تصرفاتهـا، ورغـم أن مكـة كلهـا كانت تعبد الأصنام، لم يعرف عنها أنها سجدت لصنم قط، هكذا كانت السيدة خديجة قبـل أن تعرف الإسلام، ولكن ليس هكذا تفعل الكثير من فتياتنا رغم نزول الإسلام منذ أربعة عشر قرنًـا، ورغم أنهن يولدن مسلمات من أبوين مسلمين، فلا زالت فكرتهن عن الإسلام أنه يقيدها، لا أنه يحافظ عليها، وأنه يحرمها، لا أنه يحميها ويقدرها، لا زالـت الكثـير مـن الفتيـات تتجـرأن عـلى معصية اللـه فى زيهن وحركاتهن وكلامهن، رغم تأكدهن من حرمة ما يفعلـن .. إنهـا سـلوكيات ينكرها الإسلام ويبغضها اللـه ورسوله، فمتى تتعلم هذه الفتيات من أمهن السيدة خديجة.



4- العلاقة بين الجنسين الآن تحتاج بشدة إلى خلق العفة؛ حتى نحمى بناتنا وأبناءنا من الوقوع فى المعصية والمشكلات الاجتماعية المعقدة (كانت السيدة خديجة رمزًا للعفة، حتى لقبت فى مكة بلقب الطاهرة):

رغم كثرة مميزات السيدة خديجة، والتى من الصعب أن تجتمع فى سيدة واحدة؛ من نسب وثراء وجمال وخلق، إلا أن الصفة التى طغت على كل ذلك، حتى كانت مثار حديث الناس فى مكة، ودفعتهم إلى أن يلقبوها بلقب جميل هو لقب "الطاهرة"، هى صفة العفة، حيث كانت تتميز بالحياء والأدب الشديد فى التعامل مع الرجال، وهى صفة تصبح مثار إعجاب لنا أيضًا، ونحن نعلم أن هذا هو سلوكها قبل الإسلام.

إن العفة أصبحت من الأخلاق النادرة فى هذا الزمان، فلقد ندر الحياء فى التعامل بين الجنسين، ولم تعد هناك قواعد للتعامل تضبط الحوار، حتى تحول هذا التعامل إلى عملية خطرة، غير آمنة على الفتاة والفتى من المعصية، والوقوع فى مشكلات اجتماعية، هددت المجتمعات الإسلامية بالفعل.

إن الشباب يحتاج إلى أن يتعلم من السيدة خديجة ومن الإسلام قواعد التحاور والتعامل مع الجنس الآخر؛ من غض البصر والحياء والأدب فى الكلام والحركة، فى اعتدال طبيعى بلا مبالغة، يحقق المصلحة، ويحافظ على المسافات بين الأشخاص، حتى يصبح تعاملا منضبطًا بتعاليم الإسلام .. إنه خلق العفة الذى نحتاجه بشدة فى أيامنا هذه، خلق تعلمنا إياه من أمنا خديجة، حتى قبل أن تعرف دين الإسلام، فلنتعلم من أمنا خلق العفة، ونصبح أطهارًا كما لقبت أمنا بلقبها الجميل .. الطاهرة. ومن قبلها كانت السيدة مريم، التى قال الله فيها (وَمَرْيَمَ ابْنَتَ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا) [التحريم:12].

5 - الإسلام يسمح بأن تسعى المرأة للزواج من الرجل، ولكن بترتيبات معينة، تحفظ لها كرامتها، وتحافظ على حيائها وعفتها (السيدة خديجة توسط صديقتها للزواج من الرسول):

قد تسعى الفتاة للزواج من شاب أعجبت بخلقه ودينه، ورأت فيه الزوج المناسب لها، وهو أمر لا يمنعه الإسلام، بشرط أن يتم بطريقة تحفظ كرامة الفتاة، بحيث لا يوحى

للشاب بأن الفتاة تعرض نفسها عليه، وأن يكون ذلك فى إطار الضوابط التى وضعها الإسلام فى شأن الكلام بين الجنسين، والسيدة خديجة قدمت نموذجًا ذكيًّا وعمليًّا فى ذلك، بأن اعتمدت على صديقتها المؤتمنة والعاقلة، والتى تحسن التصرف فى مثل هذه الأمور، بأن تتحدث للرسول فى مسألة الزواج، فإذا تحمس للفكرة، عرضت عليه الأمر من طرفها، وليس على لسان خديجة، وهنا يفهم الرسول أن طلب الزواج يأتى منه هو، وأن عليه أن ينتظر الطرف الآخر للموافقة.. إنها طريقة لابد أن يتوافر فيها وسيط على قدر عال من الأمانة والذكاء والحنكة فى التصرف .. أما الفتيات اللائى يعرضن أنفسهن للزواج عن طريق وسائل تخرج عن إطار العفة، فإنهن يدفعن الثمن غاليًا بعد ذلك.

6 - المرأة تتميز بعواطفها القوية، وهى أكثر إقبالا على التدين من الرجل (السيدة خديجة أول من تشعر بنبوة الرسول):

على عكس الفكرة السائدة أن النساء بعيدات عن ربهن، وأنهن السبب فى انتشار المعاصى، ورغم أن الواقع الأليم الذى نعيشه تسبب فى هذه الفكرة، إلا أن الواقع أيضًا يقول إن الفتيات والنساء لديهن عاطفة دينية تفوق الرجال، وأن درجة إقبالهن على الدين والالتزام به أعلى من الرجل، وما يحدث على الساحة الآن نتيجة للإهمال الشديد للمرأة، وتركها نهبًا لإعلام ومجتمع بعيدين عن الإسلام، فطبيعى أن تكون النتيجة كما نرى، لكن إذا تم الالتفات للمرأة، بوضع برامج قوية لتوعيتها بدينها، فسيعرف الجميع مدى إقبال المرأة على ربها وتمسكها بدينها.

7- زواج السيدة خديجة من الرسول كان ناجحًا رغم إخلاله بقاعدتين مهمتين فى الزواج؛ كبر سن الزوجة، والتكافؤ المادى بين الزوجين (السيدة خديجة تتزوج الرسول، وهى تكبره بخمسة عشر عامًا، وأغنى منه، والزواج ينجح):

دائمًا ما ينصح خبراء العلاقات الزوجية بأن يكون الزوج أكبر سنًّا من الزوجة، وهم يضعون هذا الفارق ضمانًا لأن تكون القيادة فى يد الرجل، بما يجعل سير الحياة طبيعيًّا دون مشكلات نفسية، ويرى الخبراء أيضًا أن الزواج الناجح لابد أن يحقق ثلاثة تكافؤات: التكافؤ الاجتماعى، والتكافؤ الثقافى، والتكافؤ المادى، إلا أن حالة زواج الرسول والسيدة خديجة لم يتوافر فيها شرط فارق السن لصالح الزوج، بل كان لصالح الزوجة،

وبفارق خمسة عشر عامًا، إلا أن خبرة الرسول بالحياة وعقله وحكمته كانت أكبر من هذا الفارق، فظلت القيادة فى يده؛ بما يملك من قدرة أكبر على اتخاذ القرار السليم.

أما الفارق المادى، والذى كان لصالح السيدة خديجة بالطبع، فلم يكن مؤثرًا؛ بسبب علاقة الحب والمودة الفائقة بين السيدة خديجة والرسول، والتى جعلت السيدة خديجة تقبل بأن تعيش فى مستوى مادى أقل مما اعتادت عليه، ساعد على ذلك أيضًا صفات السيدة خديجة الجهادية؛ من الصبر والتحمل وحمل الرسالة.

لكى ينجح الزواج لابد من عدة شروط أساسية، تجعله يسير فى الاتجاه الصحيح، وما حدث فى زواج الرسول والسيدة خديجة كان حالة خاصة لا يتكرر النجاح فيها إلا إذا تكررت صفات خاصة للزوجين، تساعدان فى نجاح هذه الحالة بعينها.

8- اشتراك الزوجين فى هدف واحد، أو إعانة طرف للطرف الآخر على النجاح فى هدفه، أحد أسباب استمرار الحب ونجاح الزواج (السيدة خديجة تصعد للجبل وهى فى سن الخامسة والخمسين لتعطى الطعام للرسول فى غار حراء):

من أكثر الأمور التى تقوى الحب بين الزوجين هو الاتفاق على هدف واحد، والعمل معًا من أجل تحقيقه، وسيكون المردود أقوى لو كان هذا الهدف ساميًا ونبيلًا، مثلما كانت تفعل السيدة خديجة فى مساعدة الرسول؛ حيث أعانته على أمر، هى حتى لم تفهمه فهمًا كاملًا، وهو يمكث فى غار حراء متأملًا، وعندما نزل من الغار مضطربًا فزعًا وقفت بجانبه، وهدأته حتى مرت الأزمة، وبعد أن ظهرت نبوته ورسالته، كانت أول من يعينه عليها.

إن تفاهم الزوجين وسعادتهما يصل إلى أعلى مدى لو اتفق الطرفان على تحقيق هدف نبيل، أو رسالة خير، تتميز بالعطاء للناس ورضا الله، فساعتها ستتقلص هموم الدنيا مهما بلغت، وسيكون مكانها الهدوء والسكينة.

لقد لجأ الرسول إلى زوجته بمجرد أن حدثت له مشكلة كبرى، ولم يلجأ إلى أقرب أصحابه أبى بكر الصديق؛ لعلمه أن خديجة تفهمه، وستعينه على ما هو فيه، وقد كان.

9- ثبات السيدة خديجة عندما رأت الرسول فزعًا كان عجيبًا، وتصرفها كان فى غاية الحكمة (السيدة خديجة تهدئ من روع الرسول بعد نزوله من غار حراء مفزوعًا):

"والله لن يخزيك الله أبدًا"

كانت جملة رائعة، قالتها السيدة خديجة للرسول؛ لتكون بردًا وسلامًا على صدره، بعدما رأت الفزع على وجهه، وارتعاش جسده بعد نزوله من غار حراء، لقد كان ثبات السيدة خديجة مبهرًا، وتحليلها لموقف لم تفهمه على وجه الدقه كان عجيبًا، وكان من ذكائها وحكمتها أنها لم تشأ أن ترهق الرسول فى هذا الموقف بأسئلة من نوعية: وما الذى كان يذهبك إلى هناك؟ وعبارات مثل: كنت أشعر أن هذا سيحدث، بل هدأته بالمنطق، ودعمته إيمانيًّا، بأن الله لن يخزى من يحسن إلى الناس، ويقف بجانب الضعيف، ثم استكملت معالجتها للأمر بتفسيرها للموقف، بالذهاب إلى ابن عمها، ورقة بن نوفل.

إن السيدة خديجة نموذج لزوجة يهرع إليها زوجها فى الشدائد، وهى نموذج تفتخر به المرأة فى ثباتها عند الشدة، وسبقها للإيمان بالله بعد معرفتها بنبوة الرسول، لتصبح أول امرأة تسجد لله، وأول من يبشر بالجنة، وأول من يؤدى الفرائض لله .. إنه فخر لكل امرأة، وإقرار من الإسلام بمكانتها عنده.

10- قوة الإيمان بالله تجعل النفس طيعة، تقبل الجهد والمشقة وقلة الزاد (السيدة خديجة لا تجد ما تأكله فى شعب أبى طالب):

الإيمان يربى النفوس، ويجعلها طيعة حسبما يريد صاحبها، وكلما زاد إيمان المؤمن قوى على نفسه، فمنعها مما تحب وهى راضية محبة، هكذا كانت خديجة بعد أن كانت أميرة فى مكة، لها كل ما تريد، ظلت ثلاث سنوات فى شعب أبى طالب، لا تجد ما تأكله، حتى أصابها المرض دون أن تشتكى؛ فهى تعلم أن صبرها هو نصف إيمانها، وإيمان خديجة كبير وكبير جدًّا، جعل جبريل ينزل من السماء يقول لرسول الله:

"يا محمد .. إن الله يقرئ خديجة السلام، ويقول لك: بشر خديجة بقصرمن قصب فى الجنة، لا صخب فيه ولا تعب".

وهكذا الإيمان يصنع بالنفوس، وهكذا الإيمان يطوع الجسد لطاعة الله.



10- وفاء الرسول لخديجة كان مثلًا نادرًا للوفاء فى قصص الزواج عبر التاريخ (الرسول يبكى بعد أن يرى عقد خديجة فى غزوة بدر):

لم يستطع الرسول أن ينسى خديجة بعد وفاتها، وحتى بعد أن تزوج كل نسائه حتى وفاته، وكان يجاهر بذلك أمام زوجاته ويصر عليه، حتى أمام عائشة أقرب زوجاته إلى قلبه بعدها.

كان الرسول يرحب بهالة أختها ترحيبًا شديدًا، وكان إذا ذبح ذبيحة وزع على أصدقاء خديجة، ويبكى الرسول بشدة بعد أن رأى عقد السيدة خديجة فى غزوة بدر بعد ثلاث سنوات من وفاتها، ويوم فتح مكة فى العام الثامن من الهجرة، أى بعد وفاتها بتسع سنوات، جلس مع سيدة عجوز ليتذكر معها ذكرياتهما مع خديجة.

كان وفاء الرسول لخديجة وفاء نادرًا لامرأة رافقته كفاح الرسالة، وضحت فى سبيل ذلك بكل ما تملك. كان وفاء الرسول لخديجة درسًا لكل زوج قدمت له زوجته الكثير، فحفظ لها جميلها وهى غائبة عنه، ومنا الآن الكثير من الأزواج ممن لا يحفظون جميل زوجاتهن وهن بين أيديهن.

* * *

سودة بنت زمعة

أم أمهات المؤمنين

سودة بنت زمعة
أم أمهات المؤمنين

" انفراجة كبيرة "

هتفت بها فى فرح خولة بنت حكيم، زوجة الصحابى عثمان بن مظعون، وهى تجلس وقد ألقت بجسدها على أريكتها، متحدثة إلى زوجها الذى لاحقها بنفس الفرحة:

انتصار كبير، من كان يتوقع أن يسلم فى سنة واحدة فقط من المدينة، سبعون رجلًا وامرأتان، ويأتون يبايعون الرسول فى العقبة بكل هذا الحماس.

قالت خولة:

بارك الله فى مصعب بن عمير؛ إنه حقًّا عبقرى فى الدعوة، كم كان الرسول صلى الله عليه وسلم صائبًا فى اختياره له!!

بدا بعض التأثر على وجه عثمان، وهو يقول:

الرسول .. نعم .. نعم.

تسرب القلق إلى خوله لتقترب منه قائلة:

ماذا بك يا عثمان؟ هل حدث لنبى الله سوء؟

نهض عثمان ليقول فى تأثر:

لا يا خولة .. لكن أمره يقلقنى.

قالت خولة فى لهفة:

ما الذى يقلقك بالتحديد؟ .. أفصح بالله عليك.

التفت إليها عثمان قائلًا:

يقلقنى وحدته يا خولة، لقد ماتت خديجة منذ أربعة أعوام، والآن هو يرعى بناته فاطمة أُم كلثوم، ويتحمل مع ذلك كل أعباء الدعوة، ويحارب قريش كلها ..

ثم تابع:

كثير يا خولة .. كثير.

قالت خولة فى أسى:

ومن يجرؤ أن يحدث الرسول فى زواج بعد خديجة يا عثمان؟!

نظر عثمان فى عينى خولة قائلًا فى إصرار:

أنت يا خولة .. أنت.

* * *

فى سن الثانية والخمسين، لا يزال النبى الكريم يحمل هم الدعوة، يخطط لها، ويعلم المسلمين فى دار الأرقم، ويواجه قريش بكل جبروتها، ثم يعود إلى بيته، يتحدث إلى فاطمة وأم كلثوم، ويتحمل عناء تربية ابنة بدأت تشب عن الطوق، لتواجه هى الأخرى حياتها ..

كان الصحابة يرون الرسول وحيدًا لعامين كاملين، دون أن يتحدث إليه أحد .. كان الجميع يدركون ما معنى خديجة للنبى، وما الذى يشعر به النبى بعد خديجة .. إلا هى ..

كانت تعرف، ولكنها أصرت أن تتحدث، حبها لرسول الله دفعها أن تكسر الحواجز، وتطلق لسانها بسؤال وجهته خولة بنت حكيم لرسول الله:

يا رسول الله .. ألا تتزوج؟

هزت الكلمة رسول الله، حتى توقف لسانه عن الكلام صامتًا للحظات، قبل أن ترى خولة الدموع تترقرق فى عينيه، ليجيب الرسول بصعوبة:

أتزوج؟! .. وهل بعد خديجة من أحد؟!

شعرت خولة مع حزن الرسول أنها قد أُذنبت بسؤالها، ولكنها تحاملت لتكمل قائلة:

فمن للبيت والعيال يا رسول اللـه؟

استمر الحوار الصعب على الطرفين، حتى شعرت خولة بنجاحها، بعد أن سألها الرسول مبديًا موافقته:

فمن؟

هتفت خولة فرحة:

يا رسول اللـه .. إن شئت بكرًا وإن شئت ثيبًا.

قال النبى:

فمن البكر، ومن الثيب؟

واصلت خولة بفرح:

أما البكر فعائشة بنت أحب الناس إليك، وأما الثيب فسودة بنت زمعة.

ظهر التفكير على وجه النبى، وهو يقول:

سودة؟

ثم تابع:

يا خولة .. ابدئى بسودة.

* * *

تبادلت خولة مع سودة بنت زمعة الضحكات، وهما يجلسان معًا فى بيت سودة، والتى تابعت ضاحكة:

أدخلت علىَّ السرور يا خولة، منذ زمن لم أضحك مثل هذا.

سألت خولة فى حنان:

وما الذى يمنعك من الضحك يا حبيبتى؟

نهضت سودة - وهى تصب مشروبًا، وكأنها لا تريد أن تظهر وجهها:

الذكريات .. الذكريات يا أختى العزيزة.

اقتربت خولة منها - وهى تضع يدها على كتفها - قائلة فى همس:

الذكريات! .. لا تكفى سبع سنوات لننسى؟

التفتت سودة وهى تناول خولة المشروب وتدعوها للجلوس، ثم قالت:

لا أستطيع أن أنسى .. كيف فقدت زوجى السكران بن عمرو ونحن فى رحلتنا إلى الحبشة، بعد أن عدنا إلى مكة بعد انتشار شائعة إسلام قريش، كنا قد كبرنا وكنا نحتاج بعضنا بعضًا، الآن هو عند ربه شهيدًا، وتركنى أعيش وحيدة مع ثمانين سنة من عمرى، فى هذه السن .. الوحدة صعبة يا خولة .. صعبة.

قالت خولة:

وماذا لو جاءتك الفرصة لتودعى الوحدة بذكرياتها؟

- لا أفهم ماذا تقصدين.
- الزواج مثلًا.
- هذه طرفة لم أتوقعها.
- لماذا يا سودة؟ لماذا؟
- عندما تتحدثين عن زواج أرملة عمرها ثمانون عامًا تكون هذه طرفة .. ليس أكثر.
- وماذا لو قلت لك إن هناك من يريد أن يتقدم إليك؟
- صمتت سودة دون أن تنبس ببنت شفة، بينما اقتربت منها خولة لتلاحقها بمفاجأة أكبر:
- وماذا لو قلت لك إنه رسول الله؟

وألجمت المفاجأة سودة، فلم تستطع لثوان أن تتحدث بكلمة .. على الإطلاق.

* * *

ماذا يكون شعور امرأة فى سن الثمانين، تسمع أن هناك من الرجال من يطلبها للزواج؟ وماذا يكون شعورها عندما تكتشف أن هذا الرجل الذى يطلبها للزواج، هو خير أهل الأرض على الإطلاق؟ وأن هذ الرجل نبى اللـه، ونبى آخر الزمان، الوحيد الذى له صلة بالسماء على وجه الأرض؟

كيف يكون شعور سودة وهى المرأة التى لا يعرفها أحد، وهى تنتقل فجأة إلى مصاف أشهر أهل الأرض، بعد أن تدخل أشرف بيت فى التاريخ، بيت النبوة.

عندما تحدث للمرء قفزات نفسية مفاجئة، يفقد المرء أحيانًا هدوءه وحكمته، وربما يتعدى دون قصد على بعض القوانين والأعراف، إلا أن فرحة سودة المذهلة لم تجعلها تنسى أن لها وليًّا يجب أن تستأذنه، حتى ولو كان الذى يطلبها رسول اللـه، فقالت لخولة:

يا خولة .. إن كان رسول اللـه يطلبنى للزواج، إذن فلتحدثى أبى.

لم تضع خوله وقتًا، لتحدث أباها الذى لم يكن مسلمًا، إلا أن سيرة رجل مثل الرسول سيكون زوجًا لابنته، كانت أقوى عنده من فروق العقيدة، حيث فكر قليلًا، ثم قال لخولة:

محمد؟ كفى كريم، هذا الرجل لم يجزع له أنف (أى لا يمكن أن يرفضه أحد) ..

دق قلب خولة فرحًا برد والد سودة ..

لقد نجحت خولة أن تزوج رسول اللـه بعد معاناة ظلت عامين بعد وفاة خديجة..

بعد قليل ستأخذ امرأة، بعد خديجة لقب أم المؤمنين .. إنها سودة بنت زمعة.

* * *

ربما فكرت سودة فى الأمر فشعرت أن الأمر مجرد شفقة من رسول اللـه عليها؛ لفقدانها زوجها وهما فى طريق عودتهما إلى الحبشة، وربما شعرت أن سنها وجمالها لا يهيئانها لأن يطلبها أحد كامرأة للزواج، وربما شعرت أن الذى سيحدث ربما بمثابة مكافأة من ربها على صبرها وإخلاصها لدعوتها، ولكن طبيعة السيدة سودة الطيبة السمحة والمرحة

أيضًا، لم تجعلها تتوقف كثيرًا عند تلك الافتراضات المحتملة والصحيحة غالبًا من وجهة نظرها، كي تهيئ نفسها لمهمة كبيرة وعظيمة ..

ربما كانت السنون قد مرت كي تفكر سودة في الأمر كامرأة، ولكن لتفكر في الأمر كأم لبنتين يجب أن ترعاهما، وكزوجة صاحبة رسالة، عليها أن تقف بجانب زوجها في إتمام مهمته العظيمة.

الآن تدخل السيدة سودة بنت زمعة أم الؤمنين بيت زوجها، وبين النبوة، تتحدث إلى فاطمة وأم كلثوم، وتفيض عليهما من حنانها وأمومتها اللذين حرما منهما منذ عامين .. تفكر كيف ترضى رسول الله؛ لأنه رسول الله ولأنه زوجها.

ولكنها ذكية أيضًا ..

فرغم سنواتها الثمانين، ورغم أنها بعدت كثيرًا عما يجذب رجل لامرأة، إلا أنها عرفت كيف يحبها الرسول ..

بمرحها ..

نعم بمرحها ..

لقد اكتشفت سودة أن لها مشية تعجب الرسول صلى الله عليه وسلم حتى أنه يبتسم كلما رآها تمشى هذ المشية، فكانت السيدة سودة تتعمد أن تمشى أمام الرسول؛ حتى تدخل عليه السرور بمشيتها ..

في جعبة السيدة سودة روح جميلة، تكفى أن يحبها زوجها، حتى وإن كانت في سن الثمانين، وتجعله ينسى أنه اختارها للزواج شفقة أو مواساة.

إلا أن طبيعة سودة جعلت تلك المواقف تتكرر ..

تنتظر السيدة سودة الرسول صلى الله عليه وسلم كل يوم لتصلى وراءه قيام الليل، وفي إحدى المرات أطال الرسول في الركوع، حتى خشيت السيدة سودة أن ينزل الدم من فمها، وما أن فرغ الرسول من الصلاة، حتى قالت له بمرح معتاد:

يا رسول اللـه .. صليت معك فركعت ركوعًا حتى خفت أن يسقط الـدم مـن أنفـى فكنـت أصلى معك ويدى على أنفى ، فهل تجوز الصلاة؟

فضحك الرسول صلى اللـه عليه وسلم .

وهنا لاحقته السيدة سودة:

يا رسول اللـه ، أصلى معك بعد ذلك، ولكن خفف مـن الركـوع والسـجود؛ حتـى لا أمسـك بأنفى.

كم أنت مرحة يا أمنا الجميلة، وكم أنت طيبة ورقيقة!

رحلة الدعوة مستمرة .. وأمنا سودة ليست المعلمة الخبيرة التى تحفظ الأحاديـث وتجيـب عن الأسئلة، ولكنها الأم الحنون والزوجة التى تفكر فى سعادة زوجهـا وبيتهـا، فتملـؤه بنفحـات من الدفء المتواصل يخفف عـن رسـول اللــه مـا يـراه مـن عـداء قـريش لـه ومحـن الـدعوة المتواصلة التى لا تنتهى.

وفى السنة الثالثة عشرة من البعثة، كانت المحنة أكبر مما ينبغى ..

لقد قررت قريش اغتيال الرسول، ويأتى أمر اللـه بالهجرة إلى المدينة.

ويهاجر الرسول إلى المدينة مع صاحبه أبى بكر الصديق، لتلحق به السيدة سودة مع فاطمـة وأم كلثوم لتواصل رحلتها مع الرسول .. فى المدينة.

* * *

تسعد سودة بسعادة الرسول فى المدينة، المدينة استقبلت الرسول استقبالًا أسطوريًا .. تنظـر سودة للرسول لتجده أكثر هدوءًا وأكثر اطمئنانًا بعد توقـف الحـروب فى مكـة .. لقـد أصـبحت الدعوة أكثر استقرارًا .. نسبيًا ..

فلقد عادت قريش مرة أخرى بعدائها بعد أقـل مـن عـامين لتشـن حربًـا عـلى المسـلمين فى المدينة فى بدر .. تحتضن سودة فاطمـة وأم كلثـوم، وتتصـاعد دعواتهـا لـنصرة رسـول اللــه .. وينتصر المسلمون فى بدر، ويفرح فيها المسلمون بنصر اللـه.

إلا أنه بعد غزوة بدر، وبالتحديد فى شهر شوال، كان هناك ضيف جديد سيدخل بيت الرسول بصفة دائمة .. زوجة أخرى .. صغيرة وجميلة، وبنت رفيق العمر، وأغلى الناس عند رسول اللـه .. أبو بكر الصديق .. عائشة ..

هربت مشاعر الغيرة عند السيدة سودة سريعًا، لتحل محلها مشاعر الأمومة، أحبت سودة عائشة؛ لأن رسول اللـه أحبها، وهى قررت أول يوم أن تحب كل ما يحب رسول اللـه، حتى وإن كانت زوجة ثانية تدخل عليها بيتها.

حتى وإن دخلت عليها زوجات أخرى غير عائشة، فستظل السيدة سودة، تشع دفأها فى جنبات المنزل.

وتمر السنوات، وتتوالى معها انتصارات الدعوة، وانتصارات المسلمين، من الأحزاب إلى صلح الحديبية إلى خيبر، وتتوالى مع السنوات زوجات جدد، يدخلن بيت الرسول على سودة .. لقد قطعت سودة على نفسها العهد من زمن، ستحب كل ما يحب رسول اللـه، حتى وإن كان ذلك ضد مشاعرها.

وتلاحظ زوجات الرسول شيئًا .. أن المسلمين ينتصرون فى معاركهم، ويحصدون غنائم من المشركين ويحق للرسول شرعًا خمس هذه الغنائم، فلماذا إذن يصر الرسول على أن تبقى حياتهن متقشفة كما هى؟

وتقرر الزوجات أن ينقلن رغبتهن للرسول، بالزيادة فى الإنفاق وسعة العيش .

وهنا يأتى الرد من رب العالمين:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا {28/33} وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللـهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللـهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا {29/33}) [الأحزاب].

ويهز كلام اللـه السيدة سودة هزًّا، وتهرع إلى رسول اللـه قائلة له فى وجل:

يا رسول اللـه لا تطلقنى؛ فإنى أحب أن أكون زوجتك فى الآخرة.

ما أرادت السيدة سودة الدنيا يومًا، فقط كانت تريد مرافقة الرسول.

وتقدم السيدة سودة دليلًا قاطعًا أنها زهدت فى هذه الدنيا، فى سبيل مرافقة رسول اللـه فى الدنيا والآخرة، وفى سيبل أن يعد اللـه لها أجرًا عظيمًا، فتتابع:

وإنى أهب يومى لعائشة.

كان الرسول يقسم أيامه على زوجاته، فيبيت عند كل زوجة يومًا، فإذا بالرسول يفاجأ بأن السيدة سودة تتنازل عن ليلتها حبًّا فيه وحبًّا فى جواره ومرافقته، ويراجعها الرسول بسؤاله مندهشًا:

أتحبين ذلك يا سودة؟!

أجابت السيدة سودة فى إصرار:

نعم يا رسول اللـه، أحب ذلك، ويرضينى ذلك.

شملت السيدة سودة بطيبتها كل زوجات الرسول، فكانت أمًّا لهن، أحبتهن وأحببنها، لكن أحدًا لم يحبها كعائشة، فكانت تقول:

"واللـه ما من امرأة أحب إلىَّ من سودة " ..

الان اطمأنت السيدة سودة أنها ستحقق أمنيتها؛ كى تعيش بجانب الرسول .. إلا أن الأيام تمر، ويقترب الرسول من إتمام دعوته يومًا بعد يوم، حتى يأتى اليوم الذى يمزق قلب السيدة سودة ..

فلقد حانت لحظة الفراق ..

لقد مات الرسول ..

لم تكف العيون عن البكاء، وعجزت الألسنة عن وصف المصاب، والذكريات كانت تضغط على عقل السيدة سودة، فلا تجد سلوى لها إلا الأمل فى لقاء الآخرة .

ظلت السيدة سودة سنوات بعد الرسول، أمًّا حنونًا لزوجاته، تضفى عليهن من حنانها، وتأخذ بأيديهن؛ حبًّا فى غائب، وتواعدًا على موعد قريب .. حتى جاء الموعد ..

ففى عهد عمر بن الخطاب رضي اللـه عنه ماتت السيدة سودة ..



ماتت لتستأنف حياتها من جديد مع رسول الـلـه فى عالم آخر، مـع وعـد الـلــه لهـا بـالأجر العظيم الذى تستحقه.

الآن يصلى على السيدة سودة أبو هريرة رضي الـلـه عنه ، ثم يحمل نعشها ليواريهـا الـتراب فى البقيع .. غدًا ستحقق السيدة سودة كل ما كانت تحلم، غدًا سترى رسول الـلـه، وسـتقول لـه إنها ظلت على العهد بعد وفاته .

وغدًا سيفرح رسول الـلـه بلقاء سودة .. الطيبة ..أم أمهات المؤمنين.

* * *

تحليل ودروس

1- الإشاعات مرض اجتماعى، قد يؤدى إلى كوارث (السكران بن عمرو وزجته سودة يعودان من الحبشة بناء على شائعة):

من الطبيعى أن يطلق شخص ما إشاعة ليس لها أساس من الصحة، هذا الشخص إما جاهل أو محدود الثقافة، أو لديه نقص ما، ويريد لفت الأنظار إليه بكلام كاذب أو كلام غير دقيق .. هذا يحدث وسيحدث.

ولكن من غير الطبيعى أن ينساق معه من يستمع إليه بهذه الصورة العجيبة، التى تضمن سريان الإشاعة فى قطر بأكمله خلال أيام.

لماذا لا يبذل الناس جهدًا بسيطًا فى التأكد من المعلومات قبل نقلها إلى آخرين؟ لماذا لا يفترضون أن الشخص صاحب الخبر الخطير أو الغريب، من الممكن أن يكون قد أخطأ فى نقل المعلومة، أو لم فهم الموضوع بدقة، أو أنه لم يُعن بالتأكد من الخبر قبل إطلاقه؟

والغريب أنك عندما تسأل أى شخص عن مصدر الخبر الذى ينقله بكل ثقة عن نفسه، فإنه يقول دائمًا: لقد سمعت! والأغرب والأعجب هو تحور الخبر بشكل غريب ومثير، لتصبح العصا سكينًا، ويصبح السكين مسدسًا، والمضروب الواحد عشرة والعشرة مائة!

هناك أخبار سببت بلبلة غير عادية فى البلاد، وأصابت الناس بالرعب، وألحقت شركات تجارية بخسارات فادحة، ولم تكن فى النهاية .. سوى إشاعات!!

إن المبدأ الديكارتى يقوم على الشك، فلنشك قليلًا فيما ينقل لنا من أخبار قبل أن نطلقها، ونكون سببًا فى مشكلات لا حصر لها.

2- زواج الرسول من السيدة سودة كان أمـرًا نـادرًا، لا يسـتطيع أن يقـدم عليـه زوج إلا رسول الـلـه (الرسول يتزوج من سودة الكبيرة في السن وغير الجميلة بعد وفاة زوجها):

تزوج الرسول من السيدة سودة بنت زمعة، رغم كبر سنها، ورغم أنها ليست جميلـة، ورغـم أنها ليست مثقفة دينيًّا. لقد تزوجها الرسول مواساة لها بعد وفـاة زوجهـا السـكران بـن عمـرو، وهو عائد إلى الحبشة، وهو أمر في غاية الصعوبة على أي رجل أن يتزوج امرأة مواساة وشـفقة، ثم يكمل حياته معها بود ومحبة، دون تأفف ودون ضجر ودون إذلال، إنه مثل رائع للعدل مع زوجة لا يحبها الرسول، ولكنه لا يظلمها ولا يجرح مشـاعرها، رغـم معرفـة الطـرفين بـأن سـبب الزواج بعيد كل البعد عن الأسباب الطبيعية للزواج.

3- وجود الأب والأم كمرجعية للـزواج يحمـي الفتـاة والأجيـال القادمـة مـن مشـكلات عديدة (السيدة سودة تطلب الاستئذان من أبيها وهي أرملة في سن الثمانين):

ضعف العلاقة بين الآباء والأبناء من ناحية، وضعف الوعي الديني والاجتماعي عند الشـباب من ناحية أخرى، سـبب مشـكلات كثـيرة، يقـع ضـحيتها الفتيـات الـلائي يتصـورن، أن العلاقـات العاطفية التي تحدث خارج إطار الشرعية ستؤدي إلى زواج ناجح، طالما أن الحب موجود، ومن هنا انتشرت ظاهرة الـزواج العـرفي في الجامعـات بصـورة مفزعـة، لتكتشـف الفتـاة أن أحلامهـا تحولت إلى أوهـام كبـيرة ومزعجـة، ويصـحو المجتمـع عـلى كـوارث معقـدة، تعصـف بالأجيـال القادمة. على الفتيات والفتيان أن يعلموا أن الالتزام بالدين، يحميهم ويعصمهم من الوقـوع في مشكلات لا قبل لهم بها، وعلى الآباء أن يصاحبوا أبناءهم؛ حتى يصارحوهم بما يفعلون، قبل أن يفاجئوا بكارثة يكون قد فات الأوان لحلها.

4- من الأفضل أن تبحث المرأة عـن ميـزة لهـا تميزهـا، بـدلا مـن الـتحسر عـلى فقـدانها مميزات الآخرين (السيدة سودة تمشي مشية تعجب رسول الـلـه، وتظهر خفة الظل له كميـزة لها):

إذا لم تكن المرأة جميلة، فعليها أن تكون ذكية، وإن لم تكن ذكيـة، فينبغـي أن تكـون مثقفة، وإن لم تكن هذا أو ذلك، فينبغي أن تبحث لها عن ميزة تظهرهـا وتصرف النـاس

عن عيبها، والسيدة سودة لم تكن جميلـة، كـما أنهـا لم تكـن مثقفـة دينيًّـا، بحيـث تأخـذ عـن الرسول، وتروى ويسألها المسلمون فى أمور الدين، وعندما تجد المرأة نفسها فى وضع لا تبدو لهـا فيه ميزة واضحة، ينبغى أن تبحث هى عن ميزة لها وتبرزها أمام زوجها، أو أمام الناس، وكانت السيدة سودة من الذكاء لتفهم ذلك؛ لذا ركزت على ميـزة خفـة الظـل لـديها؛ لتخفـى عيوبهـا، وتجعل من أمامها يتذكر ميزتها، وهى رسالة لكل فتاة وامرأة أن تبحث عن مميزاتها، بـدلًا مـن أن تتحسر عما تفتقده من مميزات يمتلكها الآخرون.

* * *

عائشة

البريئة

عائشة
البريئة

" عيناك تتحدثان يا خولة "

هتفــت بهــا أم رومــان زوجــة أبي بكــر الصــديق رضي اللــــه عنــه وهــى تبتســم فى لطف، بعد أن استقبلت فى بيتها بترحاب " خولة بنت حكيم "، والتى بادلتها الابتسامة قائلة:

وماذا ترى فى عينىَّ يا أم رومان؟

اقتربت عينا أم رومان من عينيها، وهى تقدم لها مشروبًا، ثم قالت:

خير كثير ..

لاحقتها خولة، وهى تهتف فى فرح:

أبشرى بخير يوم طلع عليك منذ ولدتك أمك ..

قالت أم رومان:

إذًا أسرعى وهات ما عندك يا خولة ..

نهضت خولة من مجلسها لتجلس بجوار أم رومان، وهى تقول لها فى فرح:

رسول اللـه أرسلنى أخطب له عائشة ..

قفزت الفرحة من عينى أم رومان، وهى تتساءل:

رسول اللـه؟

ثم وقفت وكأنها تذكرت شيئًا قائلة فى تساؤل:

بعد خديجة؟

قالت خولة:

لم يكن رسول الـلـه يفكر فى الأمر، وفاجأته بكلامى، ونزلت الدموع من عينيه، حتى نـدمت للحظات على ما قلت، لكـن رسـول الـلــه اسـتجاب بعـد فـترة بعـد أن أثـرت مشـكلة الوحـدة والعيال ..

قالت خولة وقد بدا عليها التفكير:

الوحدة والعيال؟ ليست هاتان هما المشكلتان الوحيدتان يـا خولـة .. هنـاك مشـكلة أخـرى تخص عائشة ..

سألت خولة فى قلق:

مشكلة تخص عائشة؟ ما هى يا أم رومان؟

جلست أم رومان، وهى تقول بصوت يعبر عن بوادر أزمة قائلة:

إن عائشة مخطوبة بالفعل .. ومرت لحظات من الصمت.

* * *

ماذا سنفعل؟

هتفت بها أم رومان لأبى بكر الصديق، والذى قال فى قلق:

لا أعرف ماذا أقول لرسول الـلـه، ولا يمكن أن أخلف وعدى مع المطعم بن عـدى حتـى وإن كان كافرًا، ولكن ...

هتفت أم رومان، وكأنها تحاول أن تمسك بخيط للحل قائلة:

ولكن ماذا؟

قال أبو بكر: سأجرب محاولة ..

ثم تابع:

سأذهب إلى جبير بن المطعم، لعل الـلـه يفعل الخير ..

كان أبو بكر وأم رومان فى مشكلة بالفعل ..

مشكلة أدبية مع الرسول صلى اللـه عليه وسلم عند الـرد عليـه بـالرفض، ومشـكلة نفسـية بأنه تم رفض الرسول صلى اللـه عليه وسلم .. النبى المرسل من السماء، كى تتـزوج ابنـتهما مـن رجل غير مسلم.

ومشكلة أخلاقية، بأنه لا يمكن الإخلال بوعد، حتى وإن كان مع رجل كـافر رغـم كـل هـذه الظروف.

فى أمور صعبة تبدو مغلقة من كل الاتجاهات، يلقى المرء أحماله على ربـه؛ ليوكلـه فى أمـره كله ..

وربما هذا ما فعله أبو بكر الصديق وهو ذاهب إلى بيـت جبـير بـن المطعـم خطيـب ابنتـه، لتستقبله أمه بجفاء، وهى تقول:

"تريد أن تأخذ ابننا فتجعله يدخل فى دينك يـا أبـا بكـر، وتجعلـه صـابئًا مـثلكم، واللـــه لا يكون ابننا فريسة لكم".

لو حلم أبو بكر بأن تنطق أم جبير بهذه الكلمات ما اعتقـد أن تـأتى بهـذه الطريقـة، وبهـذا الوضوح فى الرفض، إنها لحظة من المفروض أن يظهر فيـه أبـو بكـر بمظهـر الحـزين، فى الوقـت الذى يرقص فيه قلبه فرحًا، إلا أن ملامح وجهه ظهر عليها بعـض الضـيق، وهـو ينظـر إلى جبـير قائلًا له:

يا جبير ، هذا ما قالته أمك، فما تقول أنت؟

قال جبير:

أقول مثل ما قالت.

ربما لم يوجد أحد فى العالم فرح بفسخ خطبة ابنته، مثلما فرح أبو بكر الصديق، وكان اللـــه كريمًا معه أشد الكرم، عندما توكل عليه، فأخرجه من ضيق موقف صعب إلى سعة حلم كبير ..

سيصبح أبو بكر صهرًا للرسول صلى اللـه عليه وسلم ..

* * *

"يا أم رومان .. أرسلى إلى رسول اللـه، وقولى له أهلا بك خطيبًا لعائشة"

هتف بها أبو بكر، والفرحة تكاد تقفز من عينيه، بمجرد أن رأى أم رومان أمامه، بعد أن طرق عليها باب بيته، بعد أن ظل يسابق الريح، وهو فى طريقه إلى بيته.

إلا أن فرحة أبى بكر على الأرض، سبقها أمر اللـه من السماء ..

ففى ثلاث ليال متواصلة أو متقطعة، كان اللـه ينزل جبريل على رسول اللـه فى منامه، يأتيه بقصيفة من حرير، فيكشف عنها فيجد صورتها، فيقول له جبريل: يا محمد هذه زوجتك فى الدنيا والآخرة ..

يخطب الرسول عائشة بنت أبى بكر، بنت أول مصدق للرسالة، ورفيق الدرب، ومؤنس الوحدة .. عائشة الصغيرة ..

نعم ..

فارق السن كبير بينها وبين رسول اللـه .. نعم

لكن العرف وقتها لم يمنع هذا ولا ذاك ..

فرغم الخلاف حول سن عائشة فى توقيت الخطبة والزواج، إلا أن الواقع يقول إنها كان مخطوبة قبل أن يتقدم الرسول لخطبتها، أى أن الأمر كان طبيعيًّا إلى الدرجة التى لم يذكر التاريخ أى كلمة انتقاد للرسول من ألد أعدائه فى قريش لهذا العمل، أما فارق السن، فكان معتادًا أيضًا فى الزواج فى مكة، فقد تزوج عبد المطلب جد النبى صلى اللـه عليه وسلم بهالة بنت عم السيدة خديجة، وهى تصغره بعشرات السنوات.

ولقد كان أمر اللـه ..

يتزوج الرسول من بنت أبى بكر الصديق؛ لتوطيد العلاقة بين الرسول صلى اللـه عليه وسلم وبين حامل الرسالة بعده، لقد كان الأمر يستدعى علاقة نسب قوية ومباشرة كهذه.

أما عائشة الصغيرة الذكية النابهة، فكان أمامها مشوار طويل؛ كى تتعلم من الرسول أدق تفاصيل الحياة لتعلمها للناس، تسع سنوات تتعلم فى بيت الرسول، ثم تعلم هى الناس سبعة وأربعين عامًا بعد وفاته.

بعد ثلاث سنوات من الخطبة، يهاجر المسلمون والرسول وأبو بكر وعائشة إلى المدينة..

بعد سنة واحدة، تكشف الفتاة الصغيرة عن صفة أخرى لديها .. الشجاعة ..

ليست شجاعة نساء، إنما شجاعة رجال، جعلتها تظهر فى غزوة بدر، وتسقى الجرحى فى غزوة أحد، وتدهش عمر بن الخطاب عندما رآها فى غزو الخندق، ليهتف فى عجب:

يا لجرأتك!!

ويظهر الحياء على عائشة، وعندها ينظر إليه سعد بن معاذ قائلًا:

دعها يا عمر .. دعها.

وفى شوال من السنة الثانية، كانت فرحة المسلمين بعد بدر فرحتين ..

فرحة النصر على المشركين، وفرحة زواج الرسول بعائشة.

شوال يحمل الذكرى الطيبة لعائشة دائمًا، فلقد كان شهر الخطبة، والآن هو شهر الزواج ..

اليوم هو يوم عائشة ..

تأخذ أم رومان ابنتها العروس لتدخل بها أحد بيوت الأنصار، لتجد نساء الأنصار يستقبلونها بالفرحة والحب، ويبدءون فى تصفيف شعرها وتزيينها لعرسها، وهن يداعبنها فى سعادة.

ويأتى موعد الوليمة، ليأتى النبى ويقدم اللبن والطعام لصديقات عائشة، فقلن على استحياء، وهن يشاورن معتذرات:

لا .. لا .. لا نريد ..

ابتسم الرسول فى لطف قائلًا:

لا تجمعن جوعًا وكذبًا.

ابتسم الجميع، ومر الحفل البسيط فى سعادة، وبدأ الجميع فى الانسحاب رويدًا رويدًا، ليخلو البيت البسيط على الرسول وزوجته عائشة وأسماء بنت زيد، ويقدم الرسول لعائشة كوبًا من اللبن، فتستحى، لتشجعها أسماء قائلة:

خذى من النبى يا عائشة.

وتشرب عائشة لتبدأ رحلة الحياة السعيدة مع رسول الله.

بخمسمائة درهم مهرًا، وبيت صغير وأثاث غاية فى البساطة، تبدأ عائشة حياتها مع رسول الله ..

اختارت عائشة أشياء مقابل أشياء.

اختارت عائشة الرجل والخلق والرسالة والحب، وفضلتها على الثراء ورغد الحياة والراحة والدعة.

وأثبتت الأيام بعد ذلك أنها بهذا الاختيار، وقع اختيارها على السعادة بعينها، فلقد غمرهها حب رسول الله، حتى ذاع هذا الحب فى المدينة كلها؛ مما جعل أنس بن مالك يقول:

أول حب فى الإسلام، كان حب رسول الله لعائشة.

لقد انبهر أنس بحب الرسول لعائشة، ولو عرف حب الرسول لخديجة لازداد انبهارًا، وعندما سمع عمار بن ياسر أحدًا يتحدث بسوء عن السيدة عائشة، قال فى غضب:

ويحك .. أتتحدث هكذا عن حبيبة رسول الله ..

كان الرسول يجهر بحب عاشة أمام الصحابة، حتى أنه عندما سأله عمرو بن العاص بعد أن عاد من غزوة ذات السلاسل، فاستقبله بحب شديد؛ مما شجعه على سؤاله فى شغف، وكأنه يتوقع الإجابة:

يا رسول الله .. من أحب الناس إليك؟

إلا أن الإجابة جاءت مفاجئة لعمرو وللجميع، ليجيب الرسول بتلقائية ودون خجل:

" عائشة ".

كم من الأزواج يحب زوجته إلى الدرجة التى يعلن فيها حبه للناس .. وكم من الزوجات أنعم اللـه عليها بحب كهذا وعطف كهذا ..

" أريد أن أشاهد الأحباش وهم يلعبون "

هتفت بها عائشة فى فرح لرسول اللـه فى أحد أيام العيد، حيث كان الأحباش يلعبون فى ساحة المسجد، ليشير إليها الرسول فى فرح بالموافقة، لتسند ذقنها على كتف الرسول، وتظل تتفرج فى سرور لوقت طويل، حتى يقول لها الرسول:

" أشبعت يا عائشة؟ "

كانت عائشة بالفعل قد اكتفت من المشاهدة، ولكنها كامرأة أرادت أن تقيس حب زوجها لها، فتجيب:

لا .. لم أشبع بعد.

وتظل عائشة هكذا حتى تتأكد من مكانتها عند أفضل الخلق وأفضل الأزواج وأفضل الرجال محمد صلى اللـه عليه وسلم فتقول أخيرًا:

يكفينى هذا يا رسول اللـه.

رغم أعباء الرسول التى لا تنتهى، رغم مهامه ومسئولياته كقائد دولة ناشئة تصارع جيوشًا غاضبة فى قريش والجزيرة - لم ينس الرسول حق زوجته وحبيبته عائشة فى التنزه.

يتنزه الرسول مع عائشة يومًا، فينظر لها الرسول قائلا:

" سابقينى يا عائشة ".

فتسابق عائشة الرسول حتى تسبقه ..

لكن الرسول كان قد وضع الخطة فى نزهته القادمة مع عائشة، لما ذزاد وزنها، لتحين الفرصة، ويتسابقا مرة أخرى، فيسبق الرسول عائشة هذه المرة، ويقول لها مبتسمًا، وهو يلاحق أنفاسه:

" يا عائشة .. هذه بتلك ".



وتضحك عائشة، وتحمد اللـه ليل نهار على نعمـة زوج عطـوف، يشـعر بزوجتـه ويقـدرها ويحترمها.

زوج يقدر مشاعر زوجته إلى الدرجة التـى تجعلـه أثنـاء فـترة حيضـها، يبحـث عـن موضـع شفتيها على كوب ماء تشرب منه، ثم يشرب من نفس المكان.

ورغم كل هذا الحب، إلا أن سنة اللـه سارية بين الأزواج، فيحدث الغضب، حتى وإن كـان بين الحبيبين .. الرسول وعائشة.

* * *

هن أمهات المؤمنين، ولكنهن لسن ملائكة ..

هذه هى كلمـة السر فى اتخـاذ السـيدة عائشـة وأمهـات المـؤمنين قـدوة، فهـم بشر مثلنـا، يخطئون ويصيبون، لكنهم يستغفرون.

عرفت السيدة حفصة يومًا أن الرسـول سيسـتقبل عـددًا مـن الصـحابة فى بيتـه، فقـررت أن تجهز لهم طبقًا من الثريد واللحم، ليأخذه الرسول منهـا شـاكرًا، ويهـم بوضـعه وسـط أصـحابه، وهو يدعوهم إلى الطعام، وسط ابتسامات الصحابة الكرام وتعليقاتهم اللطيفة ..

إلا أنه فجأة ساد الصمت المكان، وتبادل الجميع النظرات فى خجل ..

فلقد خرجت السيدة عائشة فى غضب لتضرب طبق الثريد، فيـنكسر الطبـق، وتتنـاثر أجـزاء الطعام.

ويلتفت الرسول لعائشة فى ذهول تكسـوه نظـرات العتـاب، ثـم يتجـه فى هـدوء إلى مكـان الطبق؛ ليلملم أجزء الطعام، ويضعه فى الطبق المكسور، وهو يقول فى بساطة مذهلة:

" غارت أمكم ".

ربما أفاقت الجملة السيدة عائشة، وأرجعتها إلى حالة الوعى، الذى عطل للحظـات وجعلهـا تفعل ما تفعل، خاصة بعد أن اتجه إليها الرسـول، ووقـف أمامهـا، ليقـول لهـا فى هـدوء خبـير، يعرف نفوس البشر ونفوس النساء ونفس إحدى زوجاته:

" يا عائشة .. أفسدت لحفصة قصعة، فردى إليها قصعة غيرها " ..

طأطات السيدة عائشة رأسها وهى تقول فى خجل:

استغفر لى يا رسول الـلـه.

طبيعى أن يخطئ المرء حتى وإن كانت السيدة عائشة، لكن الجميل هو الاعـتراف بالخطـأ، وطلب المغفرة من الـلـه ورد الحقوق إلى الناس.

كم هى رائعة عائشة!؛ لأنها بشر تصيب وتخطئ وتستغفر وتتعلم.

ولأن الرسول بشر وعائشة بشر، فإن حياتهما الزوجية لابد أن تسير حسب قـوانين ونـواميس الكون؛ من فرح وحزن وهدوء وصخب وسكينة وغضب .. ووفـاق وخـلاف.. خـلاف إلى الدرجـة التى يعرض فيها الرسول على عائشة حكمًا للحكم بينهما، فيقول لها بتواضع الأنبياء:

" هل ترضين بأبى عبيدة بن الجراح حكمًا بيننا؟ "

وتفكر عائشة للحظات ثم تقول رافضة:

لا .. أبو عبيدة رجل طيب ..

ويتوهج تواضع النبى وعطفه، عندما يسمى لها اسم حكم آخر تعرفه جيدًا، وهو يسألها فى تؤدة:

" أبو بكر الصديق؟ "

وتوافق عائشة، ويفاجأ أبو بكر أنه مدعو للتحكيم بين ابنته وبين النبـى الـذى صـدقه حـين كذبه الناس ..

كم كان الأمر بالغ الحرج والصعوبة عندما ينشق القلب بين حبيبين، لكن أبا بكر لم يسـتطع أن يغالب حبه لحبيبه، فما أن جلس حتى طلب النبى مـن عائشـة، أن تتحـدث، فـإذا بعائشـة، تقول غاضبة:

بل قل أنت، ولا تقل إلا صدقًا.

وهنا وقف أبو بكر غاضبًا، واتجه إليها ليضربها، وهو يقول فى انفعال:

يا بنت أم رومان، وهل يقول إلا صدقًا؟!

وتبتعد السيدة عائشة، وهى خائفة لتنزوى مختبئة خلف الرسول، وهنا يقف الرسول بينهما، وهو يرفع يديه أمام أبى بكر قائلًا فى حسم لطيف:

" يا أبا بكر، ما جئنا بك لهذا ".

وهنا يتراجع أبو بكر، ويمسك غضبه عن عائشة، ويدفعه الرسول إلى مزيد من الهدوء، ليلتفت بعدها الرسول إلى عائشة باسمًا فى لطف:

" أرأيت كيف حلت بينه وبينك؟ "

جميل أن يكون الزوج متواضعًا حكيمًا رحيمًا، لكن الرائع أن يكون ذلك عند الغضب، والأروع أن يكون كذلك عند الخلاف مع زوجته ..

ماذا تتوقعون بعد كل ذلك من عائشة؟

لم تملك عائشة إلا أن تبتسم، ويبتسم لها الرسول ليذوب الجليد، ويهمس كل منهما للآخر فى حب، ويطمئن أبو بكر بعد أن ابتسم هو الآخر قائلا لهما:

أشركونى فى سلمكما، كما أشركتمونى فى حربكما.

انتهى الأمر ببساطة لأن الحب عميق، والرباط المقدس بينهما يجعل قوة التنازل والاستقرار أقوى من قوة الكبر والتصعيد، ونفوسهما مفتوحة على بعضهما البعض؛ ليقرأ كل منهما الآخر بسهولة، فيعرف ما يفرحه وما يغضبه.

قد لا يستطيع أن يبوح إنسان بما فى نفسه، لكن كلمة بسيطة تكشفه، لا يعرفها إلا محب..

كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول للسيدة عائشة: " أنا أعلم متى تكونى راضية ومتى تكونى غاضبة ، فسألته السيدة عائشة كيف تعلم؟ قال: عندما تكونى راضية عنى وتحلفين تقولين: لا ورب محمد، وعندما تكونى غاضبة وتحلفين تقولين: لا ورب إبراهيم. فقالت: نعم والله يا رسول الله هكذا أفعل، ولكن لا أهجر إلا اسمك ".

ورغم الفقر وعظم المسئولية، كانت الروح العجيبة تسرى بين زوجين حبيبين يظللهما الإيمان ويحميهما، ويبهران الجميع فى مواقف عديدة .. وفريدة.

* * *

يستمع الرسول كثيرًا للسيدة عائشة ..

فى الليل يتركها تتحدث وتحكى، وهو يسمعها باهتمام، وهى تقص عليه قصة أحد عشر امرأة، حتى تصل إلى قصة سيدة اسمها أم زرع، أحبها زوجها كثيرًا، لكن تغير قلبه مع الأيام، فزاد الجفاء وزاد البعد حتى طلقها ..

كانت السيدة عائشة تحكى بتأثر، شعر معها الرسول بحزنها على أم زرع، فإذا بالرسول يهدئ منها، ويقول لها باسمًا:

" كنت لك كأبى زرع لأم زرع، غير أنى لا أطلقك ".

فى الليل يهفو قلب الرسول لعائشة كما يهفو قلبه لربه، تداعبه عائشة فتقول له:

أحب قربك وأؤثر هواك .. فيستأذنها النبى لكى يخلو بربه ساعة، وهو يقوم الليل.

ويقوم الرسول ليقف بين يدى الله، وتجلس بجانبه عائشة، لتمد رجليها فى اتجاه القبلة، فإذا سجد الرسول ضمت قدميها، وإذا قام من السجود مدتهما ..

جميلة الحياة بين الرسول وعائشة .. بسيطة هادئة .. هواؤها منتعش بحبات الحب والإيمان .. لم يفلح الفقر وضيق ذات اليد فى تكدير الجو، ولم تنجح المشكلة الاقتصادية فى أن تقتل الحب بينهما أو تضعفه ..

كان التفاهم قويًّا، وكانت أسس الزواج راسخة ..

كانت تحكى السيدة عائشة، وتقول:

كان يمر الهلال ثم الهلال ثم الهلال، ولا يوقد فى بيت رسول الله نار .. فسألها عروة بن الزبير: فكيف كنتم تعيشون؟ فردت السيدة عائشة:

كنا نعيش على الأسودين؛ التمر والماء، غير أنه كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعض جيران من الأنصار يجلبون له اللبن.



ثلاث سنوات يجتمع الحب مع الإيمان بالـلـه .. ثلاث سنوات والصبر سلاح وسـلوى فى بيـت الزوجية، ثلاث سنوات والحياة تسير برعاية من الـلـه، هادئة بسيطة مستقرة.

إلا أن زلزالًا جاء ليهدد استقرار الحياة الجميلة .. زلزالًا مروعًا، هز أرجاء المدينة كلها .. بكل قوة .. وعنف.

* * *

" عندما توجد السلطة، يولد النفاق .. "

عندما برزت قوة المسلمين وزادت أسهمهم فى الجزيرة العربية بعد غزوة الأحزاب فى السـنة الخامسة من الهجرة، نشـط المنـافقون، وتركـزت مـؤامراتهم فى إحـداث الفتنـة وتهديـد السـلام الاجتماعى فى المدينة، وكان محرك الأحداث دائمًا رأس النفاق، عبد الـلـه بن أبى بن سلول ..

* * *

" يا معشر المهاجرين "

صرخ بها غلام كان يعمل أجيرًا عند عمر بن الخطاب رضي الـلـه عنه بعدما تشاجر على بـئر ماء مع غلام آخر كان حليفًـا لقبيلـة الخـزرج، وهـم فى طريـق عـودتهما ضـمن صـفوف جـيش المسلمين من غزو بنى المصطلق، وهـى قبيلـة انـتصر عليهـا المسـلمون بسـهولة، بعـد أن كـانوا يحضرون لغزو المدينة، وبينما كان الجيش فى راحة من عناء الطريق، إذا بالمشاجرة تنشـب بـين الغلامين على البئر، لينادى غلام عمر على المهاجرين، وينادى غلام الخزرج على الأنصار، وينـدفع الجميع ناحية الغلامين، وتتعـالى الأصـوات، ويوشـك النـزاع أن يحـدث بـين الفـريقين فى مشـهد يغضب الرسول بشدة، فيندفع إليهم فى غضب، ويصيح فيهم بأعلى صوته، وهو يفرق بينهم:

" أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟ "

بدأت الأصوات تخفت، بينما تابع الرسول فى قوة:

" دعوها فإنها منتنة " .

سادت حالة من الهدوء بعد أن اهتز الجميع من كلام الرسول، وأخذ يراجع نفسه فى خجـل، بينما شعر عبد اللـه بن أبى بن سلول بخيبة أمل، جعلته يواصل حديثه المسموم قائلًا فى غضب وعنجهية:

" هؤلاء الذين استضفناهم عندنا فأهانونا ".

أدرك عمر بن الخطاب أن ابـن سـلول مصر عـلى إثـارة النـاس مـن جديـد، فـإذا بـه يهتـف للرسول فى غضب:

" يا رسو ل اللـه .. أأقطع رقبته؟ "

ينظر إليه الرسول، ويرد بأسى من يدرك من يتآمرعليه:

" يا عمر، لا يقتل محمد أصحابه؟ "

أيقن الرسول إذن أن المشكلة لم تنته بعد، بل إن كلماته قـد أبطلـت مفعولهـا لحـين، بيـنما هناك من يحاول إيقاظهـا مـن جديـد، فقـرر الرسـول أن يشـغل الجـيش عـن التفكـير فى الأمـر بالتعب، فطلب من الجيش أن يسير نهارًا حتى ظن المسلمون أنـه سـيريحهم بالليـل، فـإذا جـاء الفجر بلغ المسلمون من الإرهاق ما جعل سعد بن عبادة يسأل الرسول فى رجاء قائلًا:

أولا نرتاح يا رسول اللـه؟

وهنا يرد الرسول بلهجة صارمة قائلًا:

" أولم تسمع ما قال صاحبكم؟ "

حتى هذه اللحظة ينجح الرسول فى خطته، وينصرف النـاس عـن التفكـير فى المشـكلة حتـى الاقتراب من المدينة، حيث يقرر الرسول أن يرتاح الجـيش أخـيرًا فى إحـدى المنـاطق، إلا أن رأس الفتنة لم يكن قد ارتاح بعد، فلقد كان مصرًّا على إشعالها من جديد،

وبقوة أكبر من المحاولة السابقة ..

قوة أكبر بكثير.

" رسول الـلـه يأمركم بالرحيل "

بأعلى صوته صاح بها أحد الصحابة للجـيش الـذى أخـذ يلـتقط أنفاسـه أخـيرًا بعـد مسـيرة طويلة ومجهدة وهو فى اتجاهه للمدينة، وبينما كان المسـلمون يسـتعدون لاسـتكمال الطريـق، مشت السيدة عائشة مسرعة، فسبقت الجيش حتى تقضى حاجتها ..

" يا إلهى .. أين العقد؟ "

هتفت بها السيدة عائشة فى ذعر، وهـى فى اتجاهها للهـودج الـذى يقلهـا، بعـد أن قضـت حاجتها، بعد أن تحسست رقبتها، فلم تجد عقدًا حولها، لم يكن العقد ملكًا لها، أخذت السـيدة عائشة تتلفت هنا وهناك لتبحث عنه فى قلق، ومر الوقت والسيدة عائشة تبحـث عـن عقـدها المفقود حتى وجدته، فحمدت الـلـه أنها لم تضع الأمانة، ثـم أخـذت تتجـه إلى هودجهـا؛ حتـى تكمل مسيرتها مع الجيش إلى المدينة، ولكن كانت المفاجأة ..

لقد تحرك الهودج وسبقها، بعد أن اعتقدت المجموعة التـى تقـود الهـودج بوجـود السـيدة عائشة فيه؛ نظرًا لخفة وزنها آنذاك، فانطلق الهودج تاركًا السيدة عائشة خلفهـا، والـذى ظلـت تبحث عن الهودج دون جدوى، فجلست تسبح وتسـتغفر حتـى غلبهـا النـوم، وهنـا مـر عليهـا الصحابى صفوان بن المعطل ببعيره، فنظر فعرف أنها عائشة زوجة رسول الـلـه، فلقد كان يعرف شكلها قبل الحجاب، وهنا أناخ صفوان ببعيره ليوقظ عائشة، فتنبهت عائشة، ثم قامت وركبـت البعير، دون أن يتحدث صفوان ببنت شفة، حتى دون أن يلقى عليها السـلام، ثـم أخـذ صـفوان زمام البعير، وهو يسبح الـلـه، حتى وصل بها إلى المدينة فى الظهيرة ..

ورآهما الجميع ..

أما المؤمنون .. فأحسنوا الظن بسيدة مؤمنة يعرفونها ويعرفون سيرتها ونسبها ..

وأما المنافقون .. فلقد شعروا أنهم وجدوا ضالتهم أخيرًا .. وأخذوا يطلقون ألسـنتهم بكـذب شنيع مجرم ..

"إن عائشة تأخرت مع صفوان بن المعطل من أجل الفاحشة"

ووصل الخبر للرسول .. الزوج والنبى، وكانت فاجعة على الرسول والصحابة.. والمدينة كلها.

* * *

الشائعة مذهلة ..

والصمت يخيم على الجميع، والسهام تضرب قلوب المؤمنين .. ومحنة الرسول .. ليس كمثلها شىء .. محنة نبى يدعو إلى مكارم الأخلاق منذ ثمانية عشر عامًا، وهو فى سبيل ذلك يضحى بكل شىء، ثم يتهم فى بيته بأبشع اتهام ..

ومحنة زوج أحب زوجته بإخلاص، كأشد ما يكون الحب والإخلاص، ثم يجد نفسه فى موقف صعب، يجبره على أن تجول الأفكار فى رأسه هنا وهناك.

ينطلق الكلام كالسهام، والصمت يطبق على الأنفاس، والعيون تتحدث نفس الحديث، حتى لو اختلفت معها الألسنة، والشائعة تلف كل المكان، لا تريد أن تهدأ، والحقيقة لا يراد لها أن تظهر بعد.

وعلى الرسول، النبى والزوج، تمر الأيام كالدهور .. ولا شىء يحدث، حتى الوحى لم ينزل بكلمة.

والمدينة منقسمة على نفسها ..

أغلبية لا تستطيع أن تصدق، كما أنها لا تستطيع أن تكذب، وآخرون يكذبون على وجه اليقين، لا يشكون فى ذلك ..

تسأل زوجة أم أيوب زوجها، فتقول:

يا أبا أيوب .. أما تسمع ما يقول الناس فى عائشة؟

ويرد أبو أيوب فى صرامة وثقة: نعم وذلك الكذب، ثم يسأل أم أيوب قائلًا:

وهل كنت فاعلة ذلك يا أم أيوب؟

أجابت أم أيوب بسرعة: لا والله ما كنت لأفعله، فيتابعها أبو أيوب قائلًا:

فعائشة والله خير منك ..



لن تفعل أم أيوب، وهى تعلم أن عائشة خير منها، ولن يفعل أبو أيوب ذلك، وهو يعلم أن صفوان خير منه ..

حسان بن ثابت أيضا لا يصدق، لكنه يتحدث بين الناس فتنتشر الشائعة وتكبر، ويدخل الناس عليها تفصيلات لم تكن فيها.

حمنة بنت جحش أخت زينب بنت جحش، زوجة الرسول، تتحدث فتنتشر الشائعة وتكبر، ويدخل الناس عليها تفصيلات لم تكن فيها.

والمنافقون قلبهم فرح ولسانهم ينفث السم فى شماتة مكتومة ..

أبو بكر يبكى كثيرًا، والرسول لا يدرى ماذا يفعل؟

وصفوان لم يتحمل ما يروج له حسان بن ثابت، فيأخذ قوسًا ويصيبه بسهم فى رأسه، فيذهب حسان إلى الرسول فيشكيه، فيقول صفوان للرسول فى غضب:

يا رسول الله .. إنه يتهمنى فى عرضى .. ينظر إليهما الرسول، ويقول لصفوان وقلبه ينفطر:

اذهب يا صفوان، ثم يتجه لحسان بن ثابت قائلًا:

وأنت يا حسان سأعطيك حقك منى، خذ هذا البستان ..

يا الله .. حسان يأخذ حقه من الرسول ..

فى محنة كهذه، يأتيه المتهم بالخيانة مع زوجته، ومن يروج للشائعة فى المدينة، فلا يسبقه غضبه ولا يفكر فى انتقام أو إساءة، بل يعدل، وعلى حسابه الشخصى.

لا يمكن قبول ما يحدث ألا أن من يفعل ذلك هو رسول الله .. وكفى.

الرسول يتصرف كقائد دولة، يحقق فى أمر هو طرف فيه، لا يستطيع أن يتهم أحدًا دون دليل، لا يستطيع أن يصدر قرارًا تعسفيًا حتى من قبيل حماية سمعة رأس الدولة.

لكنه كزوج تحرك، ليحدث توازنًا إعلاميًا مؤقتًا إلى أن يظهر الله الحقيقة.

يذهب الرسول إلى أم أيمن، فيقول لها: يا أم أيمن، سمعت ما قال الناس، فماذا تقولين أنـت؟ ترد أم أيمن فى ثقة: أحمى سمعى وبصرى، والـلـه ما علمت عنها إلا خيرًا ..

ثم يسأل زوجته زينب بنت جحش، فتقول فى ثقة: أحمى سمعى وبصرى، والـلـه ما علمـت عنها إلا خيرًا ..

يريد الرسول أن يدفع من يقتنعـون بـبراءة عائشـة ليتحـدثوا، ويتصـاعد الـرأى الـذى يـبرئ عائشة .. لكنها الحيرة .. لا تريد أن تترك الرسول أبدًا ..

" طلقها يا رسول الـلـه "

هكذا كان رد على بن أبي طالب حادًّا عنيفًا، عندما طلب منه الرسول الرأى فى الأزمـة، إلا أن أسامة بن زيد، كان يعيد عليه ما يعرف من طهر المؤمنين وخبث المنافقين، أما عمر بن الخطاب فلقد كانت الحكمة تنطق فى كلماته، عندما سأل الرسول بعد استشارته له قائلًا:

من زوجك إياها يا رسول الـلـه؟

كان السؤال كشعاع نور فى نفق مظلم، ويرد الرسول، وكأنه قـد وصـل إلى شىء يبحـث عنـه منذ زمن:

" الـلـه زوجنى إياها " ..

ويلاحق عمر الرسول بثقة، وقسمات وجهه تحمل الطمأنينة والأمل، وهو يسأله:

أتظن أن الـلـه يدنس عليك؟!

بالتأكيد أثلجت كلمات عمر صدر الرسول، لتخفف الألم قليلًا عن قلب موجوع قرابة الشـهر ..

لكن الحيرة لم تتبدد بعد ..

فرغم ضخامة الأزمة وعمقها وتأثيرها المباشر على الـدعوة الإسـلامية، لم ينـزل الـوحى حتـى الآن ..

إنه لغز كبير، لا يقل غموضًا عن لغز الشائعة .. أبدًا.

فى المدينة .. الجميع يعرف الخبر، إلا هى ..

عائشة ..

فلقد رحمها اللـه رحمة من عنده، فأمرضها طيلة شهر كامل إلا ثلاثة أيام، لم تكن تدرى عن الأحداث شيئًا إلا ملاحظة تشعرها بقلبها ..

الرسول تغير ..

ليس كما هو .. لم يعد يناديها يا " عائش " كما كان يناديها، يدخل عليها مهمومًا ليقول لها:

" كيف حالك يا عائشة؟ "

تحمد اللـه على حالها، وتنظر إليه من ظهره وتفكر ..

ماذا حدث؟ لعله هم الدعوة والدولة والناس.

سبعة وعشرون يومًا .. الجميع يعرف، إلا هى، تلحظ اختلاف زوجها، وتخمن السبب ولا تدركه، حتى أذن اللـه لها بالشفاء و ...

" تعس مسطح "

هتفت بها أم مسطح فى غضب بعد أن تبادلت أطراف الحديث مع عائشة، وحمل فى طياته ذكر ابنها مسطح، وما أن هتفت أم مسطح هتافها، حتى نظرت إليها عائشة مستنكرة فى تعجب، وهى تتساءل:

أتدعين على ابنك مسطح، وهو من الصالحين من أهل بدر؟

نظرت أم مسطح إلى عائشة فى غرابة، وهى تسألها:

أوما تدرين ما قال وما فعل؟

فكرت عائشة هنيهة، ثم قالت فى ابتسامة بريئة متسائلة:

ماذا قال مسطح وماذا فعل؟

نظرت أم مسطح إلى الأرض، ثم نظرت إليها فى عجب قائلة:

ألا تعرفين ما يقال عنك إلى الآن يا عائشة؟

تغيرت ملامح عائشة، وهى تقول لها فى حدة:

قولى لى بالله عليك ماذا يقال عنى ..

ظهر الاضطراب على أم مسطح، وهى تحاول إخفاء وجهها عنها، وخرجت الكلمات متثاقلة على لسانها:

يقولون عنك أنك ..

توقفت أم مسطح، بينما لاحقتها عائشة فى حدة:

أننى ماذا؟ .. تحدثى يا أم مسطح .. أننى ماذا؟

أطلقت أم مسطح الكلمات بسرعة، كأنها تريد أن تتخلص منها قائلة:

يقولون أنك ارتكبت الفاحشة مع صفوان بن المعطل، عندما تأخرتما عن الجيش فى غزوة بنى المصطلق.

وقعت الكلمات كالصاعقة على رأس عائشة، ودارت الدنيا بها، وفى ثوان كانت عائشة طريحة على الأرض .. فلقد أغشى عليها بعد أن عجز لسانها عن الكلام .. ولو بحرف واحد.

* * *

لم يعد الرسول يحتمل .. وعائشة فى حالة تقترب بها إلى الانهيار العصبى، وهى تمكث فى بيت أبيها بجانب أمها، بعد أن استأذنت من الرسول.

والرسول يقرر أن يخرج للناس فيحدثهم، فيقف على المنبر، ويقول للناس - وقد بدا عليه الهم:

" أيها الناس، بلغنى أن رجلًا يؤذينى فى أهلى، وما علمت عن أهلى إلا خيرًا، وشهد الناس بذلك، وقد ذكروا لى رجلًا ما علمت عنه إلا خيرًا، وما تغيب عنى يوم تغيبت عن بيتى أبدًا، وما دخل بيتى إلا بإذنى، فمن يعذرنى فى حقى من هذا الرجل؟ "

وهنا انتفض سيد الأوس قائلًا فى قوة:

يا رسول الـلـه، إن كان منا نضرب عنقه، وإن كان من إخواننا الخزرج أمرنا فضربنا عنقه ..

يثير الكلام حفيظة سيد الخزرج، ويعتبر كلام سـيد الأوس إهانـة لـه، فينـتفض غاضـبًا وهـو يقول:

كذبت.

ويرد عليه سيد الأوس، ويحدث شجار بين الطرفين، فيهتف الرسول قـائلًا فى غضـب ممـزوج بالهم:

" أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم؟! "

ثم يتابع وكأنه أسقط فى يديه:

" عودوا إلى بيوتكم ".

يزيد الهم على الرسول، ويصبح كالجبل على صدره، والوحى طال انتظاره دون جدوى ..

ولم يعد أمام الرسول إلا خطوة واحدة وأخيرة ..

المواجهة ..

سيواجه عائشة ويناقشها وينهى الأمر ..

يذهب الرسول بخطوات متثاقلة إلى بيت أبى بكر، ليدخل عـلى عائشـة، ويجلـس فى حضـور أبيها .. أبى بكر وأمها أم رومان، ويقول بصوت خفيض فى ألم:

" يا عائشة .. إن كنت بريئة فسيبرئك الـلـه، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الـلـه وتوبى إليه، فإن العبد إذا اعترف ثم تاب، تاب الـلـه عليه " ..

زاد كلام الرسول جروح عائشة، وأخذت تبكى بحرقـة، ثـم نظـرت إلى أبيهـا وهـى ترجـوه فى توسل قائلة:



يا أبي .. أجب عنى رسول اللـه ..

تتساقط الدموع من أبي بكر، وهو يقول في حيرة:

" واللـه ما أدرى ما أقول لرسول اللـه " ..

يزداد اضطراب عائشة وتزيغ عيونها، وتتجه بتوسلها ودموعها إلى أمها منتحبة، وهى تقول:

يا أماه، أجيبى عنى رسول اللـه ..

بنفس الحيرة والبكاء ترد أمها:

" واللـه ما أدرى ما أقول لرسول اللـه "..

أى ألم وأى عـذاب يعصـف ببيـت الرسـول وحبيبـه أبي بكـر؟! وأى ألم وأى عـذاب يعصـف بعائشة، وهى تجد أقرب الناس إليها لا يستطيع الدفاع عنها فى اتهام تواجهه فى عرضها؟!

لقد وجدت عائشة نفسها فجأة تواجه الجميـع فى تهمـة هـى بريئـة منهـا، ولا أحـد يقـف بجانبها على الإطلاق ..

لكنها تذكرت اللـه، القوى العزيز، فاسـتجمعت قواهـا وجففـت دموعهـا، واتخـذت ربهـا وكيلًا عنها فى محنتها، وقالت لأمها ولأبيها وللرسول فى رباطة جأش:

واللـه إنى لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث حتى اسـتقر فى نفوسـكم وصـدقتكم بـه، فإن قلت لكم إنى بريئة لا تصدقونى، وإن اعترفت لكـم بـأمر لم أعملـه لتصـدقوننى، فواللــه لا أجد لى ولكم مثلًا إلا أبا يوسف حين قال: فصبر جميل، واللـه المستعان على ما تصفون.

ثم اندفعت إلى فراشها تبكى، وتدعو اللـه أن يقف بجانبها، ويفرج عنها كربها العظيم.

يزيد بكاء أبي بكر وأم عائشة، ويزيد هم الرسول أضعافا مضاعفة، فـلا يسـتطيع أن يتحـرك من مكانه، لا يدرى ما يفعل ..

وفجأة أخذ العرق يتصبب من وجه الرسول، وأخذ أبو بكر ينظر للرسول فى رعب، فلقد ظن أن مكروهًا أصاب الرسول ..

وكانت لحظة النجاة للجميع ..

لقد أذن الله بجبريل أن ينزل على الرسول ببيان البراءة ..

(إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِّنْهُم مَّا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ {11/24}) [النور].

وتتوالى الآيات موضحة ومبشرة ومنقذة:

(لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ {12/24})[النور].

ثم توعد الذين يرمون المحصنات بقوله:

(إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ {23/24})[النور].

يعلم أبو بكر الخبر، فيبتسم أخيرًا وهو يمسح العرق من على وجه رسول الله الكريم، ثم يدخل على عائشة، مهللًا فى فرح غاب عنهم شهرًا كاملًا، وهو يقول:

يا عائشة أبشرى، إن الله قد برأك من فوق سبع سموات .. براءة من الله ..

تلألأت عيون عائشة، وهى تنظر إلى أبيها فى فرح ودهشة، وكأنها لم تتوقع أن يجيب الله دعاءها بهذه السرعة، ثم قالت:

والله إنى أحسب أنى أبرأ فى رؤيا فى منام رسول الله، وليس بقرآن يتلى إلى يوم القيامة.

اقترب منها أبوها وربت على كتفها، وقال لها فى حنان:

يا عائشة .. قومى إلى رسول الله، فسلمى عليه واحمديه.

تغير وجه عائشة، وقالت فى حدة:

لا والله لا أقوم ولا أحمده ولا أحمدك ولا أحمد أمى، وإنما أحمد الله الذى برأنى من فوق سبع سموات.

أخيرًا تهلل وجه عائشة، وابتسم الرسول، وانشرح صدر أبى بكر، وكفت أم عائشة عن البكاء.

أخيرًا سيرفع المؤمنون رءوسهم فى وجه المصدقين والمكذبين والمنافقين، وكأنهم يقولون:

سلمت عائشة وسلم بيت الرسول من كل سوء.

وتخرج عائشة من بيت أبيها إلى بيتها، وكأنها عروس تزف من جديد ..

من قبل زفها أهل الأرض .. أما اليوم، فيزفها أهل السماء.

* * *

محنة عظيمة لا شك ..

خرجت منها عائشة فائزة بكل المقاييس، نصرها الله بتقواها وعبادتها وصدقها مع ربها، وازدادت عزًّا وفخرًا على فخر فى المدينة، وخلد موقفها فى التاريخ ليسجل فى كتاب الله، يقرأ الجميع فيفرح المؤمنون، وتقشعر أبدان المنافقين، وليتعلم الناس دروسًا بليغة إلى يوم القيامة.

ويحب رسول عائشة أكثر، وتقترب منه عائشة أكثر، وتعود إليهما حياتهما الزوجية الجميلة، ويكملان مشوارهما فى الحلم بالرسالة ورحلة الإسلام ..

بعد عام من الحادث الأليم، يأتى نصر الله فى صلح الحديبية، وبعدها بعام ينتصر المسلمون بإذن الله على اليهود فى خيبر، وبعدها بعام يدخل المسلمون فاتحين مكة لتدين الجزيرة العربية للمسلمين، وتنفتح الأبواب لانتشار الإسلام فيما حولها من البلدان.

الانتصارت تتوالى وحلم الرسالة يقترب، والمهمة العظيمة أوشكت أن تنجز ..

كانت عائشة سعيدة فرحة بما يحدث، لكنها لم تكن تعلم أن نجاح الرسول فى مهمته لم يكن يعنى إلا شيئًا واحدًا .. أن تفترق عن زوجها وحبيبها .. ويفترق هو عن زوجته وحبيبته ..

وإلى الأبد.

" اجمعوا لى زوجاتى "

بصوت خفيض أثقله المرض، نطق بها رسول اللـه فى صعوبة، بعد أن اشتدت به الحمى، ليجتمع بهن وينظر إليهن، وكأنه ينظر إليهن النظرة الأخيرة، ثم يقول:

" هل تأذنَّ لى أن أمرض فى بيت عائشة؟ "

يحزن الجميع وتكاد الدموع تفر من العيون، ويملين نظرهن من رسول اللـه قبل أن يأذنَّ له، ثم يحمله على بن أبى طالب، والفضل بن عباس، إلى حجرة عائشة، ليستقر بها وهو يتصبب منه العرق، وهو يقول بصوت متهدج:

" لا إله إلا اللـه إن للموت لسكرات ".

وتأخذ عائشة يده الشريفة لتمسح بها عرقه؛ لأن يده أكثر بركة من يدها، ويدخل عبد الرحمن بن أبى بكر وفى يده سواك، فتعرف عائشة أن الرسول يريد أن يقابل ربه بفم طاهر، فتأخذ السواك وتلوكه فى فمها، ثم تعطه للرسول، فيكون آخر ما يدخل فى جوفه هو ريقها ..

الدقائق تمر، والموعد يقترب ويقترب ..

ويدخل جبريل فيلقى السلام، قال له جبريل: يستأذن عليك ملك الموت أن يدخل عليك، وما استأذن على أحد من قبلك، ولن يستأذن على أحد من بعدك ، فأذن له النبى، فيدخل ملك الموت، ويلقى السلام على النبى صلى اللـه عليه وسلم فيرد عليه النبى السلام. فقال ملك الموت للنبى صلى اللـه عليه وسلم :

إن اللـه أرسلنى كى أخيرك بين البقاء فى الدنيا وبين لقاء اللـه - عز وجل ..

فقال النبى صلى اللـه عليه وسلم : " بل الرفيق الأعلى ".

الدقائق تمر والموعد يقترب، وعائشة تنظر للرسول وتترقرق الدموع فى عينيها، وهنا يقف ملك الموت على رأس النبى، ويقول:

يا أيتها الروح الطيبة، روح محمد بن عبد اللـه، اخرجى إلى رضا من اللـه ورضوان، ورب راض غير غضبان.

الآن جاء الموعد، وسقطت يد النبى، وثقل رأسه على صدر عائشة ..

الآن مات الرسول .. والزوج والحبيب.

الآن ينفطر قلبها، وتخرج هائمة على وجهها لتفتح باب حجرتها، وتدخل على الناس فى المسجد، وتقول وهى تبكى فى حرقة:

مات رسول الله .. مات رسول الله ..

* * *

عائشة والرسول ..

لم يكونا يفترقان أبدًا، فإن افترقا بالجسد، جمعتهما الروح والذكريات، الآن كتب القدر عليهما أن يفترقا.

تسع سنوات من أجمل أيام عمرها، آن لها الآن أن تنتهى، لتكمل وحدها الطريق ..

دون أن تنسى يومًا .. رفيق الطريق.

* * *

صغيرة عائشة على الوحدة، صغيرة على فقدانها زوجها، لكنها شجاعة صابرة تقية.

ثمانية عشر عامًا، لكنها على العهد مع الحبيب، وستكمل الطريق ..

طريقه وطريقها ..

قرب عائشة من الرسول جعلها تسمع عنه أحاديثه مباشرة دون وسيط، وتعرف تفاصيل حياته الدقيقة لتعلمها لملايين المسلمين من بعده، فروت عن الرسول ألفين وخمسائة وخمسين حديثًا، وبلغ عدد من روى عنها مائة، منهم عمر بن الخطاب وعبد الله بن عمر وأبو هريرة وعروة بن الزبير وسعيد بن المسيب وأم الحسن البصرى، علمت المسلمين الفقه والحديث، وكان يرجع إليها الصحابة فى أمور كثيرة يسألونها عنها، حتى قال عنها أبو موسى الأشعرى:

كان يستعصى علينا أمر من أمور الإسلام، فنجد عند السيدة عائشة العلم.

وقال عروة بن الزبير للسيدة عائشة:

يا أماه .. والله ما أعجب من علمك فى الأنساب، أقول بنت أبي بكر، ولا أعجب من علمك فى الدين، أقول علمك رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أعجب من علمك بالشعر، ولكن الذى أعجب منه علمك بالطب، فمن أين لك بالطب يا أماه؟

فترد السيدة عائشة قائلة:

كان رسول الله فى آخر عمره يمرض كثيرًا، وكانت وفود العرب تأتينا وتعطينا الوصفات للنبى صلى الله عليه وسلم فتعلمت الطب من ذلك.

ذكية عائشة ومجتهدة ..

وجدت العلم أمامها فتعلمت وعلمت، وليس كل من يجد العلم أمامه يتعلم.

موهوبة عائشة، تستطيع أن تحفظ كثيرًا وتتحدث بلسان فصيح، فتبهر من يستمع إليها.

يقول معاوية بن أبي سفيان: أفصح العرب عائشة.

ويقول أبو موسى الأشعرى: لقد رأيت أبا بكر وهو يخطب ورأيت عمر وهو يخطب ورأيت عثمان وهو يخطب ورأيت عليًّا وهو يخطب ورأيت معاوية وهو يخطب ، والله ما رأيت أفصح فى الخطابة من عائشة.

والدها أبو بكر يحمل الراية بعد رسول الله، فينجح فى صد أول ارتداد على الدعوة بجرأة مذهلة وشجاعة نادرة لرجل تعدى الستين عامًا.

بعد عامين .. يكتب عليها أن تفترق عن أبيها، كما افترقت عن زوجها ..

تزيد الوحدة على عائشة فتأتنس بالله، وتقترب منه باجتهاد فى العبادة .. فتكثر الصلاة والصيام .. حتى يقول عروة بن الزبير:

دخلت على أمى السيدة عائشة ليلة وهى تصلى، فوجدتها تقرأ هذه الآية (**فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ {27/52} إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ {28/52}**)[الطور] .. تقرأها وتبكى، تقول اللهم مُن على وقنى عذاب السموم، فبكى عروة لبكاء السيدة عائشة.

ويرجع عروة بعد ساعات ليجدها تصلى بنفس الآية، وتدعو نفس الدعاء.

وعندما كبرت وبلغت الخمس وستين كانت صائمة فى يوم عرفة، فكانوا لشدة الحر يلقون عليها الماء كى تصحو، فدخل عليها عروة بن الزبير، وقال لها:

يا أماه، هونى عليك، قد فعلت كثيرًا، أفطرى يا أماه ..

فكانت عندما تسمع ذلك، فكأنما تدب فيها حيوية الشباب، وتقول متسائلة فى استنكار:

أفطر فى يوم يغفر اللـه تبارك وتعالى فيه ذنوب سنة ماضية وسنة قادمة؟!

ثم تتابع فى حزم وإصرار:

واللـه لا أفطر أبدًا.

ويأتى الخليفة الثانى عمر بن الخطاب، فتحمد عائشة اللـه أن جعل من بعد رسول اللـه رجلًا بتقوى وحكمة وذكاء وموهبة عمر بن الخطاب.

تحزن عائشة للأزمة الاقتصادية التى ألمت بالبلاد فى عام الرمادة، فتنفق فى سبيل اللـه ما استطاعت، حتى أنها فى يوم أخرجت كل ما فى بيتها وكانت صائمة، فقالت لها جاريتها منزعجة:

يا سيدتى .. أنت ما أبقيت شيئًا تفطرين عليه.

فترد عليها عائشة ببساطة:

لو ذكرتينى!

كانت عندما تنفق تضع المال فى إناء فيه مسك، ثم تعطيه للفقير؛ لأن المال يقع فى يد اللـه قبل أن يقع فى يد الفقير.

وتستمر عائشة فى طريقها مع اللـه ومع الناس، ويقترب عمر من اللحاق بالرسول وحبيبه أبى بكر، ويتمنى أن يكون بجوارهما، فيبعث إلى السيدة عائشة، وهو على فراش الموت مضرجًا فى دمائه، بعد أن طعن بسكين فى الصلاة، يستأذنها أن يدفن بجوار رسول اللـه، فترد عائشة فى تواضع:



واللـه لقد كنت أريد هذا المكان لنفسى، ولكنى أؤثر عمر اليوم على نفسى.

ويختاره اللـه بجواره بعد عشر سنوات من خلافته، ويدفن بجوار رسول اللـه فى غرفة عائشة، فيمنعها حياؤها أن تكشف ثيابها كلما دخلت غرفتها لوجود قبر عمر بها.

تقية عائشة .. عابدة صابرة حيية.

وتمر أمامها خلافة عثمان بن عفان بآلامها وأحزانها، ثم خلافة على بن أبى طالب بآلامها وأحزانها.

وتمر السنوات تلو السنوات، لكنها لا تنسى الحبيب ..

تجلس فى غرفتها فتطاردها الذكريات فى كل مكان، تتذكر يوم أن كانت تضع ذقنها على كتفه صلى اللـه عليه وسلم ؛ كى ترى الأحباش يلعبون فى ساحة المسجد ..

تتذكر كيف كان يسابقها، فتسبقه تارة ويسبقها أخرى ..

تتذكر يوم كانت تجلس معه فى الليل، فتحكى له ويحكى لها دون أن يمل أو تمل ..

تتذكر حنانه وعطفه ورحمته وتواضعه وسماحته ..

تتذكر وتريد أن تلقاه، و ..

" أبشرى يا أماه "

نطق بها ابن عباس فى صوت خفيض والدموع تترقرق فى عينيه للسيدة عائشة، وهى فى فراش المرض، ثم تابع وهو يبتسم لها ابتسامة حزينة:

ليس بين أن تلقى حبيبك محمد إلا خروج الروح من الجسد، وإنك واللـه كنت حبيبة رسولنا محمد صلى اللـه عليه وسلم ، وإنك واللـه المبرأة من السماء فى حديث الإفك، وإنك واللـه أحب زوجات الرسول إلى الرسول، وإنك واللـه التى علمت العلم.

تنظر إليه السيدة عائشة، وتقول بصوت متهدج:

يا ابن عباس .. دعنى، ليتنى كنت نسيًّا منسيًّا، فإن أفتخر بشىء فـأفتخر وأفـرح بـأن رسـول الـلـه مات بين سحرى ونحرى.

ولآخر لحظة فى حياتها، لا زالت تنشر عائشة العلـم، فتـدهش الجميـع بتواضـعها وإيثارهـا، فترفض أن تدفن بجانب زوجها رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم ؛ حتـى لا تتميـز عـلى بـاقى زوجات الرسول، فتقول فى إيثار غير مسبوق:

ادفنونى بجوار صاحباتى زوجات الرسول صلى الـلـه عليه وسلم ؛ حتى لا أتميز عليهن، وحتى لا يظن الناس بى فيلقون علىَّ الخير الكثير، ولا أكون أستحق ذلك.

وبعد ست وستين عامًا، وفى يوم الثلاثـاء فى السـابع عشر مـن رمضـان سـنة سـبع وخمسـين هجرية، تسقط يد عائشة وتثقل رأسها، كما سقطت يد رسول الـلـه وسـقطت رأسـه مـن قبـل، وتصعد روح عائشة إلى بارئها، فرحة بلقاء ربها ولقـاء حبيبهـا، وتخـرج زوجـات الرسـول، وهـن يقلن:

ماتت حبيبة رسول الـلـه .. ماتت حبيبة رسول الـلـه.

وداعًا يا عائشة .. وداعًا يا أمى، وأم المؤمنين ..

وداعا يا من برأتك السماء، ونتلو بقصتك القرآن؛ ليتذكر النساء إيمانك وصبرك وعفافك.

وداعًا.

* * *

دروس وتحليل

1) عائشة لم تكن طفلة وقت زواجها من الرسول، بل كانت فتاة ناضجة:

هناك ثلاثة أدلة تثبت أن عائشة فى وقت زواجها من الرسول لم تكن طفلة كما يشاع، ولم تكن صغيرة فى السن، الصغر الغريب والشاذ، الذى يثير حفيظة البعض الآن:

أولًا: السيدة عائشة تقدم لخطبتها جبير بن المطعم، قبل أن يطلبها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والسيدة صفية كانت متزوجة من سلام بن مشكم، وهى فى سن أحد عشر عامًا قبل أن يتزوجها الرسول صلى الله عليه وسلم ؛ مما يعنى أن الزواج فى الجزيرة العربية فى هذه السن كان واردًا وطبيعيًّا.

ثانيًا: النمو والبلوغ فى المناطق الحارة يختلف كثيرًا عن المناطق المعتدلة والباردة، والمعروف أن النمو والبلوغ فى المناطق الحارة يكون أسرع، ولا يقصد هنا النمو الجسدى فقط، بل النمو العقلى، والذى يؤهلها لأن تصبح زوجة تتحمل مسئولية منزل، إذن اختلاف البيئة هو الذى صنع هذا الفارق فى سن الزواج بينهم وبيننا.

ثالثًا: لم لو يكن الزواج فى هذ السن طبيعيًّا ومألوفًا فى مكة فى هذا العصر، لكنا سمعنا تشهيرًا شديدًا بما أقدم عليه الرسول من قبل المشركين فى مكة، وهو ما لم يظهر له أى أثر فى كتب السيرة على الإطلاق؛ مما يعنى أن الأمر كان مألوفًا إلى درجة لا يمكن استغلاله لنقد فاعله.

2) لماذا تزوج الرسول من السيدة عائشة؟:

كان زواج الرسول من السيدة عائشة بأمر من الله عز وجل، ففى صحيح البخارى ومسلم:

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أريتك فى المنام ثلاث ليالٍ، جاءنى بك الملَك فى سرقةٍ من حرير، فيقول هذه امرأتك؟ فأكشف عن وجهك فإذا أنت هى، فأقول: إن يك هذا من عند الله يمضه" (سرقة من حرير: قطعة حرير جيد).

ولقد كان لزواج الرسول من عائشة فائدة دعوية عظيمة؛ إذ إنه وثق العلاقة بينه وبين صاحبه ورفيق مشواره أبى بكر، كما وثقها بعمر بن الخطاب بزواجه من حفصة ابنته، وكما وثقها بعلى بن أبى طالب وعثمان بن عفان، بزواج بناته منهما.

3) المال مهم فى الزواج، ولكنه لا يكفى وحده لبناء أسرة سعيده (مهر السيدة عائشة كان ضعيفًا وأثاثها كان متواضعًا):

لا أحد ينكر أهمية المال فى الزواج، وأنه لابد أن يتوافر الحد الأدنى منه لحياة طبيعية كريمة، لا تصبح مدخلًا لمشكلات صعبة، لا تستطيع الأسرة الوليدة أن تواجهها، ولكن الخطأ أن نعتبر المال والتكافؤ المادى هو الشرط الوحيد لنجاح الزواج، ومن الخطأ أن يبالغ الأب والأم فى تحميل الشاب ما لا يطيق إثباتًا لحسن نواياه، أو المبالغة فى المصروفات من قبيل التفاخر والمقارنات مع آخرين .. جوهر الزواج أكبر من ذلك، وبناء أسرة متماسكة يحتاج بجانب المال إلى الحب والخلق الحسن وجمال الطباع والتفاهم والتوافق والتعاون، وقبل كل ذلك رعاية الله عز وجل للزوجين.

4 - لا تناقض بين التدين والرومانسية، فمن الممكن أن يكون المتدين رومانسيًّا (حب الرسول للسيدة عائشة كان مشاعًا):

رغم مشاغل الرسول واهتماماته العديدة، وصل حبه للسيدة عائشة إلى حد أن الصحابة عرفوه وأيقنو به .. لقد فهم الصحابة من كلام الرسول عن عائشة أمامهم كم هو يحبها، حتى أسموها حبيبة رسول الله، وحتى ظن أنس بن مالك، أن الرسول لم يحب أحدًا من زوجاته مثل عائشة، فلم يكن يعرف بأمر خديجة ومكانتها عند رسول الله ..

إن من العجب أن يظهر الرجل حب زوجته أمام الناس، وإنها لرومانسية عجيبة نفتقدها فى عصر يموج بأغانى الحب والهيام، وها هو الرسول يجرؤ على أمر، يثير العجب. إن التدين لا يتناقض مع الرومانسية، طالما كانت فى إطارها الشرعى الأخلاقى المنضبط.



5- التواصل العاطفى بالألفاظ مهم جدًّا فى تجديد العلاقة العاطفية بين الزوجين (السيدة عائشة كانت تسأل الرسول عن مقدار حبه لها، فيقول لها مثل العقدة فتداعبه، وتقول له بين الحين والآخر: كيف حال العقدة؟):

الفوران العاطفى الذى يبدأ مع الزواج طبيعى أن يقل مع الوقت، ويتعرض لهزات؛ نظرًا لمشاغل الحياة وضغط الظروف، وهو أمر له تأثير على طبيعة العلاقة بين الزوجين إذا لم ينتبه الزوجان لذلك، وستفتر العلاقة بينهما مع الوقت شيئًا فشيئًا، ويمكن تنشيط العلاقة بين الحين والآخر بكلمات عاطفية رقيقة تلطف الجو وتجدد المشاعر بين الحين والآخر. إنها مهارة مهمة يمكن أن يتعلمها الزوجان بالتدريب وإخلاص النية لله.

6- التنزه بين الحين والآخر مهم؛ لكسر رتابة الحياة فى المنزل (الرسول كان يتنزه مع السيدة عائشة كل فترة):

تخصيص وقت للتنزه خارج المنزل ولو مرة كل شهر أمر مهم جدًّا للزوجين وللأسرة؛ لكسر روتين الحياة اليومية، وإعطاء فرصة للطرفين للحديث الخاص بينهم؛ الأمر الذى يفتح القلوب ويجدد المشاعر، كما أنه يقوى العلاقة بين الأبناء والآباء.

7- الصبر على ضيق العيش، والتغلب عليه بالحب والتفاهم (الرسول والسيدة عاشئة كانا يعيشان عيشة فقيرة على التمر والماء، ويمر الشهر وراء الشهر، ولا يوقد نار للطعام فى البيت):

الكثير منا يعانى من مشكلات اقتصادية داخل المنزل، وطبيعى أن نسعى لحل هذه المشكلات بالسعى للرزق، والبحث عن وسائل أفضل للدخل، وترشيد الإنفاق، وحسن إدارة المنزل، وغيرها، ولكن إلى جانب ذلك ينبغى أن يكون هناك نوع من التفاهم بين الزوجين؛ لتقليل ضغط المشكلة الاقتصادية عليهم بالحب والرضا والارتباط بالله والتنازل والقناعة.

8- الغيرة أمر طبيعى عند المرأة، على الرجل أن يتفهمها وعلى المرأاة أن تضبطها؛ حتى لا تكون خطرًا على حياتها الزوجية (السيدة عائشة تغار من السيدة حفصة بعد أن صنعت طبق الثريد لرسول الله):

الغيرة غريزة وضعها الله فى الإنسان، لها جانب إيجابى، يشحذ النفس ويزيد من



همتها، ويجعل صاحبها يصلح من عيوبه، ولها جانب سلبى بأن يولد الحقد والحسد ويثير المشكلات ويعطل الحركة، والمرأة تتميز بغيرتها، وهو أمر فطرى، على الرجل أن يتقبله ويتفهمه ويعتبره دلالة على الحب، ولكن على المرأة أن تراعى أن للغيرة حدودًا، لا تعطل بها حركة الرجل، وتجعله فى حالة ارتباك مستمر، يحد من نجاحه.. التوازن مطلوب، ودائمًا خير الأمور الوسط.

8- الإسلام يعلمنا الرقى الأخلاقى عند حدوث خلاف بين الزوجين (الرسول وعائشة يديران الخلاف بينهما برقى أخلاقى نادر):

طبيعى أن تحدث خلافات بين المرأة وزوجها، مهما كانت درجة الحب، والدليل على ذلك، هو حدوث خلافات بين الرسول وبين أكثر زوجة أحبها بعد السيدة خديجة، لكن هناك أمران:

أولًا: أن يكون هناك اتفاق على طريقة وآلية لحل الخلاف عندما يحدث.

ثانيًا: أن لا نفقد أخلاقنا عند حدوث خلاف، بأن نسب ونشتم، ونبالغ فى الغضب ونهدد، ونسمح للشيطان بتصعيد الخلاف، إلى أن يصل إلى مراحل يصعب الرجوع عنها .. لقد قدم الرسول وعائشة لنا نموذجًا نادرًا عند إدارة خلافهما معًا، فلم نجد أحدهما يتفوه بلفظ شديد أو جارح، وعرض الرسول وساطة أبى بكر ليحل الخلاف بينهما، وكان الرسول دائمًا يتجه لتلطيف الجو، وتقليص حجم المشكلة، لا تعقيد المشكلة وتصعيدها، والحفاظ على كرامة الأطراف المختلفة، والمصارحة والحوار، والاعتراف بالخطأ دون مكابرة أو عناد، ساعتها سينتهى الخلاف لتستمر الحياة من جديد.

9- من التفاهم أن يفهم الزوجان دلالات السعادة والغضب عند كل طرف (الرسول يستطيع أن يعرف بكلمات معينة من عائشة .. متى تكون راضية ومتى تكون غاضبة):

من أهم أهداف فترة الخطوبة دراسة الشخصية .. كيف تفكر ويفكر؟ متى تفرح ويفرح؟ متى تغضب ويغضب؟ ما هى الطباع المختلفة للطرفين؟ وعندما يتحقق ذلك تصبح خطوة الزواج خطوة آمنة، وبعد الزواج طبيعى أن تستمر هذه الدراسة ليزيد التفاهم والتوافق بين الزوجين، والرسول كان يستطيع أن يحدد غضب السيدة عائشة من



رضاها، من كلمة معينة تجرى على لسانها، وعندما يفهم كل طرف الآخر سيسعى لأن يرضيه.

10- إذا خيرنا بين المال وبين والأخلاق والمثل العليا والقيم .. فأيهما نختار؟ (السيدة عائشة تختار الرسول ولا تختار المال بعد أن خيرها الرسول بين أن تعيش معه فى مستوى مادى بسيط وبين الطلاق):

صعبة هى لحظة الاختيار بين المال والأخلاق، صعبة هى لحظة الاختيار بين المادة والمثل والقيم، إنها لحظة صراع حقيقية، يقف الواحد منا أمام نفسه ليكاشفها، هل سينجح فى الاختبار ويفضل المبدأ على المادة؟ يحركه فى ذلك تقوى الله وخشيته، أم سيعتريه الضعف ويعجز أمام حاجة المادة؟ فتنكسر مبادئه أمام نفسه وأمام الآخرين .. إننا نقع فى حياتنا فى عشرات الاختبارات من هذا النوع، فكم مرة نجحنا، وكم مرة رسبنا؟

11- تستطيع المرأة أن تتفوق على الرجل، فقط إذا اجتهدت وأتقنت عملها (السيدة عائشة تتميز فى علم الحديث والفقه وتعلم الصحابة):

لا فرق بين الرجل والمرأة فى القدرات الذهنية والمهارات الفكرية، بل كثيرًا ما تثبت المرأة تفوقًا على الرجل فى هذه المجالات، والمشكلة أن المرأة لا تهيأ لها نفس فرص الرجل فى التعليم والتدريب والتشجيع والتجربة، وبالتالى فالطبيعى أن يكتسب الرجل خبرات أكثر، ويظهر تفوقه العملى الميدانى، والسيدة عائشة تميزت بشدة فى ثقافتها العلمية، وقدرتها على الحفظ والاستيعاب، حتى روت عن الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر من 2250 حديثًا، وأصبحت مصدرًا للتعليم لعدد من الصحابة، وتخصصت فى علم الحديث والفقه، حتى أصبحت أول من يفتتح ما يشبه مدرسة لتعليم الفقه والحديث. إن المرأة لديها مؤهلات التفوق، فقط تحتاج الفرصة والثقة بالنفس.

12- الإسلام يدعو إلى مشاركة المرأة فى الحياة السياسية (السيدة عائشة تخرج مع الرسول فى غزوة بنى المصطلق):

لا يمكن أن تستقيم الحياة إلا بمشاركة المرأة؛ فهى نصف المجتمع، وقوة فاعلة فيه لا

تقل عن الرجل، وبدون ذلك ستظلم المرأة، ويظلم المجتمع بالحرمان من طاقتها وآرائها، والإسلام يدعو المرأة لكل أنواع المشاركة المجتمعية، بما فى ذلك المشاركة السياسة، عن طريق الاهتمام بشئون بلادها والترشح للانتخابات، ولن يأتى ذلك إلا إذا طورت المرأة من نفسها، بالتثقيف السياسى والمشاركة الفعالة؛ حتى يقتنع المجتمع بقدرتها ودورها شيئًا فشيئًا، وفى نفس الوقت تنتبه المؤسسات التربوية لتفعيل دورها، وتأهيلها بصورة أكبر.

13- الوفاء بالوعد فريضة ولو لكافر (أبو بكر لم يستطع الموافقة على عرض الرسول خطبته من عائشة؛ لاتفاقه المسبق مع جبير بن المطعم) " ملاحظة: الرسول لم يكن يعلم بذلك ":

الوفاء بالوعد قيمة عظيمة، يجب الحفاظ عليها، ولو فى أشد الظروف، فالوفاء بالوعد صدق وإشاعة للثقة بين الناس، وعدم الوفاء به غدر وخيانة وكذب ونفاق، وكان أشد ما يحافظ عليه الرسول هو الركن الأخلاقى عند المسلمين، مهما كانت التضحيات فى سبيل ذلك.

إن الوفاء بالوعد فرض على المسلمين، ولو أخذ لكافر، ولا يكون الوعد لمسيحى أو يهودى أو ملحد ذريعة لنقض العهد أبدًا، فالأخلاق لا تتجزأ، ورسالة الإسلام رسالة أخلاقية قبل كل شىء، وهى رسالة لمسلمى هذا العصر، الذين يخلفون الوعد لأتفه الأسباب؛ كالكسل ومشاهدة التلفزيون والنوم ... إلخ. إن الوعد مسئولية كبرى على الرجال والنساء على حد سواء.

14- عندما تضيق بكِ السبل، فوضى أمرك إلى الله وتوكلى عليه، ولا تحزنى (أبو بكر يقع فى مأزق، بعد أن طلب الرسول يد ابنته عائشة، فى الوقت الذى كان قد أعطى فيه كلمة لجبير بن المطعم):

كلنا نتعرض لمحن تتعقد فيها الأمور بشكل صعب، ويتجه الواحد منا يمينًا ويسارًا، فلا يجد مخرجًا ولا يتلمس حلًّا، وعند ذلك يكون الحل الوحيد أن نتجه بأبصارنا وقلوبنا إلى السماء، ونرفع أكف الضراعة إلى الله، ونعلن أننا نفوض أمرنا إلى الله، ونتوكل عليه،

وبعدها سيأتى الفرج من اللـه من حيث لا نحتسب، فهو اللــه مـدبر الأمـر .. بيـده كـل شىء، لديه مفاتيح الأمور ومغاليقها.

15- الأمانة خلق يحتاج إلى ضمير يقظ، ولا يقتصر فقط على حفظ الودائع (السيدة عائشة تتأخر عن الجيش للبحث عن عقد اقترضته من صاحبة لها):

يقع الكثير فى خطأ عدم حفظ الأمانة أو إهمالها، وكثيرًا ما نقترض من أصدقائنا كتبًا أو أجهزة أو نقودًا، ثم لا نرجعها أو نتباطأ فى إرجاعها أو نرجعها على غير حالتها، وهو ما يعنى أننا فرطنا فى حفظ الأمانة، ولم نلتزم بخلق يدعونا إليه الإسلام ويفرضه علينا، والرسول كان يحفظ الأمانة للكافرين، والسيدة عائشة انزعجت عندما اكتشفت فقدان عقد ليس لها، واضطرت أن تتخلف عن الجيش للبحث عنه، وهو ما تسبب لها وللرسول وللمجتمع كله فى مشكلة شخصية وعائلية كبيرة ومزعجة.

إلا أنه يجب أن نقول إن الأمانة ليست أمانة حفظ الودائع فقط، بل هى تتسع لتشمل أمانة الكلمة التى تجعل صاحبها لا يفشى سرًّا، ولا يكذب ولا يحرف الكلام، ولا يضلل الناس بتزييف الحقائق أو بترها، وهى تشمل أمانة المسئولية لأشخاص مسئولين، فلا يهدرون وقت عملهم، ولا يستغلون المنصب لمصالحهم الشخصية.

إن الأمانة تحتاج إلى ضمير يقظ وارتباط متواصل مع اللـه وخوف منه، وهو خلق يشيع الثقة والأمان النفسى فى المجتمع، ويحميه من التوتر والقلق.

16- الرفق بالزوجة فى أحلك الظروف (عدم إبلاغ السيدة عائشة بالخبر وهى فى مرضها):

خلق الرفق والرحمة من الأخلاق التى تميز بها الإسلام والديانات السماوية عمومًا، وهو خلق أساسى فى العلاقة بين الزوجين، الذى يقوم أساسًا على المودة والرحمة والتسامح واللين والرفق، ولقد ضرب الرسول الكريم مثلا رائعًا فى الرفق مع السيدة عائشة، فى ظرف فى غاية الصعوبة على أى زوج، لو تعرض له أحدنا لفقد أعصابه، ولتصرف تصرفات يمكن توقعها جيدًا، لكن رفق الرسول وحلمه بالسيدة عائشة فى مرضها، جعله يتركها قرابة شهر، دون أن يخبرها بما حدث؛ نظرًا لظروف مرضها.

17- العدل مع الخصوم خلق نادر بيننا .. هل تستطيعين أن تقومى به؟ (الرسول يعدل مع حسان بن ثابت وصفوان بن المعطل، رغم أن الأول نشر الكلام والثانى متهم فى حادث الإفك):

العدل مع الخصم أمر فى غاية الصعوبة، ويتطلب تقوى من اللـه وشجاعة نفس غير عادية؛ ذلك لأن الخصم يولد كرهًا وبغضًا، قد يدفع صاحبه للكذب والتضليل أو الظلم، ولقد زاد من صعوبة الموقف أن الرسول كان هو الخصم والحكم فى وقت واحد، ومع ذلك لم يتحفز لحسان وصفوان، ولم يظلمهما، طالما أن الحقيقة لم تثبت بعد، وهو أمر نحتاج إلى أن نقتدى به فى التعامل مع الخصوم، حيث يقول تعالى (وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ) [المائدة:8].

18- الشجاعة فى مواجهة الناس والمجتمع مطلوبة فى المواقف الصعبة (الرسول يواجه المجتمع فى حادث الإفك):

الهروب من المشكلة يزيد المشكلة تعقيدًا، وتجاهل المشكلة يفاقمها، طالما أن المشكلة حقيقية وحيوية، والمشكلات حلها يحتاج إلى المواجهة والتوضيح والحوار، وهو أمر يتطلب شجاعة من أصحابها، هذه المواجهة تكشف حقائق وتوضح مفاهيم غامضة، تسير بالمشكلة فى اتجاه الحل، طالما كانت النوايا صادقة.

19- الجئى إلى اللـه فى وقت المصيبة، وتأكدى أن اللـه سيقف بجانبك (عائشة تفاجأ بأن أقرب الناس إليها لا يصدقها، فتلجأ إلى اللـه فى محنتها):

مهما كانت المصيبة، فاللـه سبحانه وتعالى هو محرك الكون وميسر الأمور .. بيده مفاتيح القلوب وأسرار الحياة، هو القادر أن ينزل المطر ويزلزل الأرض ويحيى الموتى، بيده ملكوت السموات والأرض .. إذا تذكرنا كل ذلك عند المصيبة، ولجأنا إلى اللـه الملك العزيز الغفور الرحيم، لوقف بجانبنا ولأراح نفوسنا، وعالج قلوبنا، وفتح لنا أبواب الحلول، وقوانا على الصبر والتحمل، فلنتوجه إلى اللـه وقت الشدائد، ولنتأكد أنه سيقف بجانبنا ولن يخذلنا.



20- الحياء خلق فى غاية الأهمية للبنات، وبدونه تفقد الفتاة رضا اللـه واحترام الناس (السيدة عائشة يمنعها حياؤها أن تكشف ثيابها كلما دخلت غرفتها لوجود قبر عمر بن الخطاب بها):

الفتاة التى تكشف أجزاء من جسدها، أو تلبس الملابس الضيقة لتظهر مفاتنها، ألا تعرف أنها تفقد بذلك خلقًا ملاصقًا للفتيات اسمه الحياء؟! وإذا كان الحياء مطلوبًا من الشباب مرة، فهو مطلوب من الفتيات عشر مرات؛ فبدون الحياء تفقد الفتاة احترامها أمام الناس، وقبل ذلك وبعده تفقد رضا اللـه، وتنشر الفتنة وتتسبب فى فساد الأخلاق فى المجتمع المسلم، وللأسف الكثير من الفتيات المحجبات يسببن الحيرة بما يفعلن، فيغطين الرأس، ولكن يتزين ويلبسن ملابس لا تدل إطلاقًا على أن صاحبة هذه الملابس ترتدى الحجاب مخافة اللـه، أو طمعًا فى رضاه، أو تنفيذًا لأوامره، والحياء ليس فى الملابس فقط، بل فى المشية وطريقة التحدث مع الجنس الآخر، فلنتعلم من السيدة عائشة معنى الحياء، ولنقتدى بها، وسنشعر ساعتها برضا اللـه، واحترام الناس.

21- اللـه يرفع الناس بالتواضع (السيدة عائشة رفضت تمييزها فى الدفن لتدفن مع باقى الزوجات):

الغرور والتعالى على الناس هو شعور بالنقص عند صاحبه، وفقدان الثقة بنفسه، وهو يحاول أن يتعالى على الناس حتى يعوض هذا النقص لديه، والذى يحدث هو أن الناس تكرهه وتسفه كلامه وآراءه، وتتجاهله وتتجنبه وتسقطه من نظرها، والمكشلة الأكبر أن الشخص المغرور قد لا يشعر بذلك، ويظل ينظر لنفسه بعيونه هو لا بعيون الناس، فيزيد غرورًا وسقوطًا أمام الناس، ومنهم من يتعجب بأن الناس تصفه بالغرور، وهو لا يعرف لماذا.

على عكس الشخص المتواضع، هو شخص يشعر بثقته بنفسه ورضاه عنها وتصالحه معها، وهو شخص يحاول بكلماته وأفعاله أن يرفع من حوله ويقدرهم، ويظهر أنهم أفضل منه، فيحبه الناس ويرفعوه على رءوسهم، وسيتحدث الناس عنه وعن مهاراته وأعماله دون أن يطلب منهم.

إن التواضع يرفع الناس، والغرور يذلهم ويسقطهم، وصدق رسول الـلـه حيـث قـال: "مـن تواضع لله رفعه ".

* * *

حفصة بنت عمر

حارسة القرآن

حفصة بنت عمر
حارسة القرآن

" لقد أسلمت قريش "

صاح بها فى فرح بالغ خميس بن حذافة السهمى لإخوانه الصحابة الذين هاجروا إلى الحبشة فى السنة الخامسة من البعثة، بعد أن جاءهم الخبر من مكة بإسلام قريش.

كانت الفرحة عارمة، وكان القرار جاهزًا لعدد من الصحابة، بالعودة فورًا إلى مكة، فلم يعد هناك مبرر للمكث فى الحبشة.

ويعود خميس بن حذافة السهمى إلى مكة فرحًا، مهيئًا نفسه لمشهد جديد، مشهد فرحة وانتصار وحرية وأمل ..

إلا أنه بمجرد دخول خميس بن حذافة مكة، بدأت الصورة التى رسمها فى ذهنه تخفت شيئًا فشيئًا، وبدت الابتسامة التى رسمتها فرحة الخبر على وجهه، تتضاءل شيئًا فشيئًا ..

فالأمور كما هى ..

المسلمون يعذبون فى الطرقات، والأصنام ترفع هاماتها فى كل مكان، والمشركون يسبون المسلمين ولا يكفون عن محاربة محمد ودينه.

تمر الدقائق والساعات، ويدرك خميس بن حذافة الحقيقة التى لم يردها ..

لم يتغير شىء .. ولم تسلم قريش ..

ولم يكن الخبر الذى وصل إليهم إلا خبرًا كاذبًا ..

شائعة ملأت سماء مكة، وسافرت إلى الحبشة بسرعة البرق، لتأتى به وعدد من الصحابة إلى مكة تارة أخرى ..

لقد حزن خميس بن حذافة، فلقد ضاعت فرحته التى جاء من أجلها من الحبشة، إلا أنـه لم يكن يدرك أن الـلـه يرتب له فرحة أخرى حقيقية .. وأكيدة.

* * *

" خميس بن حذافة السهمى يريد خطبتك يا حفصة "

نطق بها عمر بن الخطاب فى ابتسامة حانية لابنتـه حفصـة، بعـد أن حدثـه خمـيس بشـأن الزواج بها.

وتوافق حفصة ابنة الاثنتى عشرة سنة، لتتزوج فى السنة السابعة من الهجرة، صغيرة كغيرهـا من بنات جيلها، يتزوجن فى هذه السن دون انتقاد من المجتمع، وبعد الـزواج كـان قـرارهما أن يبقيا فى مكة مع رسول الـلـه، يكملان حياتهما معًا فيهـا، ويكمـلان مـع زواجهـما رحلـتهما مـع الرسول ضد قريش.

ومن السنة الخامسة من البعثة تبدأ الرحلة ..

دعوة وجهاد ومشقة ودعاء ..

وبعد عامين تشتد الأزمة، فلقد قررت قريش إعلان المقاطعة العامة على المسلمين .. وتدخل حفصة مع زوجها خميس بن حذافة معسكر المسلمين فى شعب أبى طالب، ليظلا ثـلاث سـنوات كاملة فى حصار اقتصادى عنيف، أضـعف أجسـادهم وأنهـك قـواهم وأصـاب بعضـهم بـالمرض، ولكنهم صامدون ثابتون صابرون مؤمنون.

ثلاث سنوات ثم يأذن الـلـه للظلم أن يزول، وللحصار أن ينفك، ليدخل الرسـول والمسـلمون فى ألم جديد ..

فلقد ماتت السيدة خديجة وأبو طالب عم الرسول فى عام واحد.

الآلام تتزايد والمصاعب تتوالى، ويأذن الـلـه للرسول بالهجرة إلى المدينة.

وتهاجر حفصة مع زوجها خميس بن حذافة إلى المدينة، لتبـدأ مرحلـة جديـدة مـن العمـل للإسلام فى ظروف أفضل نسبيًّا، لكن ملاحم الجهاد العسكرى بـين المسـلمين وقـريش كانـت قـد انطلقت شرارتها.

وكان خميس بن حذافة على العهد، لم يترك رسوله أبدًا ..

ففى العام الثانى من الهجرة، قاتل فى بدر، وبعدها بعام واحد، كان بطلًا فى أحد، مدافعًا عن النبى ثابتًا لم يتزحزح، حتى بعد إطلاق شائعة وفاة الرسول .. لكن جسد حذافة تحمل الكثير فى أحد، وكانت الإصابة بالغة والجرح عميق.

ويأتى حذافة إلى حفصة جريحًا، فتستقبله كبطل دافع عن دينه، وذاد عن رسول اللــه، ثـم ترعاه وتطببه وتدعو له ..

لكن الآلام تزيد والجرح لا يطيب، وكان يبدو أن نظرات خميس إلى حفصة، تنبـئ بالرحيـل، وأن موعد الفراق قد اقترب ..

وتتوقف أنفاس الزوج الحبيب، وتغمض أعينه، وتنهمر عيون حفصة بالـدموع لتبلـل فـراش الشهيد، وتبقى هى حزينة وحيدة فى خلوة مع نفسها .. ومع ربها.

* * *

لم تنجب حفصة بعد تسع سنوات زواج قضتها مع زوجها خميس بن حذافة، تجلس وحيدة فى بيتها وبجانبها واحد وعشرين عامًا من شبابها .. تمر الأيام ثقيلة عليها، وتطـل الأحـزان عليهـا من كل باب، والأيام تصبح شهورًا، ولم يطرق أحد بابها للزواج.

سبعة شهور كاملة، ولم يأت أحد، كثير على بنت الواحد والعشرين، وكثير على بنـات المدينـة ومكة والجزيرة، وكثيرة على بنت عمر بن الخطاب.

ويتسرب الحزن إلى الأب عمر شيئًا فشيئًا، ويتحول الحزن إلى قلق، ويدفعه القلـق إلى فعـل استثنائى نادر فى ذلك الوقت وحتى وقتنا هذا ...

* * *

" يا أبا بكر، ألا تتزوج حفصة؟ "

نطق بها فى ترقب عمر بن الخطاب لأبى بكر الصديق، الذى بدت عـلى وجهـه أثـر المفاجـأة من عرض عمر، جعلته غير قادر على الرد، ليستأذن منه وينصرف.



شعر عمر بن الخطاب بالحرج والغضب أيضًا، وزاد حزنه وقلقه وتداعت الأسئلة والإجابات إلى رأسه:

لماذا تركنى أبو بكر هكذا؟، لمذا لم يرد علىَّ؟ لماذ لم يرفض حتى ويريحنى بدلا من هذا التصرف؟

يحب عمر ابنته حفصة كثيرًا، ورغم حرجه البالغ مما فعل أبو بكر، سيحاول مرة أخرى .. وسيذهب إلى عثمان بن عفان.

نعم إنه عثمان، فعثمان أرمل بعد وفاة زوجته رقية بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بالتأكيد يفكر فى الزواج، نعم إنه عثمان ..عثمان و ...

" هل تتزوج حفصة يا عثمان "

بشجاعة أكبر قالها عمر بن الخطاب لعثمان بن عفان، وبتفاؤل أكبر أعد نفسه لإجابة تدخل على نفسه السرور، إلا أن أثر المفاجأة تكرر للمرة الثانية على وجه عثمان، وكان دبلوماسيًّا بعض الشىء، قائلًا فى تردد:

" أنظرنى حتى أفكر ".

ويترك عثمان عمر أيضًا، ويترك عمر مرة أخرى للأسئلة والإجابات تدور فى رأسه، إلا أنها كانت أخف هذه المرة، ورأى عمر الأمر منطقيًّا، فمن الطبيعى أن يأخذ عثمان وقته فى التفكير.

نعم من الطبيعى أن يفكر عثمان، لكنه بالتأكيد سيوافق.

ربما كانت هذه العبارة تدور فى رأس عمر كثيرًا حتى جاء الموعد الذى سيعرف فيه الإجابة يقينًا.

فبعد أيام دخل عمر المسجد ليجد عثمان يصلى، فجلس بجواره، ويشعر عثمان بعمر، فيطيل الصلاة، فلما انتهى منها أقبل عليه عمر مبتسمًا قائلًا:

لم ترد علىَّ يا عثمان.

بدا الاضطراب على عثمان، وهو يقول وكأنه يريد أن يلقى كلمة ثقيلة:

يا عمر .. أنا لا أريد الزواج هذه الأيام.

ترك عثمان عمر لا ينطق، فى حالة صمت ذاهل، وكأن عقله توقف عن التفكير فجأة، ثم تعود الأفكار والأسئلة تدوى فى رأس عمر، لكن هذه المرة بلا إجابات ..

ما الذى يحدث؟ لماذ لا يريد أحد أن يتزوج حفصة؟ أَلِأنها أرملة؟ لأنها كبرت قليلًا فى السن؟ ألا يشفع لها أنها حفصة، وأنها ابنة عمر بن الخطاب.

تزيد الاسئلة وتتكاثر الأفكار، ولا يجد عمر لها حلًّا إلا أن يذهب لرسول اللـه يشكو لـه لعله يستريح، ويحكى له لعله يفهم.

ويستمع الرسول إلى عمر هادئًا مبتسمًا، وما أن انتهى عمر، حتى يفاجئ الرسول عمر برد آخر قائلًا:

يا عمر يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هى خير من حفصة.

لم يفهم سيدنا عمر ..

عادت الأفكار مرة أخرى تمارس هوايتها فى عقل عمر، وتحولت الأسئلة إلى ألغاز صعبة، لكنها هذه المرة تحمل معنى الأمل.

" يا عمر يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هى خير من حفصة" ..

أخذت الجملة ترن فى أذن عمر مرات ومرات، يحاول أن يفسرها ويحللها ليخلص منها بنتائج مقنعة.

وبدأ الحوار الداخلى بين عمر ونفسه:

يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، والرسول لا يفاضل بين أصحابه، إذن من يقصد الرسول، أيقصد نفسه؟ معقول، أيقصد نفسه؟

ثم يتابع:

ولكن ماذا يقصد الرسول بقوله: يتزوج عثمان من هي خير من حفصة .. إن الرسول لا يمكن أن يجرحنى فى ابنتى، إذن ماذا يقصد الرسول؟ هل يقصد ابنته أم كلثوم؟ ربما.

ارتاح عمر قليلًا بعد عصف ذهنى أتعبه كثيرًا، بعد أن توصل إلى نتائج صحيحة مائة بالمائة، لكن الذى لم يعرفه عمر، ولم يتوصل إليه أن أبا بكر وعثمان كانا يعرفان هذه الحقيقة من قبل، ففى جلسة لم يحضرها عمر، ذكر الرسول أمام أبى بكر وعثمان، أن حفصة بنت عمر لم تتزوج إلى الآن.

إلا أن عمر لم يشأ أن يترك نفسه للتخمينات أكثر من ذلك، ويقرر أن يذهب للرسول مرة أخرى، فيقول له الرسول باسمًا:

نعم يا عمر، أنا أخطب حفصة وعثمان يتزوج أم كلثوم.

لم تسع الدنيا عمر حينها، وانشرح صدره واتسعت ابتسامته، ليخرج من عند رسول الله وقد ملأت الفرحة عينيه، ليفاجأ بأبى بكر أمامه مبتسمًا فيلاحقه قائلًا:

يا عمر، لعلك قد وجدت علىَّ؟

ينظر إليه عمر معاتبًا، وهو يقول:

وأى وجد يا أبا بكر، وأى وجد!!.

فيقول له أبو بكر فى حنان:

يا عمر، والله لم يمنعنى من أن أقبل الزواج من حفصة، غير أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكرها أمامى، وما كنت لأفشى سر رسول الله صلى الله عليه وسلم .

لقد فهم أبو بكر من ابتسامة عمر بعد خروجه من عند رسول الله، أن الخبر قد وصله، وأن الرسول قد صارحه، فكان عليه أن يكشف السر الآن ليزيل أسباب الغضب عند عمر.

ولقد زالت بالفعل مع أبى بكر، كما زالت مع عثمان بن عفان، ليعود الحب بين عمر وبينهما مثلما كان وأشد.

ويعود عمر ليبلغ حفصة بالخبر السعيد، الخبر الذى سيعوضها عن زوجها وعن صبرها بخير أهل الأرض، وتصبح بعد قليل زوجة رسول الله ..

وأم المؤمنين حفصة بنت عمر.

* * *

فى السنة الثالثة من الهجرة، تدخل حفصة بيت رسول الله أمًّا للمؤمنين مع عائشة بنت أبى بكر، تشكر ربها بكثرة صيامها وقيامها، حتى عرفت بالصوامة القوامة، وتريد أن تنال من قلب زوجها فتجمع حبين، حب زوجها وحب النبى، وهى تجتهد فى هذا وذاك، لا تريد أن تقصر فى أى منهما.

والمرأة التى تحب زوجها تحاول أن تفكر فيما يريد قبل أن يطلب، فتشعره أنها معه بقلبها وفكرها، وهذا ما فعلته السيدة حفصة، عندما جاء إلى رسول الله عدد من الصحابة فى بيته، فقررت أن تجهز لهم طبقًا من الثريد واللحم، ليأخذه الرسول منها شاكرًا، ويهم بوضعه وسط أصحابه، وهو يدعوهم إلى الطعام وسط ابتسامات الصحابة الكرام وتعليقاتهم اللطيفة ..

إلا أنه فجأة ساد الصمت المكان، وتبادل الجميع النظرات فى خجل ..

فلقد خرجت السيدة عائشة فى غضب، لتضرب طبق الثريد، فينكسر الطبق، وتتناثر أجزاء الطعام.

كان المشهد غريبًا، لكن الرسول وكل من يعرف طبيعة المرأة، يدرك أن الغيرة هى إحدى مكوناتها وإحدى صفاتها الأصيلة التى لا يمكن محوها، ولكن يمكن تهذيبها لتصبح فى حدودها الطبيعية التى تضيف جمالا للمرأة، لا نفورًا منها، وتجعل الغيرة تغذى الحب لا تدفع إلى الضيق والمشكلات.

لذا كان توجيه الرسول لعائشة فى هدوء:

" يا عائشة أفسدت لحفصة قصعة، فردى إليها قصعة غيرها "..

وتستجيب عائشة وتفعل ما أمر به الرسول .. زوجها.



حفصة أيضًا كانت تعرف بالغيرة، وهو ما جعل أبوها عمر بن الخطاب يخشى على حفصة من نفسها، فتتسبب غيرتها فى وقوع المشكلات بينها وبين عائشة، فتغضب عائشة، ويغضب منها رسول الله، ثم يغضب منه، ويغضب من عائلة الخطاب.

لهذه الدرجة بلغت حساسية عمر بن الخطاب أن تتمكن الغيرة من حفصة يومًا، فتتورط فيما لا تريده ولا يريده، فيجلس بجانبها وينصحها نصيحة أب محب قائلًا لها:

يا بنيتى .. إياكِ أن تغارى على رسول الله من عائشة، لا يغرنك عائشة فإنها فى قلب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبها أكثر مما يحبك، ولها حسنها وجمالها، ويحب أبيها أكثر مما يحب أبيك، فلا تغارى منها غيرة مبالغة؛ لأن النبى قد يحتمل منها ما لا يحتمله منك، فيطلقك النبى فيغضب الله على آل الخطاب.

وتفهم حفصة كلام أبيها وتتفهم نصيحته، وتتقرب بعدها من عائشة حبًّا فى زوجها رسول الله، حتى أنها كانت تتحدث مع زوجات الرسول يومًا عن أقرب قلب لرسول الله بعد عائشة.

لكن القلب القريب لرسول الله بعد عائشة كان قلب زينب بنت جحش، وهى قسمة القلب، لا يملكها رسول الله، ولا أى بشر، لكنه كان عدلًا دومًا مع الجميع، فلا يظلم واحدة دون أخرى، فكان كثيرًا ما يتردد على السيدة زينب ليأكل عندها العسل.

وهنا تجتمع غيرة عائشة وغيرة حفصة على زينب بنت جحش، فتذهب عائشة إلى حفصة، تقول لها:

أترين رسول الله يذهب إلى زينب كثيرًا، يأكل عندها العسل؟

فترد حفصة بملامح جامدة:

نعم.

وتتابعها عائشة:

لدىَّ ما يجعل رسول الله لا يذهب عند زينب كثيرًا ..

انتبهت حفصة إليها قائلة فى حماس:

كيف؟

لاحقتها عائشة:

إذا دخل عليك النبى قولى له إنى أشم منك رائحة مغافير، فإذا قال لك أنا لم آكل مغافير، فقولى له لعلك قد أكلت عسلًا، قد رعت نحلته فى حقل به مغافير، وإذا دخل عندى سأقول له نفس ما قلت.

وتطبق الاثنتان الخطة، فيدخل النبى على حفصة، فتلاحقة قائلة:

يا رسول اللـه، إنى أشم منك رائحة مغافير ..

وينظر إليها متعجبًا، وهو يقول:

مغافير .. ما أكلت مغافير ..

وتدير حفصة وجهها كأنها تستنتج قائلة:

لعلك قد أكلت عسلًا قد رعت نحلته فى حقل به مغافير.

ويدخل الرسول على عائشة ليتكرر نفس الموقف بنفس الكلام، فيفهم الرسول ويبتسم، ويحاول إرضاء زوجته قائلًا:

إذن لا آكل عسلًا.

وهنا ينزل قول اللـه - عز وجل - معاتبًا الرسول، بألا يحرم ما أحل اللـه له إرضاء لزوجاته، قائلا فى كتابه الكريم:

(يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللـهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللـهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {1/66})[التحريم].

ليس الرسول وعمر فقط يعلمان عائشة وحفصة أن للغيرة حدودًا، اللـه أيضا يعلمهما ويعلم كل النساء أن الغيرة فطرة، ولكنها إذا تجاوزت الحدود ستتحول إلى ظلم.

وتعلمت حفصة وعائشة الدرس؛ لأنها تحب أن تتعلم وأن تناقش، حتى وإن كان من تناقشه رسول اللـه.

* * *

" يا رسول اللـه .. (وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا {71/19})[مريم:71]"

هكذا عقبت حفصة عندما كان الرسول يتحدث يومًا عن بيعة الرضوان، فقال عن أصحابها:

" إن أصحاب البيعة لا تمسهم النار مخلدين في الجنة ".

فاعترضت حفصة، موضحة أن القرآن الكريم ذكر أن كل البشر لابد أن يمروا على النار حتمًا.

فيرد عليها الرسول في رفق مكملًا لها الآية الكريمة:

(ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا {72/19})[مريم:72].

تعلمت حفصة من أبيها كثيرًا، ولكن في هذه النقطة بالتحديد تعلم منها عمر بعد أن تعلمت منها أمها ..

" أتراجعينني يا امرأة؟! "

صاح بها عمر بن الخطاب في غضب، وهو في نقاش مع زوجته، مندهشًا من معارضته له في أمر من الأمور، حيث لاحقته قائلة:

ولم لا أراجعك وابنتك تراجع رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم ؟!

هتف عمر وقد زادت دهشته متسائلًا: أوتفعل؟!

فاجأته زوجته بما هو أكثر قائلة في إصرار:

ليست وحدها من تفعل ذلك، بل كل زوجات النبي يراجعن النبي صلى اللـه عليه وسلم ..

انقبض قلب عمر خوفًا عليها وعليه، وانطلق إلى ابنته ليقول لها في انزعاج:

يا حفصة .. أتراجعين رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم ؟!

أجابت حفصة بلهجة من ترى الأمر طبيعيًّا: نعم، يا أبي أراجعه ..

لاحقها عمر ناصحًا في لهفة:

يا بنيتى .. لا تفعلى، فيغضب النبى فيغضب اللـه لغضب النبى، يا بنيتى لا تغرنك عائشـة، أين أنت من عائشة، وأين أبوك من أبي عائشة؟

يتواضع عمر كثيرًا لأنه يحب الرسول كثيرًا كما تحبه حفصة نبيًّا وزوجًا، وتحاول أن ترضيه فى كل حين، قبل أن تخطئ وتغضب منها الرسول غضبًا كبيرًا، وتحزنه حزنًا عميقًا..

* * *

عاشت حفصة وغيرها من الزوجات أياما صعبة مع الرسـول، تحملـن فيهـا شـظف العـيش وألم الحاجة ومشكلات الفقر، وهن يفعلن ذلك إيمانًا باللــه وبقضـيتهم، وحبًّـا فى رسـول اللــه، ولكـن جاءت السنة السابعة من الهجرة بتصورات وتطلعات جديدة لدى زوجات الرسول، وبالتحديد بعـد غزوة خيبر وانتصار المسلمين فيها، وحصولهم على غنـائم كثـيرة، جعلـت الحالـة الماديـة للمسـلمين وللرسول أفضل، وهنا ضغطت زوجات الرسول تطالب النبى بسعة من العيش، والخروج مـن هـذه الحالة التى عاشوا فيها سنوات، لكن الرسول لم يوافق، وحزن حزنًا شديدًا و ...

" رسول اللـه طلق زوجاته "

صاح بها أحد الأنصار فى انزعاج شـديد، مـما أيقـظ عمـر بـن الخطـاب فزعًـا مـن نومـه فى العوالى، وما إن أفاق حتى تساءل فى دهشة:

ماذا تقول يا رجل؟

لاحقه الأنصارى قائلًا:

الخبر منتشر فى المدينة، والجميع ما بين مذهول وحزين.

أطلق عمر قدميه يسابق الريح إلى ابنته حفصة، ومـا إن دخـل عليهـا حتـى وجـدها تـبكى، فسألها والهلع يكاد يقفز من وجهه:

ما يبكيك يا حفصة، أطلقك رسول اللـه؟

رفعت حفصة وجهها والدموع تملؤه، وهى تقول بصوت متقطع:

لا أدرى يا أبى، لا أدرى، ولكنه اعتزلنا ..

أمسك عمر بكتف ابنته، وهو يعاتبها قائلًا:

يا بنيتى ألم أقل لك؟ والـلـه لأن طلقك النبى لا أكلمك بعد اليوم أبدًا.

زاد بكاء حفصة حتى تحول إلى نحيب، بينما تركها عمر وسط دموعها، متجهًا بسرعة إلى رسول الـلـه، فخرج عمر إلى المسجد ليجد الصحابة فى هم، وبعضهم يبكى، ويسأل عن الرسول، ليعرف أنه معتزل فى صومعته، فيستأذن غلامه رباح، فيدخل على الرسول، ثم يخرج قائلًا لعمر:

حدثت الرسول بما طلبت، ولكنه لم يرد علىَّ.

سقط عمر على الأرض مهمومًا، وغلبه البكاء من فرط الحزن، لكنه بعدها بدقائق تماسك، وقرر أن يحاول مرة أخرى، فقال لرباح فيما يشبه التوسل، وهو يرفع صوته حتى يسمعه الرسول:

يا رباح .. استأذن لى على رسول الـلـه، فوالـلـه ما جئته من أجل حفصة، ولو أمرنى أن أقطع عنق حفصه لقطعت عنق حفصة.

ويدخل رباح، ويعود ليقول لعمر فى أسف:

لم يأذن لى.

ويسقط فى يد عمر، ويزداد حزنه وبكاؤه، لكنه يفاجأ بعد دقائق برباح يخرج عليه، ويقول له وهو يبتسم فى لهفة:

قد أذن يا عمر .. قد أذن يا عمر.

ولم يصدق عمر نفسه، فيدخل على النبى ملهوفًا ليجده مهمومًا حزينًا، فيجلس عمر ليقول فى رفق:

يا رسول الـلـه .. أنت هاهنا وكسرى وقيصر فى ما هم فيه من نعيم؟

فينظر النبى إلى عمر قائلًا: يا عمر .. قد رضوا بالدنيا ورضينا بالآخرة ..

نظر عمر إلى الأرض، وأخذ يفكر لثوان فى أن يسرى على الرسول؛ ليخرجه مما هـو فيـه، ومـا إن لاحت له فكرة حتى نظر إلى الرسول، وهو يقول:

يا رسول الـلـه كنا فى مكة لا تستطيع امرأة أن تراجع رجلًا، فلما جئنا إلى المدينة إذا بالنساء يغلبن الرجال، فتعلمت نساؤنا من نساء الأنصار، فصارت نساؤنا تراجعننا ..

وإذا بمحاولة عمر تنجح، وينظر الرسول إليه مبتسمًا بالفعل، ليلاحقه عمر قائلًا:

يا رسول الـلـه، حتى تتعلم النساء ألا تراجعن الرجال، اخرج الآن فاضرب عنق حفصـة ابنـة عمر ..

فيضحك النبى، فيندفع عمر، وكأنه ينتظر تلك اللحظة سائلًا:

يا رسول الـلـه، أطلقت زوجاتك؟

فينظر رسول الـلـه إلى عمر مبتسمًا، ويقول فى هدوء:

لا .. لا يا عمر ..

ولم يتمالك عمر نفسه ليصيح بأعلى صوته:

الـلـه أكبر .. الـلـه أكبر ..

ويفهم كل من فى المسجد معنى تكبير عمر، فيكبر الجميع ..

الـلـه أكبر .. الـلـه أكبر ..

ويفرح عمر ويطمئن قلبه أخيرًا، فالنبى لم يطلق حفصة بعد، ولم يغضب على آل الخطاب.

وتتراجع حفصة عـن طلباتهـا وتطلعاتهـا، وتكمـل طريقهـا مـع الرسـول، تتحمـل معـه كـما يتحمل، وتصبر كما يصبر حتى جاء الفراق ..

بعد أربع سنوات من مرافقة الحبيب، يطلب الـلـه لقاءه، وتعود حفصة لتـبكى مـن جديـد، كما تبكى المدينة كلها ..

لقد توفى الزوج والرسول ..



ويأتى أبو بكر ليحمل الرسالة والأمانـة، ويتفـق مـع عمـر بـن الخطـاب عـلى أن يبـدآ سـويًّا مشروعًا مهمًّا وخطيرًا .. مشروع جمع القرآن.

ويكتمل المشروع، ويصبح لدى المسلمين مصحف، يحتوى على كل ما أنزل على الرسول طيلة ثلاثة وعشرين عامًا .. دستور كامل للمسلمين فى كتاب واحد.

ويأتى السؤال:

أين نضع النسخة ألاصلية لكلام اللـه؟ أين نضع دستور ومرجع المسلمين؟ أين نضـع المـنهج والنور الذى أنزل من السماء إلى الأرض؟

واتفق الجميع أن يوضع فى بيت رسول اللـه، عند زوجة من زوجات رسول اللـه ..

ولم تكن هذ الزوجة غير تلك الزوجة التى كان يخاف عمـر منهـا أن تكـون سـببًا فى غضـب النبى على آل الخطاب .. عند حفصة بنت عمر بن الخطاب .. أمينة على كتاب اللــه، وحارسـة له إلى أن تموت.

* * *

تمر السنوات تلو السنوات، وتظل السيدة حفصة أم المؤمنين حارسة أمينة على كتاب اللــه، فى حجرتها تتذكر كلام اللـه، وتتذكر الرسول، وتحدثه بينها وبين نفسـها أنهـا باقيـة عـلى عهـده حافظة لأمانته ..

فى كل مرة تدخل حجرتها، ترى رسول اللـه فى كتاب اللـه، تفتح المصـحف ليحـدثها اللــه عن زوجها، ويذكرها بما كان يفعل، ويحكى لها ما دار بينه وبين زوجاته فى هذا البيت.

لم تكن علاقة حفصة بكتاب اللـه علاقة عادية أبدًا، كانت علاقـة خاصـة عميقـة أكـثر مـما يتخيل أحد، فبين يديها، كلام اللـه الذى أنزل على زوجها، وهى مستأمنة عليه.

وتظل حفصة تقرأ وتقرأ، فى عهد أبى بكر وعمر وعثمان وعلى، حتى يطلبها اللــه إلى جـوار زوجها، ويدخل عليها أخوها عبد اللـه بن عمر وهـى عـلى فـراش المـوت، ويرجوهـا والـدموع تترقرق فى عينيه قائلًا:

يا أماه .. أسألك الدعاء، كنت صوامة قوامة .. أسألك الدعاء ..

وتدعو حفصة أم المؤمنين لأخيها عبد الـلـه، وتغمض عينيها بعد أن تسلم روحهـا لبارئهـا فى سنة 45 هجرية، فى عهد معاوية بن أبى سـفيان، وتمشى زوجـات الرسـول فى جنازتهـا، تتقـدمهم عائشة تبكى، وتتذكر وتقول:

كانت ابنة أبيها، حفصة ابنة أبيها، حفصة ابنة أبيها.

رحمك الـلـه يا حفصة، يا أمى، ويا أم المؤمنين ..

رحمك الـلـه يا حارسة القرآن.

* * *

دروس وتحليل

1- من المهم أن يتفهم أولياء الأمور حاجات أبنائهم (عمر بن الخطاب يبحث لابنته عن زوج بعد وفاة زوجها):

كعادة عمر بن الخطاب، كان ذكيًّا وشجاعًا وجريئًا، فهو يتفهم حاجة ابنته للزواج بعد وفاة زوجها خميس بن حذافة السهمى، وتأخر الطلب عليها، مما دفعه للتحرك لخطبة ابنته فى تصرف جرىء، نادرًا ما يفعله أب، إلا أن الأمر يعكس مدى نضج عمر بن الخطاب فى علاقته بأبنائه، وشعوره باحتياجاتهم، وهو أمر مهم لكثير من الآباء، أن يشعروا باحتياجات أبنائهم قبل أن يتحدثوا؛ لأنه ليس كل الأمور سيتم الحديث فيها، وهذا الأمر ليس متعلقًا بموضوع الزواج فقط، فاحتياجات الأبناء كثيرة؛ ما بين الاحتياجات النفسية والعاطفية والعلمية والاجتماعية، وهو ما يستطيع الآباء أن يعرفوه عن طريق القراءة والاطلاع فى مجالات التربية فى مراحل العمر المختلفة، كما أن تفهم حاجات الأبناء فى أمر الزواج، بالتحديد يجعلهم يتنازلون عن التعسف فى الطلبات المادية، بما يعجل ببناء أسرة، تقوم على المودة والرحمة وطاعة اللـه والقيم الخلقية، التى تضمن حياة سعيدة، يكون المال عنصرًا فيها بجانب عناصر أخرى، وليس عنصرًا وحيدًا طاردًا لكل العناصر الأخرى، رحم اللـه عمر بن الخطاب رضي اللـه عنه وأرضاه.

2- كتمان ألأسرار خلق مهم نحتاجه اليوم (أبو بكر الصديق يكتم سر الرسول بأنه ذكر حفصة أمامه):

رغم أن أبا بكر حما الرسول صلى اللـه عليه وسلم ورغم أنه شعر أن الرسول يريد حفصة، لم يشأ أن يذكر ذلك لعمر بن الخطاب حين تحدث معه عن خطبة ابنته حفصة .. إن كتمان الأسرار أمانة، وهو خلق يحتاج إلى صبر وتحكم فى شهوة النفس .. إن من يفشى السر يقوم بذلك؛

كى يشعر بقيمته وتميزه أمام غيره، ولكنه فى المقابل يـؤذى طرفًا آخـر ائتمنـه عـلى سره، وربمـا يحتاج النساء أكثر، إلى الانتباه إلى هذا الأمر.

3- لماذا تزوج النبى حفصة؟:

كان النبى يريد أن يكون شبكة علاقات اجتماعية متينة، تحمى الـدين، وتكـون قـادرة عـلى إبلاغ الرسالة من بعده، وزواجه من حفصة كان لتقريب عمر بن الخطاب منـه، ومـن قبلـه أبى بكر الصديق رضي اللـه عنهما منه إلى أقصى درجة ممكنـة، حيـث يصـبح دخـول البيـت سـهلًا وطبيعيًّا فى أى وقت. فى نفس الوقت الذى يتزوج فيـه عـلى بـن أبى طالـب وعـثمان مـن بنـات الرسول، لينتقل العلم بسلاسة وسهولة على لسان أفضل الصحابة، فيصل الدين إلى العالم صحيحًا مؤتمنًا.

لقد صنع النبى علاقات اجتماعية قوية بينه وبين أربعة من أفضل الصحابة، وهـم أنفسـهم الذين أتوا من بعده.

4- الغيرة أمر طبيعى عند المرأة، على الرجل أن يتفهمها، وعلى المرأة أن تضبطها؛ حتـى لا تكون خطرًا على حياتها الزوجية (عمر بن الخطاب ينصح حفصة ألا تغار من عائشة):

الغيرة غريزة، وضعها اللـه فى الإنسان، لها جانب إيجابى يشحذ النفس، ويزيـد مـن همتهـا، ويجعل صاحبها يصلح من عيوبه، ولها جانب سـلبى، يولـد الحقـد والحسـد، ويثـير المشـكلات، ويعطل الحركة، والمرأة تتميز بغيرتها، وهو أمر فطرى، على الرجل أن يتقبله ويتفهمـه، ويعتـبره دلالة على الحب، ولكـن عـلى المـرأة أن تراعـى أن للغـيرة حـدودًا لا تعطـل بهـا حركـة الرجـل، وتجعله فى حالة ارتباك مستمر، يحد من نجاحه .. التوازن مطلوب، ودائمًا خير الأمور الوسط.

5- أحكام وتشريعات اللـه فى القرآن والسنة أمور مقدسة، لا يمكـن التهـاون فيهـا (اللــه يلوم الرسول على تحريمه العسل على نفسه إرضاء لزوجاته):

لام اللـه سبحانه وتعالى رسوله لأنه حرم على نفسه العسـل، وهـو أمـر عـزم عليـه الرسـول إرضاء لزوجاته، وهنا نتعلم أمرين:

الأول: أنه لا ينبغى أن نرضى الناس بمخالفة أمر من أمور الـلـه، سواء بحل ما حرمـه الـلــه أو بتحريم ما أحله الـلـه، فالاثنان سواء، وهو أمر خارج تصرفنا تمامًـا، **والثـانى:** أن نعـرف قيمـة شرع الـلـه وحكمته وعظمته وقدسيته؛ حتـى نقـدره ونحترمـه، واحـترام شرع الـلــه وتقـديره يكون بتطبيقه على أنفسنا، لا بإهماله والتندر بعظمته.

إن شرع الـلـه هداية لنا وللعالمين، ومن الشقاء أن نحرم أنفسنا والناس منه.

6- الإسلام يحترم المرأة، ويعطيها حق حرية التعبير والنقـاش والاعـتراض (السـيدة حفصـة كان تناقش الرسول فى آية (وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا)[مريم:71]:

ظلمنا ديننا الجميل عندما تصورنا أنه لا يعطى الحق للمرأة فى التعبير والنقاش والاعـتراض، وتصور البعض أن التدين الحق ألا تعترض المرأة ولا تناقش، وبالتالى لا تفكر، ونكون قد حرمناها بالتبعية من نعمة العقل، التى ساوى الـلـه فيها بين الرجل والمرأة دون تمييز، وتزداد المشكلة فى الحياة الزوجية حين تصبح المرأة بلا رأى إطلاقًا، ويعتبر الزوج رأيها أمرا مهملًا، لا يسـتحق عنـاء التفكير فيه، نقول ذلك ونحن نرى السيدة حفصة تناقش الرسول فى تفسير آية، وهو النبى الذى يتلقى الوحى من السـماء، ونـرى أم سـلمة تشـير عـلى الرسـول فى واقعـة الحديبيـة فى موقـف تاريخى، والرسول فى المرة الأولى يحترم حفصة، ويناقشها بكل أريحية وهـدوء، وفى المـرة الثانيـة يأخذ برأى أم سلمة بشكل طبيعى ودون حساسية. إن الإسلام كرم المرأة، واحترم عقلها بمواقـف عملية، نقرأها فى سيرة رسولنا الكريم، فهل نظهر لهذا الدين وجهه الجميل؟!.

7- فلسفة الإسلام فى التعامل تتراوح بين اللين والحزم، فالمسلم ليس بالضعيف ولا بالعنيف (الرسول يتخذ موقفًا حازمًا مع زوجاته):

كان الرسول هو المثـال والنمـوذج والقـدوة فى التعامـل مـع زوجاتـه بالحـب والرحمـة والتسامح والرقة والعطف، وكان مثالًا للعـدل بـين زوجاتـه، بغـض النظـر عـن مكانـة كـل واحدة فى قلبه، ومقدار جمالها أو سنها أو ثقافتها أو علمها، ومع ذلك لم يـتردد الرسـول فى اتخاذ موقف حازم باعتزالهن، عندما طلبن منـه رغـد العـيش وسـعتها، فكـان تخيـيره بـين عيشته وبينه، فحب الرسول لهن لم يمنعه من اتخـاذ موقـف حـازم حتـى يعيـد الأمـور إلى

نصابها، ويعيد الحياة إلى نقطة التوازن، وهى مهارة نحتاج إلى أن نمارسها مع من نحب؛ حتى لا يفسدهم حبنا فيطغى، وأن نفعل ذلك بحساب ودون عنف؛ حتى لا يتحول الأمر إلى عداء.

8- منزلة المرأة وصلت عنان السماء؛ حيث كرم الله حفصة بأن جعل كتابه الكريم محفوظًا عندها (أبو بكر الصديق يأمر بحفظ نسخة القرآن الكريم فى بيت حفصة):

إلى هذا الحد يعتز الإسلام بالمرأة ويقدرها ويحترمها، إلى الحد الذى يختار فيه امرأة (السيدة حفصة بنت عمر)؛ كى تكون حارسة وأمينة على أغلى شىء على أمة الإسلام .. كتاب الله .. القرآن الذى جمعه عمر بن الخطاب وزيد بن ثابت فى عهد أبى بكر الصديق.

إن اختيار امرأة لهذه المهمة الرفيعة، لهو أعظم دليل على عظم المرأة عند الله، وعلى فهم المسلمين الأوائل لمكانتها، ليظل هذا الحدث تاجًا على رأس كل امرأة مسلمة عبر التاريخ، كلما ذكرته اعتزت بمكانتها عند ربها، واعتزت بدينها العظيم الذى أعطاها هذه المكانة.

* * *

زينب بنت خزيمة

أم المساكين

زينب بنت خزيمة
أم المساكين

" هناك من يطلبك للزواج يا زينب "

نطقت بها أم زينب بنت خزيمة لابنتها، وهى تمسك بطفلها الطفيل تداعبه، حيث نظرت إليها زينب وقد بدا عليها الحزن قائلة:

زواج!! الآن؟!

اقتربت منها أمها، قائلة فى حنان:

ولماذا ليس الآن يا بنيتى؟!

قالت زينب:

لم يمر الكثير على وفاة زوجى يا أماه .. قالت الأم:

بل مر الكثير على وفاة زوجك يا بنيتى، وتحتاجين إلى من يقف بجانبك ويرعاك، وأنت ما زلت شابة صغيرة أمامها المستقبل.

نظرت زينب إلى أمها نظرات، بدا منها اقتناعها بكلام أمها، وهنا لاحقتها أمها بلهفة قائلة:

ثم أن من يريد أن يتزوجك ليس بغريب عنك ولا عنا، ولا عن بيت الحارث .. عائلة زوجك.

نظرت زينب إلى أمها نظرة تساؤل، وقبل أن تنطق لاحقتها أمها قائلة:

إنه أبو عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، أخو زوجك، نعرفه ويعرفنا، وسيكون قريبًا من ولدك الطفيل عن أى شخص آخر.

كانت مبررات الأم قوية أمام شابة صغيرة تعدت الثلاثين بقليل، تحتاج إلى من يقف بجانبها؛ مما دفع زينب أن تقبل الزواج من أبى عبيدة.

لم يكن الزوجان قد أسلما بعد، لكن دعوة الرسول كانت قد وصل صداها إلى أسماعهما، وبدآ يفكران فيها سويًّا ويتناقشان حولها، ويقرران سويًّا.

وكان القرار الصعب، سيذهبان إلى رسول اللـه لإعلان إسلامها، ودخولهما فى الدين الجديد.

الآن تصبح زينب صحابية زوجة الصحابى أبو عبيدة بن الحارث، الذى عاهد رسول اللـه على نصرة دينه، والجهاد فى سبيله، والتضحية فى سبيل ذلك بنفسه وماله، ولقد جاء هذا اليوم بسرعة ..

أكثر مما يتصور أبو عبيدة.

* * *

" سأخرج مع رسول اللـه "

نطق بها أبو عبيدة لزوجته زينب، بعد أن قرر الخروج للقتال فى بدر مع رسول اللـه فى أول معركة بين المسلمين والمشركين، وتنظر إليه زينب بعيون حانية، وتدعو له بالنصر، وتساعده فى تجهيز أدواته للمعركة.

الآن يودع أبو عبيدة زينب، ويحمل طفله الصغير، ويقبله على وجنتيه، ثم ينطلق إلى رسول اللـه يستحضر نيته، ويعرف أن اختياره .. النصر أو الشهادة.

وتبدأ المعركة، ليقف الفريقان وجهًا لوجه، وتبدأ المبارزة الأولى حسب تقاليد الحرب فى الجزيرة، فيخرج ثلاثة من الأنصار، فإذا بأحد قادة المشركين يسألهم مستفهمًا:

من أنتم؟

فيجيب أحدهم: نحن من الأنصار.

فيرد القائد:

أكفاء كرام، ولكننا نريد قومنا.

وهنا يتدخل الرسول، ليختار ثلاثة من المهاجرين، قائلًا فى لهجة آمرة:

قم يا على، قم يا حمزة، قم يا أبا عبيدة بن الحارث.

ويتقدم حمزة فيقتل عتبة بن ربيعة، ويقتل على بـن أبى طالـب الوليـد بـن عتبـة، أمـا أبـو عبيدة فقد ضرب شيبة بن ربيعة، فإذا بشيبة يضرب قدم أبى عبيـدة فيقطعهـا، وتنـزف الـدماء منها بغزارة، وعلى الفور يدخل حمزة فيقتل شيبة فى سرعة وخفة، ويحمل أبا عبيدة بعيدًا عـن ساحة القتال.

وهنا يقول الرسول: ائتونى بأبى عبيدة، فيحمله حمزة إليه ..

يجلس النبى صلى اللـه عليه وسلم على الأرض، ويضـع رأس أبى عبيـدة عـلى فخـذه صـلى اللـه عليه وسلم ، وبدأ الرسول يمسح التراب من على وجهه.

وتتطلع عينا أبى عبيدة إلى الرسول قائلًا:

يا رسول اللـه .. أرأيت إن مت، أأنا فى الجنة؟

فقال له النبى صلى اللـه عليه وسلم : نعم يا أبا عبيدة، إن مت فأنت من أهل الجنة.

وبعيون متوسلة، يسأل أبو عبيدة الرسول قائلًا:

هل أنت راض عنى يا رسول اللـه؟

ويبكى النبى صلى اللـه عليه وسلم حتى سقطت الدموع على جسد أبى عبيدة بن الحـارث، ويرفع النبى صلى اللـه عليه وسلم يده، ويقول: " اللـهم إنى أشهدك أنى راض عن أبى عبيدة بن الحارث ".

وتستمر المعركة حتى ينتصر المسلمون، وهنا يغمض أبو عبيدة بن الحـارث عينيـه مطمئنًـا، وتصعد روحه إلى بارئها فرحة إلى الجنة، بعد أن اطمأن إلى نصر المسـلمين، واطمأنـت روحـه أن الرسول راض عنها، ويصل الخبر إلى زينب بنت خزيمة، فتبكى وتنتحـب، وتنظـر إلى ربهـا، تـدعو لزوجها وتسأله الثبات والصبر.

وتعود زينب وحيدة مرة أخرى، تجلس تتذكر أيام زوجها، وتشكو لربها أيامها الصعبة.

لكن رحمة اللـه بها كانت واسعة، فلم تدم أيامها الصعبة طويلًا، وسيكتب اللـه لها زوجًا ستحسدها عليه الأرض كلها.

* * *

وكأن ابتسامة أبى عبيدة للرسول قبل وفاته بمثابة توصية غير مباشرة على أهلـه، وكأنـه كـان تكريمًا لأبى عبيدة ولزينب بنت خزيمة، أن تصبح بعد قليل من فقدانها زوجهـا، زوجـة للرسـول صلى اللـه عليه وسلم وأمًّا للمؤمنين، ويصبح اسمها ملء السمع والبصر، يذكرها الناس إلى يـوم القيامة.

وتبدأ زينب حياة جديدة بكل معنى الكلمـة، حيـاة زوجـة صـاحب رسـالة عظيمـة، تعينـه عليها، وتكافح معه من أجلها .. وهى فى كفاحها مـع زوجهـا لا تـنس أبـدًا الفقـراء والمحتـاجين، فكانت تنفق عليهم بشدة، حتى عرفت بأم المساكين.

لكن قضى اللـه ألا تستمر أم المساكين وأم المؤمنين فى بيـت الرسـول إلا عامًـا واحـدًا فقـط، فلقد اختارها اللـه إلى جواره فى العام الثالث من الهجرة، ليدفنها النبـى فى البقيـع، وهـى ابنـة خمس وثلاثين سنة.

وداعًا يا زينب .. وداعًا يا أمى .. يا مسكينة، ويا أم المساكين.

* * *

تحليل ودروس

1- سبب زواج الرسول من السيدة زينب بنت خزيمة:

كان زواج الرسول من السيدة زينب بنت خزيمة رحمة بها، وإعانة لها على الحياة بعد استشهاد زوجها أبى عبيدة بن الحارث فى غزوة بدر، خصوصًا أن لديها طفلًا صغيرًا، واتخاذ قرار بالزواج من أرملة وكبيرة فى السن بمقايس الجزيرة العربية (34 عامًا) ولديها طفل، قرار فى منتهى الصعوبة لرجل يريد الزواج لأسباب الزواج الطبيعية، بينما كان قرار الرسول بالزواج من أمنا زينب لأسباب دعوية، تتعلق برعاية أسرة شهيد ومجاهد، ضحى بنفسه بكل شجاعة فى سبيل الله ونصرة دينه.

2- كان قصر مدة زواج السيدة زينب بنت خزيمة من الرسول أمرًا لافتًا للنظر، فى إشارة إلى أن الهدف كان تكريمًا للسيدة زينب (فترة زواج السيدة زينب بنت خزيمة كانت سنة تقريبًا، ثم توفيت بعدها):

عام واحد تقريبًا، كانت فترة زواج السيدة زينب بنت خزيمة من الرسول، حيث توفيت فى السنة الثالثة من الهجرة، وربما كان قصر المدة تكريمًا لأمنا السيدة زينب؛ كى تكون أمًّا للمؤمنين .. نحبها جميعًا، ونذكرها على مر التاريخ.

3- **العطاء نعمة يشعر صاحبها بالسعادة والراحة (كانت السيدة زينب تنفق كثيراً على المساكين حتى عرفت بأم المساكين):**

من تعودوا على إعطاء الصدقات وتقديم المساعدات للمحتاجين، يعرفون جيدًا أن العطاء نعمة تشعرهم براحة وسعادة من نوع خاص، تلك السعادة والراحة هى منحة ونعمة من الله، يعطيها لهم جزاء ما يفعلونه، وأن الله ينعم على هؤلاء العطائين، ويمنحهم شعورًا لا يصل إليه كثير من الأغنياء الممسكين.

4- ليس شرطًا أن يكون المتصدق غنيًّا، بل قد يكون فقيرًا أيضًا (السيدة زينب بنت خزيمة تتصدق كثيرًا على المساكين حتى تعرف بأم المساكين):

التصدق سلوك وفعل خير، يمكن أن يفعله الغنى والفقير؛ ذلك أن الصدقة لا تشترط مبلغًا معينًا، ولكنها تشترط فقط نية خالصة لله، وإذا كان الغنى من السهل عليه إخراج الصدقة؛ نظرًا لغناه، فمن الممكن أن يتصدق الفقير أيضًا بالقليل من ماله؛ ليساعد به من استطاع، وسيكون ثواب الفقير أضعافًا؛ لأن قرار الصدقة لديه أصعب، وحسابات الإنفاق عنده أكثر تعقيدًا، لكن مكافأة اللـه له إن لم تكن فى الدنيا، فستكون فى الآخرة، أو فى الاثنين معًا.

* * *

أم سلمة

العاقلة

أم سلمة
العاقلة

" إنها الهجرة .. الهجرة يا هند "

هتف بها زوج هند بنت أمية لها، وهو يجلس على أريكته فى المنزل، ثم أخذ يتابع:

الوضع فى مكة لم يعد يحتمل، والرسول أمر بالهجرة إلى الحبشة.

هتفت هند بنت أبي أمية بالموافقة؛ تلبية لأمر الرسول، وبدآ يعدا العدة معًا للهجرة إلى الحبشة فى السنة الخامسة من البعثة.

وهاجرت هند مع زوجها إلى الحبشة، ليصبح بيتها هو ثانى بيت يهاجر إليها بعد بيت عثمان بن عثمان مع زوجته رقية.

كانت هند لا زالت فى شهور حملها، وكانت الحبشة هى البلد التى أذن الله لها أن تستقبل أول مولد لهند وزوجها .. سلمة ..

عمت الفرحة المنزل بأول مولود، أعقبتها فرحة أخرى عبر خبر طار بسرعة البرق، قادمًا من مكة ..

لقد أسلمت قريش ..

هكذا كان الخبر الذى جعل قلبى أم سلمة وأبيه يخفقان من الفرحة، ويتخذان بعده قرارهما بالعودة إلى مكة.

وبدأت رحلة العودة، وهما يتحدثان فى الطريق عن أحلامهما فى مكة بعد انتهاء المحنة، وتوقف أذى قريش للمسلمين، والعيش فى أجواء الحرية والاستقرار.

ونزل الاثنان، ومعهما ابنهما أرض مكة، وبدأت ملامح أم سلمة وأبيه تتغير شيئًا فشيئًا، فمشاهد التعذيب مستمرة، وأجواء القهر والظلم كما هى، والكلمات المسمومة تتناقل عبر هواء مكة.



لم يتغير شىء إذن، ولم يكن الخبر غير إشاعة كاذبة.

إلا أن الزوجان قررا هذه المرة أن يستمرا فى مكة، رغم ما فى الأمر من عناء ومشقة.

وتستمر المحن، ففى السنة السابعة من البعثة تفرض قريش على المسلمين حصارًا اقتصاديًّا واجتماعيًّا رهيبًا، ويدخل الزوجان مع ابنهما سلمة شعب أبى طالب، ليتحملوا مع المسلمين ما لا يتحمله بشر طيلة ثلاث سنوات كاملة، إلى أن كتب الله لهم الفرج بفك الحصار، ليصدم الجميع بعدها بوفاة السيدة خديجة وأبى طالب عم الرسول فى عام واحد.

يأخذ الزوجان نصيبهما من ألم الرحلة ومشقة الرسالة، ويومًا بعد يوم يكبر الابن ويزيد إدراكه للحياة ومصاعبها من حوله، حتى يأذن الله لرسوله بالهجرة إلى المدينة .. ويعزم الزوجان على هجرتهما الثانية إلى المدينة، وتسير أم سلمة تصحب ابنها فى صحبة زوجها فى اتجاه المدينة. إلا أنه قبل الخروج من مكة، حدث ما لم تكن تتوقعه .. أبدًا.

* * *

" أين تذهب يا أبا سلمة "

قالها فى تحد واضح أبو هند، بعد أن وقف مع عدد من أهله أمامها مع زوجها وابنهما الذى لم يكمل بعد عامه التاسع، لتحتضن أم سلمة ابنها فى خوف، بينما يرد أبو سلمة فى ثقة:

نهاجر إلى المدينة، إلى جوار رسول الله ..

قال أبو هند وهو يفصل بيده بينه وبين زوجته وولده:

يا أبا سلمة غلبتنا على نفسك، أما هذه فلن تأخذها معك، والله لا نتركها معك..

تغيرت ملامح أبى سلمة، وصاح فى دهشة:

ماذا تقصد يا أبا هند؟

قال أبو هند وهو يرفع سبابته فى وجه أبى سلمة:

إذا أردت الهجرة، فهاجر وحدك يا أبا سلمة، ولا شأن لك بابنتنا وابنها.

وعبثًا حاول أبو سلمة أن يعترض، لكن أهل زوجته كانوا قد أقروا أمرًا لا رجعة فيه.

كان الصراع عند أبى سلمة قويًّا بين نداء رسول اللـه ونـداء دينـه الـذى يريـد نصرتـه، وبـين زوجته وابنه الصغير، كان الألم شديدًا والاختيار صـعبًا، لكنـه اختـار رسـول اللـــه وديـن رسـول اللـه.

احتضن الأب ولده فى عنف، وترقرت الـدموع فى عينـه وعـين زوجتـه لحظـة الفـراق، وشـق طريقه فى الصحراء إلى المدينة، ونظر زوجته وابنه معلقان به، وهو يتباعد عنهما وهما يتباعدان عنه.

لكن يبدو أن الثمن لم يدفع كاملا بعد، فلقد فوجئت أم سلمة بأهل زوجها يطلبون منها أن تترك ولدها لهم، وهنا احتضنت أم سلمة ولدها بعنف وتراجعت بعيـدًا عـنهما وهـى تقـول فى غضب:

ماذا تقولون؟ لن أترك ولدى لكم أبدًا ..

إلا أن ملامح الخوف والذهول عند أم سلمة لم تشفع لها عند أهلها، فى اللحظة التـى انـدفع فيها أهل زوجها يطلبون أن تسلم الولد إليهم.

وازداد فزع الأم التى حرمت من زوجها، وترى من حولها يريدون أن يحرموها من ابنها.

وازداد الأمر سوءًا؛ فلقد اندفع الطرفان فى وحشية، ليمسك كل طرف بأحـد ذراعـى الطفـل، ووقفت الأم فى ذهول لا تصدق ما تراه، ولا تدرى ماذا تفعل، فى الوقت الذى اشتد الجذب مـن الطرفين، وصراخ الطفل يزيد ويزيد.

وفجأة توقف الجميع فى ذهول، وخيم الصمت على الجميع ..

لقد انفصلت ذراعا الطفل عن جسده، وتناثرت الدماء فى الهواء وسقطت على الرمال، وهى تشهد على قسوة الأهل ووحشيتهم.

وقفت أم سلمة فى ذهول، وكأنها فى كابوس لا تصدق ما تراه، وهى تنظر إلى ابنها يتلوى من الألم .. وصرخاته تصل إلى عنان السماء.

* * *

العائلة كلها تدفع ثمن إسلامها

الأب يهاجر وحيدًا إلى المدينة، وقلبه ينفطر على زوجته وولده، والطفل الصغير يحرم من عطف أبيه ورعايته، ثم تقطع يداه بلا ذنب، أما الأم فتحرم من زوجها، ثم تفجع فى ابنها مرتين؛ مرة لقطع يده، ومرة لإصرار أهلها على بقائه لديهم بعيدًا عنه .. وليس لأم سلمة إلا الصبر والدعاء والبكاء.

عام كامل، وأم سلمة صابرة متوسلة إلى ربها مبتهلة، تذهب كثيرًا إلى آخر مكان رأت فيه زوجها وابنها، وتبكى وتبتهل إلى الله وتصبر.

إلى أن أمر الله لها بأن ينفرج كربها ..

" من أنت يا امرأة "

هتف بها رجل مر على أم سلمة، وهى تبكى فى نفس المكان الذى فقدت فيه زوجها وابنها، لترفع هى إليه وجهها، وقد غطته الدموع وهى تقول فى أسى:

" أنا امرأة ظلمها قومها وأهلها .. فقدت زوجها وابنها فى يوم واحد، ولم يقف بجانبها أحد " ..

نطر إليها الرجل فى شفقة، ثم سألها:

ابنة من أنت؟

قالت أم سلمة:

أنا ابنة ذات الركب ..

أخذت أم سلمة تحكى، بينما تظهر الدهشة على وجه الرجل مع كل كلمة تقولها، ثم قال وقد كسا الغضب ملامح وجهه:

ابنة ذات الركب، الرجل الكريم الذى لا يخرج أحد معه مسافرا إلا وأطعمه، ابنته تظلم هكذا؟

همست أم سلمة فى حزن قائلة:

نعم ..



قال الرجل فى تحفز وإصرار:

والـلـه ما ينبغى لابنة ذات الركب أن يحدث لها هذا ..

ثم اندفع بعدها إلى أهل أم سلمة يحدثهم ويطلب حقها ويستنصر لهـا، ولا زال يحـاورهم ويتفاوض معهم حتى وافقوا على أن يعود ابنها إليها، وأن تهاجر إلى زوجها.

أخيرًا وبعد عام كامل استجاب الـلـه الـدعاء، وكافأهـا الـلــه عـلى صـبرها، أخـيرًا أخـذت أم سلمة ابنها فى حضنها، وترتد إليها روحها، وتنظر بنظرها فى الأفـق البعيـد، عازمـة عـلى الرحيـل والهجرة إلى زوجها، وإلى رسولها .. إلى المدينة.

خرجت أم سلمة مع ابنها تحمل متاعها وحدها .. لا أحد معها، أمامها طريـق طويـل طولـه خمسمائة كيلو مترًا دون راحلة، لا تعرف كيف ستصل إلى نهايته، وكيـف تتحمـل هـى وولـدها مشقة الطريق الطويل، لكنها كانت تعرف شيئًا واحدًا ومؤكدًا وتوقن به .. أن الـلــه معهـا، لـن يتركها ولن يخذلها.

تسير أم سلمة على قدميها متحملة صابرة، لكن صبرها لم يطل هذ المرة، فبمجرد أن وصـلت التنعيم، قابلها عثمان بن طلحة، فسألها متعجبًا:

إلى أين تذهبين يا أم سلمة؟

قالت أم سلمة وقد بدا عليها الإرهاق:

أهاجر إلى المدينة، ألحق بزوجى هناك.

رد عثمان فى دهشة، وقد هاله ما رآه:

ابنة ذات الركب الذى يطعم الجميع، تسير من مكة إلى المدينة دون دابـة، لا يرافقهـا أحـد، ثم تابع فى إصرار:

والـلـه ما ينبغى لك أن تخرجى وحدك.

ثم أناخ ناقته لتركب أم سلمة مع ابنها، وبمنتهى الشهامة يسير طيلـة خمسـمائة كيلـو مـترًا، دون أن ينظر إليها، فإذا أراد أن يستريح يذهب بعيدًا عنها لتتصرف هى كما تشاء حتى وصلت الناقة إلى مشارف قباء، فقال لها وقد بدا عليه الإرهاق وهو يشير بيده:

يا أم سلمة ..أليس زوجك هنا فى هذ القرية؟

قالت أم سلمة:

نعم ..

وهنا دفع عثمان بن طلحة الناقة لتنطلق داخل المدينة، بينما استدار هو ليعود فى اتجاه مكة سيرًا على الأقدام، بعد أن ترك ناقته لأم سلمة وزوجها.

لم يكن عثمان قد أسلم بعد، لكن أخلاق الرجال كانت لديه، أخلاق جعلته يساند امرأة فى محنتها، دون أى إشارة لنية استغلال أو قبض ثمن، وأكمل أخلاقه الرائعة بأن ترك ناقته تكمل بها الطريق؛ ليعود هو ماشيًا كل هذه المسافة، حتى قالت عنه أم سلمة:

والله ما رأيت فى العرب أكرم من عثمان بن طلحة.

وتدخل أم سلمة المدينة باحثة عن زوجها بكل شوق ولهفة، لتجده فى النهاية ويكتمل حلمها بلقاء زوجها، ويدخل الجميع منزلهم الصغير لينظر بعضهم إلى بعض، وهم لا يكادون يصدقون أن الله قد كتب لأسرتهم الصغيرة أن يلم شملها من جديد، وبدأت السعادة الغائبة منذ عام، تسرى فى روح الأسرة من جديد، وتوالى الأبناء ليضيفوا إلى فرحة البيت أفراحًا وأفراحًا، لكن الأيام كانت تحمل ما يوقف هذه الأفراح بحدث كبير.. وأليم.

* * *

لم يكن أبو سلمة صحابيًّا عاديًّا بالنسبة للرسول، فلقد كان أخوه فى الرضاعة، وهى صفة قربت أبا سلمة من الرسول كثيرًا، وزادت حبه فى قلبه.

كان طبيعيًّا أن يشارك أبو سلمة فى غزوة بدر، ويفرح بنصر الله مع المسلمين، إلا أن مشاركته فى غزوة أحد حملت ألمين كبيرين، الأول هو هزيمة المسلمين بعد النصر، والثانى هو ألم جسدى من أثر جروح عميقة أصابته فى المعركة.

كان الرسول يمرضه بنفسه، يجلس بجانبه، ويمسح من على جبينه العرق، إلا أن آلام المرض كانت تشتد عليه يومًا بعد يوم، حتى شعر أبو سلمة، أن هذه الآلام لن تنتهى إلا

بنهايته، وهنا رفع أبو سلمة عينيه إلى السماء، وهو يدعو اللـه بكل ما أوتى من إخلاص قائلًا:

" اللـهم اخلفنى فى أهلى خيرًا "..

وأغمض أبو سلمة عينيه، وخفت آلام جراحه تمامًا .. وإلى الأبد .. فلقد مات أبو سلمة.

وعادت أم سلمة وحيدة من جديد، تنظر إلى أبنائها الصغار وتحتضنهم وتبكى، وتدعو إلى اللـه وتبتهل وتبكى .. وتصبر من جديد ..

وكالعادة، تصبر أم سلمة، فيكافئها اللـه على صبرها، إلا أن المكافأة هذه المرة كانت أسرع مما توقعت، وأفضل مما توقعت .. أو توقع الجميع.

* * *

" يا أم سلمه إن العبد إذا أصيب بمصيبة، فقال إنا لله وإنا إليه راجعون، اللـهم أجرنى فى مصيبتى واخلفنى خيرًا منها، فلابد أن يخلفه اللـه خيرًا منها ".

نطق بها رسول اللـه لأم سلمة، بعد أن ذهب إليها يواسيها، ويشد من أزرها، لتنظر إليه أم سلمة فى حزن.

إلا أن كلمات الدعاء الذى كانت تسمعه لأول مرة، ظلت ترن فى أذنيها تحتاج إلى تفسير أوضح .. " واخلفنى خيرًا منها ".

كيف يخلفنى اللـه خيرًا من أبى سلمة، من رجل شهد بدرًا وأحدًا، ومات شهيدًا فى سبيل اللـه؟!

هل سيعوضنى اللـه حقًّا؟ هل سيأتى إلى من يحمل عنى هم الأبناء، ويؤنس وحدتى ويشاركنى هموم الحياة؟

هكذا كانت تقول أم سلمة لنفسها كثيرًا، هكذا كانت الأفكار تدور فى رأسها كلما أراحت جسدها من يومها الشاق مع أبنائها، تحاول أن تصل إلى إجابة.

وكانت الإجابة تقترب بالفعل ..



كان يحملها هذ المرة عمر بن الخطاب، عندما ذهب إليها ليقول لها مبشرًا ومفاجئًا:

يا أم سلمة .. إن رسول اللـه يريد أن يتزوجك؟

نظرت أم سلمة إلى عمر فجأة، وكأنها لا تصدق أذنيها قائلة، وهو تفكر بصوت عال، متسائلة:

يتزوجنى .. أنا؟

ورغم المفاجأة، ورغم موقف أم سلمة الصعب وظروفها القاسية، إلا أن عقل أم سلمة كان راجحًا إلى الدرجة التى أدهشت عمر نفسه، حيث أرسلت له تقول:

يا عمر .. قل لرسول اللـه إن هذا الأمر لا يصلح؛ إنى امرأة مسنة، وإنى امرأة مصبية، وإنى امرأة غيرى.

لا شك أن مشاعر الاحتياج والألم عند أم سلمة كانت جارفة، لكن قوة العقل لديها حجمت مشاعرها، وجعلتها تشفق على الرسول من عبء كبير تريد أن تخففه عنه.

وينقل عمر بن الخطاب إلى الرسول الرسالة، ليرد الرسول فى رحمة:

يا عمر عد وقل لها: إن كنت مسنة فأنا أسن منك، وإن كنت مصبية فعيالك عيالى، وأبوهم أخى، وإن كنت غيرى، فسأدعو اللـه أن يذهب عنك هذه الغيرة.

وفى شهر شوال فى السنة الرابعة من الهجرة، تزوجت أم سلمة من الرسول، لتصبح الأم الخامسة للمؤمنين، وتدخل على بيت فيه سودة بنت زمعة وعائشة بنت أبى بكر وحفصة بنت عمر.

ويحتضن النبى أبناء أم سلمة، ويحنو عليهم كأبناء له، يحبهم ويعطف عليهم ويداعبهم.

يرى النبى زينب الصغيرة فى أحضان أمها كثيراً متعلقة بها، فيقترب منها ويداعبها، ويسأل عنها كل مرة مدللًا لها، وهو يبتسم:

" كيف حال زناب؟ "

وتضحك أم سلمة، وتحمد الـلـه على حنان زوج عوضها به عن أب لم يمهله القدر مع أولاده إلا القليل، وتقول وقلبها فرح:

بخير يا رسول الـلـه.

ويتوضأ النبى فيداعب زينب وينضح الماء على وجهها فتضحك زينب، وتحل على وجهها بركة النبى، فيظل وجهها نضرًا لم يصبه عجز إلى أن ماتت.

ترى أم سلمة مواقف الرسول معها ومع أولادها، وترن الجملة فى أذنها مرات ومرات..

" واخلفنى خيرًا منها ".

لقد أخلفها الـلـه خيرًا لم تكن تتوقعه أو تحلم به، وكان حقًّا عليها أن تشكر الـلـه على ما منحها من نعمة.

تصلى أم سلمة الفجر، ثم تجلس لتمسك مجموعة من الحصى فى يديها فتسبح بعدد الحصى، ثم ينتهى الحصى، فتعيد التسبيح مرة أخرى وأخرى، ويخرج الرسول ويعود إليها بعد ساعة يجدها على حالها لازالت تسبح الـلـه بخشوع، إلى أن تشرق الشمس.

وينظر إليها الرسول باسمًا، وهو يقول لها:

أما أنا، فقلت أربع كلمات ثلاث مرات بمقدار ما قلته أنت كله .. سبحان الـلـه وبحمده؛ عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه ومداد كلماته.

* * *

رقيقة أم سلمة، ورحيمة، تحب الخير للناس وتفرح لفرحهم ..

كما فرحت لأبى لبابة ..

وأبو لبابة صحابى أخطأ خطأ جسيمًا، فلقد ائتمنه الرسول على سر خطير، هو أن جزاء اليهود جراء خيانتهم هو القتل، وكان لأبى لبابة علاقة مودة مع اليهود قبل إسلامه،

فعندما سأله اليهود عن تصرف الرسول معهم، أفشى السر، وأشار إليهم إشارة يفهم منها القتل.

وبعدها شعر أبـو لبابـة بالنـدم الشـديد، فـذهب إلى المسـجد النبـوى وربـط نفسـه بأحـد أعمدته، وقال: والـلـه لا أفك نفسى حتى يفكنى رسول الـلـه.

ويصل الأمر للنبى فيقول:

" أما والـلـه لو كان أتانى فاستغفر فاستغفرت له، أما وقد فعـل مـا فعـل فوالـلــه لا أفكـه حتى يتوب الـلـه عليه ".

وظل أبو لبابة على هذه الحال ستة أيام، تفكـه ابنتـه للصـلاة، ويأكـل ويـقضى حاجتـه، ثـم يربط نفسه ثانية .

إلى أن جاء اليوم الذى عفا الـلـه عن أبى لبابة بآية من السماء، تنزل على رسول الـلــه، وهـو يجلس فى بيت أم سلمة قبل صلاة الفجر:

(وَآخَرُونَ اعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُواْ عَمَلاً صَالِحًا وَآخَرَ سَـيِّئًا عَسَى الـلــهُ أَن يَتُـوبَ عَلَـيْهِمْ إِنَّ الـلـهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ {102/9})[التوبة] .

وبمجرد أن سمعت أم سلمة الآية تهللت فرحًا، وقالت لرسول الـلـه فى لهفة:

يا رسول الـلـه .. دعنى أبشره ..

رد رسول الـلـه باسمًا:

نعم يا أم سلمة .. بشريه.

كانت أم سلمة تتحدث كأم تتألم لابن لها أخطأ، وندم على خطئه، وظل يعاقب نفسه حتـى يأتيه العفو من رسول الـلـه، فإذا بالعفو يأتيه من رب السماء، فجاءت من وراء ستار فى منزلهـا، لتنادى بأعلى صوتها، وهى فرحة داخل المسجد النبوى:

يا أبا لبابة .. تاب الـلـه عليك.

ويفرح كل من بالمسجد، ويجرون عليه فرحًا فيفاجئهم أبو لبابة بالرفض، ويقول لهم:

لا والـلـه دعونى، والـلـه لا يفكنى إلا رسول الـلـه صـلى الـلــه عليـه وسـلم .. فخـرج النبـى صلى الـلـه عليه وسلم وفك الحبل.

وتفرح أم سلمة كأشد ما يكون الفرح، فرحة أم رضى الـلـه ورسوله أخيرًا عن ابنها.

عطوفة أم سلمة، إنها صفة جديدة تضاف إلى صبرها .. أما رجاحة عقلها، فتجلـت أكـثر مـا تجلت فى موقف عظيم .. وخطير.

* * *

" ما لك يا رسول الـلـه ؟"

قالتها أم سلمة منزعجة بعد أن وجدت الرسول قد دخل عليها مهمومًا غاضبًا، فإذا بالرسول لا يرد، فتكررها أم سلمة مرات، فينظر إليها الرسول قائلًا فى هم:

" هلك المسلمون ".

كان المسلمون قد خرجوا من المدينة كى يحجوا إلى بيت الـلـه فى مكة فى السنة السادسة من الهجرة، حتى وصلوا إلى منطقة الحديبية، وهنا منعتهم قريش مـن الـدخول، ليعقـد المسـلمون اتفاقًا سمى بصلح الحديبية، كان من شروطه ألا يحج المسلمون لبيت الـلـه هذا العام، عـلى أن يحجوا فى العام القادم، ليطلب الرسول من المسلمين أن يذبحوا الهدى وأن يحلوا إحرامهم.

وهنا غضب المسلمون، ووقفوا غير مستجيبين لأمر رسول الـلـه!!

ويقف الرسول غاضبًا مندهشًا، ويدخل على أم سلمة منفعلًا، لتسـأله أم سـلمة، لـيرد عليهـا مهمومًا حزينًا.

هلك المسلمون .. أمرتهم أن ينحروا ويحلقوا فلم يفعلوا.

كانت عادة الرسول أن تصحبه إحدى زوجاته فى غزواته، وكان لخروج أم سلمة معه فى هذه المرة فائدة عظمى، حيث حكى لها ما حدث، فإذا بها تتجلى حكمتها فى رأى أشـارت بـه لرسـول الـلـه، قائلة:

يا رسول الـلـه، لا تلمهم فإن فى داخلهم أمرًا عظيمًا؛ مما أدخلت من المشقة فى أمـر الصـلح ورجوعهم بغير فتح، يا نبى الـلـه، اخرج ولا تكلم أحدا منهم، وانحر هديك واحلق رأسك.

ويستجيب الرسول العظيم لرأى زوجته فى حدث نادر وخطير، فيخرج على المسلمين دون كلام، وينحر هديه ويحلق رأسه، فإذا بالصحابة ينظرون إليه ويبدءون فى النحر والحلق واحدًا تلو الآخر، وازداد الحماس حتى قالوا: حتى كدنا أن نقطع رءوس بعضنا البعض .. وتنتهى الأزمة.

لقد علم الصبر أم سلمة أن تكون عاقلة ..

بعقلها وحكمتها منعت تفاقم أزمة كبيرة، كان من الممكن أن تشق الصف المسلم، وتفتح على المسلمين أبواب الهزيمة وهم على أبواب النصر.

لعل أم سلمة تذكرت الموقف، بعد عامين فى السنة الثامنة من الهجرة، عندما أتى النصر المبين بفتح مكة، ولعل الرسول ذكرها بما أشارت عليه وقتها.

وتستمر أم سلمة مع الرسول، زوجة مكافحة تساعد زوجها فى حمل الرسالة، وتراه ينتقل من نصر إلى نصر، تفرح وهى تجد أحلامه تتحقق فى نشر الإسلام، لكنها لم تكن تعلم أن قرب تحقيق الحلم يعنى قرب النهاية.

فلقد أتت لحظة الفراق، ومات الرسول والزوج.

لم تسع الدنيا أم سلمة حزنًا، وهى تحتضن أبناءها وتبكى، وهى تتذكر كيف كان حنانه وعطفه عليهم.

وتكمل أم سلمة الطريق وحدها، تربى أبناءها، وتعيش فى مودة مع زوجات الرسول، حتى خلافة على بن أبى طالب، وحتى يقع الخلاف بينه وبين معاوية بن أبى سفيان، فتقول لابنها:

اذهب والزم على بن أبى طالب ولا تتركه، وإنى لأرجو أن تموت معه شهيدًا..

كتب على أم سلمة أن تعيش حتى ترحل عنها زوجات الرسول واحدة تلو الأخرى، وتظل هى وحيدة مسنة تستأنس بذكر الله، وتحتمى بعقلها وتتقوى بصبرها، حتى جاءها الخبر الذى لم تستطع أن تقوى عليه .. فقلد قتل الحسين بن على ..

كان الخبر أقوى من أن يتحمله جسد أم سلمة .. فخارت قواها، وأغمضت أم سلمة عينيهـا، لتصعد روحها إلى بارئها، لتلتقى بزوجها ونبيها، ويعيدا معا الذكريات من جديد.

رحمك اللـه يا أمى .. يا من قال فيك الفاروق عمر: لم أر عقلًا كعقل أم سلمة.

رحمك اللـه .. وأعطانا شيئًا من صبرك وحكمتك.

* * *



تحليل ودروس

1- التناغم والاتفاق والتفاهم بين أفراد الأسرة الواحدة، يجعل منها أسرة فريدة (أسرة أم سلمة كانت جميعها مسلمة):

كانت أسرة أم مسلمة هى أول أسرة تسلم جميعها بعد أسرة الرسول صلى الله عليه وسلم وعندما يتفق الزوج والزوجة والأبناء على هدف واحد وفكر واحد، يحدث بينهم تناغم وتوافق يؤدى إلى سعادة الأسرة، وزيادة قدرة الأسرة على التحمل فى الظروف الصعبة، وهذا ما حدث مع أم مسلمة، حيث عزمت الأسرة كلها على الهجرة إلى المدينة، وعندما واجهتهم المصاعب ووقف أهل أم مسلمة فى طريقهم وأوذى ابنهم، لم يتراجعوا، وصبروا وتحملوا فى سبيل الله؛ لأن توافقهم فى العقيدة والفكرة وتفاهمهم، أعطاهم قوة يواجهون بها الأذى، حتى أنعم الله عليهم بالهجرة إلى المدينة.

إن الحوار بين أفراد الأسرة الواحدة يزيد من تناغمها ويقوى العاطفة بينهم، خصوصًا إذا كانت تظلهم جميعًا مظلة الإيمان بالله.

2- صدق الإيمان بالله وحب الرسول يعنى بالتبعية التضحية من أجل الله ورسوله (أبو سلمة يصر على الهجرة رغم فراقه لزوجته وابنه):

كان من الممكن أن يعود أبو سلمة فى قراره بالهجرة، بعدما وقف أهل زوجته فى طريقه، مشترطين عليه أن يترك زوجته وابنه إذا ما أصر على قراره، وكان من الطبيعى أن تناديه زوجته أم سلمة، وتتوسل إليه أن يعدلوا جميعًا عن قرارهم على الأقل الآن؛ حتى لا تتفرق الأسرة ويتشتت شملها، لكن ما حدث أنه لم يعرف عن أبى سلمه أنه فكر فى التراجع، ولم يعرف عن أم سلمة أنها حاولت حتى التأثير على زوجها بعدم الهجرة.

كانت القضية واضحة لكليهما، نصرة الرسول وحبه يحتاج بالضرورة إلى تضحية وصبر وتحمل للإيذاء، حتى وإن كان الإيذاء قد وصل إلى ابن عمره عشر سنوات، أو حكم مؤقت بالبعاد والفرقة والوحدة عن الزوج والأب والعائل.

كانت المعادلة لدى هذا الجيل الأول واضحة ومفهومة وبديهية، لا تحتاج إلى نقاش، ولكنها تحتاج منا أن نتأملها ونطبقها فى حياتنا؛ حتى نكون على استعداد لأن نضحى من أموالنا وأوقاتنا، ونتحمل الإيذاء، إذا ما قررنا أن نحب الله ورسوله، ونطبق فى حياتنا ما يأمرنا به.

3- عاطفة المرأة الإيمانية تدفعها إلى تحقيق إنجازات تبهر الجميع وتسبق بها الرجل (أم سلمة تقرر الهجرة إلى مكة سيراً على الأقدام):

برغم حجم المعاناة التى عانتها أم سلمة، وحجم الإيذاء النفسى الذى عاشته لمدة عام كامل، تقرر أم سلمة الهجرة إلى المدينة، رغم عدم توفر دابة للهجرة بها، وبرغم ذلك تصر على الهجرة مع ابنها سيرًا على الأقدام، لمسافة خمسمائة كيلو مترًا، لتصبح بذلك أم سلمة أول من يهاجر إلى مكة سيرًا على الإقدام، وهى بذلك لا تسبق النساء فقط، بل تسبق الرجال أيضًا، فى إنجاز مبهر، يدل على حرارة الإخلاص وقوة الإيمان ومدى حب الله ورسوله، ويقف بجانبها الله بما فعلت؛ لييسر لها عثمان بن طلحة فى طريقها، ويعطيها دابته وتكمل بها هجرتها إلى المدينة.

إن عاطفة المرأة الإيمانية كفيلة بأن تمكن المرأة من تحقيق إنجازات مبهرة، إذا ما توافرت لديها الإرادة، وسنحت لها الفرصة لذلك.

4- بعض الشباب يحتاج إلى أن يعود إلى أخلاق الجاهلية فى تعامله مع الفتيات (عثمان بن طلحة يساعد أم سلمة بكل شهامة وكرم، وهو على الكفر):

بعض الشباب وصل إلى درجة عالية من التدنى الأخلاقى فى التعامل مع الفتيات، ولم نعد نتحدث الآن عن المعاكسات، بل تطور الأمر إلى ظاهرة التحرش الجنسى العلنى فى الشوارع، وبخاصة فى أوقات الأعياد، حتى وإن كان هذا العيد بعد يوم واحد فقط من انتهاء شهر رمضان المبارك، ويصل هذا التدنى الأخلاقى إلى مداه، فى مساعدة الفتيات، ليس من قبيل الشهامة ومساعدة المحتاج، بل من أجل التقرب إليها، أو إقامة علاقة معها، أو أشياء لم ترق إلى المساعدة لوجه الله، أو من قبيل الخلق الرفيع الذى ضرب به المثل رجل لم يكن على الإسلام، مثل عثمان بن طلحة.



إن إهمال التربية الدينية وغياب القدوة وعدم الاهتمام بالأخلاق فى المدارس والبيوت، وصل بنا إلى أننا نحتاج إلى بعض أخلاق الجاهلية، قبل أن نطمح فى أخلاق الإسلام.

5- القدرة على الصبر نعمة تمكننا من اجتياز مشكلات ومحن صعبة (أم سلمة تصبر عامًا وهى بعيدة عن زوجها حتى يفرج الله كربها، وتهاجر إلى المدينة):

كثير من الأمهات والنساء يتعرضن لمشكلات ومحن مؤلمة، تشغل فكرهن، وتسبب لهن الحزن الشديد، وربما من هذه المشكلات ما كان معقدًا مثل عقوق ابن، أو مرضه مرضًا مستعصيًا، ومنها ما يصل إلى حد المحن الشديدة، مثل وفاة عزيز لهن، وهذه الحالات تصبح الحياة معها شبه مستحيلة، إلا إذا كان لدى أصحابها زاد من الصبر يتقوين به على المحنة، ويساعدهن على التحمل والنسيان، أو التأقلم على وضع أراده الله، وتقبله بإيمان ورضا وسعى لحل المشكلة إن أمكن؛ لذا، هناك أحاديث كثيرة ذكرت فى الصبر والصابرين، وأعلت من شأنه حتى جعلته نصف الإيمان (الصبر نصف الإيمان)؛ لأنه لا حياة بدون محن، وبدون الصبر ستقضى المشكلات والمحن على حياتنا؛ لأننا سننهار أمامها طالما ليس لدينا السلاح الذى منحه الله لنا لمواجهتها.

إن الصبر لا يعنى التسليم بالمشكلة فقط، بل يعنى السعى بدأب من أجل حل المشكلة، أو اتخاذ الوسائل التى تعين على تخفيف حدة الألم النفسى المعيق للحياة والقاتل للعمل والطموح.

إن الصبر يحتاج إلى إيمان ومهارة وتدريب؛ حتى نستطيع أن نستخدمه فى الوقت المناسب لنكمل الطريق وتستمر الحياة.

6- لا تستهينوا بالدعاء .. ادعوا بإخلاص وسيتسجيب الله ولو بعد حين (أبو سلمة يدعو الله وقت وفاته أن يأجره فى مصيبته ويخلفه خيراً منه، فيعوض الله زوجته برسول الله):

كم من الكروب لم تنفرج إلا بدعاء مخلص فى جوف الليل، وكم من المحن التى كان يظن أصحابها أنه لا أمل فى زوالها، أزالها دعاء بلسان متهدج وقلب خاشع وعيون دامعة، كم من المشكلات ظهرت لنا بلا أمل فى حلها، فإذا بأصحابها يأتيهم الحل من حيث لا

يدرون بدعوة مضطر، علم أن اللـه على كل شىء قدير، وأن اللـه لا يعجـزه شىء فى الأرض ولا فى السماء.

إن الدعاء سلاح الضعفاء والمكلومين والمقهورين والمضـطرين .. الـدعاء هـو النعمـة الدائمـة التى تفتح الأبواب المغلقة وتيسر الصعاب، وتحقق الأحلام الصعبة، إنه دائمًا الأمل الباقى والحل الأول والأخير، فلا تنسوا الدعاء أو تستهينوا به، وثقوا أن الفرج آت، والحل قادم ولو بعد حين.

حدث هذا مع أبى سلمة، ليدعو قبل وفاته: (اللـهم أجرنى فى مصيبتى واخلفنى خيرًا منهـا)، فكان تعجب أم سلمة من زوج يأتى امرأة مسنة وأرملة، ولديها أبناء، ثم يكون أفضل مـن رجـل شهد بدرًا وأحدًا ومات شهيدًا فى سبيل اللـه، فإذا بالرسول يقرر الزواج منها؛ رحمة بها ورعايـة لأرملة شهيد، ويرسل عمر بن الخطاب يخبرها برغبته فى الزواج منها، فكان نعم الخلف بعـد أن أجاب اللـه دعاء زوجها أبى سلمة.

7- الإسلام له مواقف كثيرة ومهمة تعلى من شأن المرأة وتكرمهـا، لكـن الثقافـة العربيـة تصر على التقليل من شأنها (اللـه ينزل آية فى بيـت أم سـلمة، يحسـم بهـا موقـف أبى لبابـة، والرسول يأخذ برأى أم سلمة فى واقعة صلح الحديبية):

الإسلام له مواقف واضحة وجليلة وعديدة، بعث بهـا رسـائل قويـة للعـالم أنـه يقـدر المـرأة ويحترمها ويحترم عقلها ويثق بها، وفى وفائها، وتحملها المسئوليات الكبرى، إلا أن الثقافة العربية وبعـض أفكـار المتـدينين للأسـف، تصر عـلى التقليـل مـن شـأن المـرأة، والتقليـل مـن إمكاناتهـا وقدراتها، وعدم احترام تفكيرها وعقلها ورأيها.. كل هـذا يثـار ويقتنـع بـه الكثـيرون، فى الوقـت الذى يستجيب فيه الرسول لرأى مسلمة فى واقعة خطيرة ومزعجة، هى واقعة صـلح الحديبيـة، لتحل برأيها الراجح أزمة نادرة، وقف فيها المسلمون لا يريدون تنفيذ أمر الرسول.

إن العلم يقول إنه لا فرق بين الرجل والمرأة فى مستوى الذكاء، والبعض يميل إلى تفوق المرأة ذهنيًا فى مجالات معينة، ووقائع السيرة تشهد بثقة الرسول فى رأى المرأة وتكريم اللـه لهـا، أمـا نحن فنصر على تجاهل العلم والدين معًا فى هذا الشأن.

زينب بنت جحش

المنفقة

زينب بنت جحش

المنفقة

" ألم يحن وقت الزواج بعد يا زينب؟ "

هتفت بها السيدة أميمة أم زينب، وهى تبتسم فى حنان الأمهات، لتنظر إليها زينب، وهى تقول فى خجل:

" لم يقدر الله بعد يا أمى " ..

اقتربت منها الأم قائلة:

ألم يقدر الله لنا أن نأخذ بالأسباب يا صغيرتى؟

نظرت إليها زينب، وهى تفكر، وحاولت أن تقرأ ما يدور فى عينى أمها ..

كانت زينب بنت جحش فتاة صغيرة، جمعت بين النسب الأصيل والثراء .. تميز أهلها بالتاريخ الدعوى المشرف، فهى من عائلة ثرية، وهى هاشمية ابنة عمة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأمها أميمة بنت عبد المطلب عمة النبى، وأخوها عبد الله بن جحش، قتل شهيدًا فى غزوة أحد، وزوج أختها (حمنة بنت جحش) مصعب بن عمير، الشاب الذى وثق به الرسول ليكون سفيرًا له وللإسلام فى المدينة بعد بيعة العقبة الأولى، وكان خير سفير وفتحت المدينة على يديه. أما خالها فهو حمزة بن عبد المطلب، والاثنان نالا الشهادة أيضًا فى غزوة أحد.

فكرت أمها فى كل ذلك، وهى ذاهبة للرسول صلى الله عليه وسلم ؛ لتسأله عن زوج لابنتها، إلا أن رد الرسول لم يكن مريحًا لها، بل كان مفاجئًا:

" زيد بن حارثة؛ والله إنه لخير الناس " ..

كان زيد بن حارثة غلامًا فقد من أمه يومًا، ثم أخذ يتنقل من شخص إلى آخر، حتى وصل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأعتقه الرسولورباه، وأحبه الغلام حبًّا شديدًا، حتى إنه اختاره على

أبيه عندما عثر أبوه عليه، ويومها أعلن الرسول أنه تبنى زيدًا، ليصبح اسمه زيد بن محمد، لتنزل بعدها آية تحرم التبنى ..

(ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللـهِ)[الأحزاب:5] ليعود بعدها زيد بن محمد، إلى زيد بن حارثة ..

* * *

كانت وجهة نظر الرسول أن ملكات زيد وإمكاناته وأخلاقه التى رباه عليها، كفيلة بأن يختاره زوجًا لزينب ابنة عمته، حتى وإن كانت ثرية من بيت عريق، لكن وجهة نظر زينب لحارثة، أنه كان عبدًا أعتق، وتحركت لديها قوانين التكافؤ الاجتماعى، لترفض فى ضيق قائلة:

لا أتزوجه أبدًا، وأنا سيدة عبد شمس ..

ولقد أراد الرسول أن يكسر هذه القاعدة ليقرب الفوارق بين طبقات المجتمع، ويرفع من شأن حبيبه زيد، فحاول مرارًا وتكرارًا إقناع زينب .. فقال لها النبى محمد صلى اللـه عليه وسلم :

« بل فأنكحيه، فإنى قد رضيته لك » ..

وقبل أن تجيب زينب النبى - صلى اللـه عليه سلم ..

نزل قول اللـه تعالى:

(وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللـهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللـهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا {36/33}) **[الأحزاب]**.

رأت زينب بعدها بأن قبولها الزواج أصبح أمرًا من اللـه تعالى، فقبلت الزواج مضطرة؛ نزولًا على رغبة الرسول وأمر اللـه ..

وحدث الزواج ..

إلا أن الخلافات شقت طريقها بقوة بين الزوجين .. وتعددت الخلافات، وتعدد تدخل الرسول لإصلاح الأمر ..

فلم يكن زيد جميل الصورة، فلم ينشرح له قلب زينب، وبدأت تجرحه فى النسب والحرية، وشعر منها بأنها زهدت فيه، وهو قد تربى على الكرامة والأنفة فى كنف الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم فآلمه ما تفعل به، واشتكى إلى رسول الله أكثر من مرة، بأن زينب تتعاظم عليه بشرفها، وكان النبى - محمد صلى الله عليه وسلم - دائمًا يردد عليه: (أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ)[الأحزاب:37] ويأتيه مرة أخرى ليشتكى منها، ويطلب الطلاق والتفريق، والنبى يردد عليه:

(أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ).

إلا أن الأمور وصلت فى النهاية لطريق مسدود، وحال إصرار زيد دون استمرار المسيرة، وكان الطلاق ..

وكان هذ أمرًا مؤلمًا جدًّا للرسول .. إلا أن الامر تحول بعدها مع تطور الأحداث إلى حيرة؛ فلقد أمر الله رسوله بأمر غريب .. وخطير، كان شديدًا على الرسول أن تنزل آية تحرم عليه تبنى زيد، بعدما أحبه كل هذا الحب، وكان شديدًا على زيد أن يعود اسمه إلى زيد بن حارثة بعد زيد بن محمد، لكنها إرادة الله، التى لابد أن يسلم بها نبيه مهما كان الألم.

إلا أن الأمر لم يتوقف عند هذا الحد، فلقد أمر الله نبيه بأمر أراد منه أن يقضى نهائيًّا على فكرة التبنى أمام الناس.

لقد أمر الله نبيه بالزواج من زينب بنت جحش.

(فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا)[الأحزاب:37].

رغم أن الأمر محير للرسول، إلا أنه كان شرفًا لزينب لم تكن لتحلم به يومًا ..

فلقد تزوجت نبى السماء بأمر من السماء ..

وكانت زينب تفخر على أمهات المؤمنين فتقول: « زوجكن أهاليكن وزوجنى الله من فوق سبع سماوات ».

ولقد أثار الزواج المنافقين فى المدينة، وبدأوا يطلقون الانتقادات اللاذعة؛ إذ كيف يتزوج الرسول من مطلقة ابنه حتى وإن كان بالتبنى .. لينزل قول الله عز وجل:

(مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللـهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ) [الأحزاب:40].

وتدخل زينب بيتها الجديد، وتبدأ حياتها الجديدة مع رسول اللـه وحامل الرسالة، وتعيش بين زوجات الرسول، تتسابق معهن فى الخير وفى حب الرسول ..

أحب الرسول زينب حبًّا كبيرًا، حتى قالت عنها السيدة عائشة:

زينب بنت جحش .. أحب نساء النبى إلى النبى بعدى.

كانت زينب تنفق كثيرًا على المساكين، ولقد لاحظ الرسول ذلك، فكان يداعب زوجاته، ويقول لهن:

" أولكن لحاقًا بى أطولكن يدًا" .

كانت زوجات الرسول يفكرن فى كلام الرسول، ظانين أنه يقصد طول اليد المادى، فكن يقفن على الحائط، ويرفعن أيديهن يقسن طول ذراعهن، وكانت السيدة سودة هى أكثرهن طولا، إلا أن الرسول كان يوضح لهن أن طول اليد يعنى الإنفاق فى سبيل اللـه.

وتكمل زينب رحلتها مع الرسول، وفى خلال الرحلة الشاقة تفرح وتحزن وتصبر وتتحمل، وتنفق فى سبيل اللـه.

إلى أن جاءت لحظة الفراق عن حبيبها وزوجها ..

فلقد مات الرسول والزوج والحبيب ..

وعصر الحزن قلبها، وسالت الدموع لا تريد التوقف .. لكن الحياة لابد أن تستمر، والرسالة أصبحت أمانة، على الجميع أن يحملها إلى العالم.

وتكمل زينب الرسالة، وتظل تنفق وتنفق لا تتوقف عن رحمتها بالفقراء والمساكين .. ويخصص عمر بن الخطاب لأمهات المؤمنين راتبًا سنويًّا، فلم تجب الزكاة على مالها أبدًا؛ فلقد كانت تنفقه فى الصدقات قبل أن يمر العام .. كانت تستخدم جزءًا من مالها فى بعض الحرف النسائية؛ كالغزل والصبغ، فتكسب وتنفق.

وفى إحدى السنوات جاءت غنائم كثيرة للمسلمين، فأرسل للسيدة زينب مائة ألف درهم، فجلست السيدة ووضعت أمامها المال، وأتت بقطع صغيرة من القماش، وأخذت

تقسم المال وتضعه فى قطع القماش الصغيرة، وتقول لخادمتها: أرسلى هذه لبيت فلانة، وأرسلى هذه لبيت فلان، حتى أنفقتها جميعًا، ونفد كل المال، فتنهدت وكأنها تزيح همًّا من على صدرها، وهى تقول:

الحمد لله لا أبيت وكل هذا المال فى بيتى.

كان يبدو أن السيدة زينب لا تستطيع أن تعيش دون أن تنفق، لقد كانت مساعدتها لغيرها وشعورها بآلام الناس جزءًا من حياتها، لا تستطيع العيش بدونه.

ويعلم عمر بن الخطاب بما تفعل زينب فيشفق عليها، ويرسل لها ألف درهم؛ كى تخصصه لطعامها، فتنظر إليه زاهدة مستغنية، وهى تدعو الله:

اللهم إنى أسالك ألا يأتى علىَّ العام القادم ويأتينى مثل هذ المال.

ولا يأتى العام القادم على زينب، فلقد أذن الله لكلام حبيبها وزوجها أن يتحقق؛ لتكون أول من يلحق به من زوجاته.

ففى العام العشرين من الهجرة، توقفت يد السيدة زينب عن الإنفاق، وذهبت لرسول الله تحكى له عن صنيعها، ويكملا معًا حياتهما السعيدة فى الجنة.

وداعًا يا ملكة الصدقات والإنفاق .. ودعًا يا أمى .. ويا أم المؤمنين.

* * *

دروس وتحليل

1- تدين الزوجين ليس كافيًا لنجاح الزواج (زواج زيد بن حارثة وزينب بنت جحش يفشل رغم تدين الاثنين):

يظن الكثيرون أن تدين الزوجين سيكون شرطًا كافيًا تمامًا لنجاح الحياة الزوجية، إلا أن الواقع يقول غير ذلك، والواقع يقول، إنه لابد أيضًا من التكافؤ الاجتماعى والثقافى والمادى؛ حتى يسود التفاهم بين الزوجين، وتسير الحياة بصورة سلسة خالية من المنغصات والمشكلات قدر الإمكان، فالتكافؤ بين الزوجين على مختلف المستويات، يحقق درجة أكبر من التفاهم والتعاون ووحدة الهدف، والاتفاق على وسائل تحقيقها، وتقارب الرؤى فى حل المشكلات التى تواجههما.

إن عناصر الأسرة المسلمة القوية يعد التدين فيها شرطًا ضروريًّا بكل تأكيد .. ولكنه ليس كافيًا.

2- زواج الرسول من السيدة زينب، بعد طلاقها من زيد بن حارثة، كان الغرض منه القضاء نهائيًّا على فكرة التبنى (الرسول يتزوج من السيدة زينب بعد طلاقها من زيد بن حارثة):

تجنى البعض على الرسول، وادعوا أن الرسول قد تزوج من السيدة زينب إعجابًا بها، ونزلت الآيات لتقر بأن زواجه صلى الله عليه وسلم من السيدة زينب إنما جاء بأمر من الله؛ بغرض القضاء نهائيًّا على فكرة التبنى، فلم يكن من تقاليد العرب أن يتزوج الأب من زوجة ابنه. وكان هذا دليلًا دامغًا على أن علاقة الأبوة بين الرسول وزيد، قد انتهت بإجراء فعلى واضح وصريح وأمام الجميع.

وعليه فلقد كان زواج الرسول من السيدة زينب زواجًا بغرض الدعوة، ككل زيجات الرسول، فيما عدا زواجه من السيدة خديجة.

3- الإنفاق فى سبيل الـلـه يحتاج إلى تهذيب نفس وقوة إيمان وحب لله ورسوله أكثر من الاحتياج للمال (السيدة زينب بنت جحش تنفق ألف درهم أعطاها إياها عمر بن الخطاب على الفقراء والمساكين):

" أولكن لحاقا بى أطولكن يدًا " .. ظلت هذه الجملة ترن فى أذن زينب بنت جحش .. كانت تلك الجملة التى قالها الرسول لزوجاته يومًا ولم يكن معناها مفهومًا على وجه الدقة، إلا أن السيدة زينب لما عرفت أنها تعنى أن طول اليد تعنى كثرة الإنفاق، دعاها حبها لرسول الـلـه أن تنفق وتنفق حتى تكون أول زوجات الرسول لحاقًا به (وهذا ما حدث بالفعل، فلقد كانت السيدة زينب أول من توفيت من زوجات الرسول بعد وفاته)، بل إنها كانت تغزل وتنسج الثياب وتبيعها للتصدق بثمنها .. كان حب الرسول والإيمان بالـلـه هو المحرك الأول لما تفعله، وهو المحرك للقدرة على الإنفاق أكثر من القدرة على امتلاك المال، فالغنى الذى لا يمتلئ قلبه بحب الـلـه وإخلاص النية له، لن يستطيع الإنفاق، وإن ملك مال الدنيا، وإن أنفق فلن يقبل منه ما ينفق؛ فلقد اتجهت النية إلى غير الـلـه.

4- الأخوة فى الـلـه قيمة عظيمة فى الإسلام لا يعرفها إلا من يجربها (السيدة عائشة كانت تقول على السيدة زينب: إنها كانت أحب نساء النبى عند النبى بعدى):

تعاملت السيدة عائشة مع السيدة زينب بمنطق الأخوة فى الـلـه، لا منطق الزوجة الأخرى، ذلك الخلق العظيم والفريد فى الإسلام الذى يعلى قيم الحب والإيثار والذوق والتفكير فى مصلحة الآخر، على شهوات النفس وأنانيتها، ويخلصها من آفات الغيرة والحقد والكيد للآخرين ..

إن فضيلة الأخوة فى الـلـه التى كانت بين السيدة عائشة والسيدة زينب، جنبتهما معًا مشكلات نفسية معقدة، تحدث بين الزوجات أو النساء عمومًا، وجعل نفوسهما ترتقى بالإيمان على صغائر تشحن النفوس وتولد الشقاق.



إن الأخوة فى الـلـه قيمة عظيمـة، تجعـل الـنفس تتصـل بالـلــه أكـثر مـن اتصـالها بـالبشر، وقادرة على أن تصفى النفوس وتمنع الضـغائن والمشاكسـات المسـتمرة بـين الأصـدقاء والأقـارب والأصهار، والإسلام قدم نماذج فريدة فى ذلك، طالما كان الأمر متعلقًا بالـلـه، أما إذا تدنت النفس إلى الأرض فى علاقتها بالبشر، فما علينا إلا أن ننتظر الكوارث.

* * *

جويرية بنت الحارث

المخلصة

جويرية بنت الحارث

المخلصة

كانت السنة الخامسة من الهجرة عاما مميزا فى الصراع بـين المسـلمين والمشركـين، ففـى هـذ العام صمد المسلمون قرابة الشهر أمام تحالف جيوش الجزيرة العربية، وانتهـت المعركـة بـنصر المسلمين.

حينها .. أدركت الجزيرة العربية إلى أى مدى وصـلت قـوة المسـلمين، وإلى أى مـدى أصـبح الانتصار على الجيش المسلم أمرًا صعب المنال.

إلا أن إحدى قبائل الجزيرة العربية لم تكن قد وصلت إليها الرسالة بعد، ووصل الأمر بها إلى حد بعيد، جعلها تدفع الثمن غاليًا.

قبيلة بنى المصطلق ..

لقد دفعها جهلها وغرورها أن تشن حربًـا عـلى المسـلمين فى المدينـة، لكـن قـادة القبيلـة لم يكونوا يعلمون أن جهاز الاستخبارات فى الجيش المسلم قـد أبلـغ الرسـول بالفعـل بنيـتهم قبـل الإغارة على المدينة.

ويتفق الرسول مع صحابته بضرورة التحرك، وتوجيه ضربة استباقية إلى بنى المصطلق.

وكانت مفاجأة مذهلة لبنى المصطلق، وكانت القبيلة فى حالة شبة استسلام كامل، حتى أنـه أسر أكثر من مائة عائلة كاملة، برجالها ونسائها وأطفالها.

وكان من بـين مـن أسر فى هـذه الغـزوة " جويريـة بنـت الحـارث " بنـت قائـد قبيلـة بنـى المصطلق، الذى فر هاربًا، بعدما رأى الهجوم الكاسح للمسلمين على القبيلة.

ووجدت جويرية نفسها أسيرة لثابت بن قيس، فلم تجد بدًّا من أن تتفـاوض عـلى حريتهـا بالمال، فقالت له:

هل أكاسبك؟

نظر إليها ثابت بعد برهة من التفكير، ثم قال:

نعم .. أكاسبك.

قالت جويرية بعينين حادتين: بكم؟

أجاب ثابت:

مائة أوقية من الذهب.

لم يكن الأمر سهلًا على الإطلاق، المبلغ كبير، وكل القبيلة أسرى، ولا يمكن أن تقبل ابنة رئيس القبيلة أن تبقى أسيرة.

وجلست جويرية تعصف بذهنها، وتفكر فى الأمر من كل الوجوه، حتى وصلت إلى التفكير فى الرسول نفسه ودعوته، وحاورت نفسها وجادلتها وتبادلا معًا أطراف الحديث الجاد لساعات، حتى وصلت إلى قرار أخير .. ونهائى ..

ستذهب إلى الرسول رأسًا، وتحدثه ..

" السلام عليك يا رسول اللـه ".

رنت الكلمة فى أذن الرسول، لينظر إليها متسائلًا فى دهشة:

تقولين رسول اللـه؟

قالت جويرية فى هدوء وسكينة:

نعم .. إنى أشهد أن لا إله إلا اللـه، وأنك رسول اللـه.

ثم أخفضت رأسها، وهى تكمل:

وإنى لأرجو منك أن تعيننى على مكاسبة ثابت بن قيس.

أسعدت الكلمات الرسول سعادة بالغة، ليس لإسلام جويرية بنت قائد القبيلة فقط، ولكن لأن ما فعلته كان يسير فى اتجاه شىء يفكر فيه الرسول.

بلا شك كان الرسول سعيدًا بانتصار المسلمين على بنى المصطلق، ولكنه كان ما سيسعده أكثر هو أن تسلم القبيلة كلها، خصوصًا أن القبيلة كانت فى حالة استسلام كامل، حيث كانت حينئذ منزوعة المقاومة تنتظر مصيرها، وتبحث عمن يشترى لها حريتها.

لذا كان كلام جويرية موحيًا له بفكرة قد تفتح لقبيلة بنى المصطلق باب الإسلام، فإذا به يقول لها بعد أن فكر برهة متسائلًا:

فهل لكى فى خير من ذلك؟

فقالت: وما ذلك؟

قال النبى لها: أتزوجك وأكاسب عنك ثابت بن قيس ..

فقالت متسائلة فى دهشة: وتقبل ذلك؟

فقال النبى: نعم.

كانت فكرة النبى أن زواجه من جويرية سيفتح الطريق إلى عتق الأسرى طواعية دون إكراه، وهو ما سيكون له تأثير كبير على نفوس الأسرى ..

وهذا ما حدث بالفعل ..

فلقد استنكر الصحابة أن يكون أصهار النبى صلى الله عليه وسلم أسرى بين أيديهم، وفى اليوم التالى، بدأ كل صحابى يفك أسر من أمسك من القبيلة، ثم يعطيه ماله، فأعتقت القبيلة كلها، وعاد إليها مالها فى يوم واحد.

وهنا أخذ أفراد القبيلة ينظر كل منهما إلى الآخر، وهو لا يكاد يصدق نفسه مما يحدث..

لقد أيقن الجميع أن ما يحدث ليس سلوك محاربين أو غازين، هدفهم الزعامة أو السيطرة أو امتلاك الثروات، إنما الأمر أبعد من ذلك بكثير ..

إنها رسالة .. وإنه لرسول ..

وأخذت الألسنة تتناقل جملة واحدة:



هذا لا يفعله إلا نبى .. نشهد أن لا إله إلا اللـه وأن محمدًا رسول اللـه ..

وفى يوم واحد تحولت قبيلة كانت تحارب الرسول أمس، إلى قبيلة تؤمن جميعها به، وتدخل فى الدين الذى يدعو إليه، وتدافع عنه.

ولم يكن ذلك ليحدث إلا بزواج الرسول من جويرية بنت الحارث ..

الزوجة التى فتحت قلوب المئات لدين اللـه، فكان يضرب بها المثل فى فضلها على قومها.

فلقد أسلمت قبيلة بكاملها بسببها، إلا أنه للمفارقة، لم يكن أقرب الناس إليها قد أسلم بعد .. أبوها ..

إلا أنه كان على موعد مع الإسلام .. قريبًا.

* * *

هرب الحارث أبو جويرية، حتى استقر فى أحد الأماكن، ثم أخذ يفكر فى وسيلة يفك بها أسر ابنته وأهل قبيلته .. حيث لم يكن قد علم بإسلامهم بعد.

وكان لديه مائة ناقة .. كانت هى الثمن الذى قرر أن يدفعه ثمنًا لتحرير ابنته وأبناء قبيلته، لكنه قرر شيئًا ..

قرر أن يحتفظ بناقتين، ثم يخبر الرسول بأنه سيقدم مائة ناقة، معتمدًا بأن الأمر لن يلتفت إليه أحد ..

وبدأ الحارث فى التنفيذ، فأخفى ناقتين، وأخذ باقى المائة، واتجه إلى رسول اللـه، فى المسجد؛ ليجد شيئًا عجيبًا ..

لقد وجد بنى المصطلق يجلسون حول الرسول فى وئام وسلام، فأدهشة المشهد، إلا أنه تجاهل الأمر لحظيًّا، ليقول فى انكسار:

معى مائة ناقة .. جئت بها إليك أفك بها أسر ابنتى وأبناء قبيلتى.

نظر إليه الرسول متسائلًا:

ولكن أين الناقتين؟

انزعج أبو الحارث وتراجع إلى الوراء متسائلًا في دهشة:

ناقتين؟! أى ناقتين؟!

ويرد عليه الرسول في هدوء من يعرف الحدث بتفاصيله:

الناقتين اللتين ربطتهما في مكان كذا وكذا ..

ويتوقف لسان الحارث لبرهة، وتدور الأفكار في عقله هنا وهناك لثوان، لتنتهى إلى حقيقة واحدة لا تقبل الشك.

ويسقط الحارث على ركبتيه ليقول في استسلام:

أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك لرسول الله ..

وبإسلام الأب .. تكون جويرية سببًا في إسلام كل قبيلتها بلا استثناء.

إلى هنا .. يكتفى التاريخ بذكر أحداث أخرى عن أمنا جويرية .. ليذكر فقط أنها توفيت في عهد معاوية بن أبي سفيان.

وسنكتفى نحن أيضًا .. فليتنا نكون سببًا في إسلام فرد واحد، لا إسلام قبيلة بأكملها، ثم لا يذكرنا التاريخ بشىء بعدها.

* * *

تحليل ودروس

1- زواج الرسول من جويرية بنت الحارث كان يعنى إسلام قبيلة بأكملها (زواج الرسول من جويرية كان سببًا فى إسلام قبيلة بنى المصطلق):

كان زواج الرسول من جويرية بن الحارث زواجًا لمصلحة الدعوة إلى الله، فمصاهرة قبيلة بنى المصطلق كان سيعنى فى ترتيب الرسول، أن يطلق المسلمون أسراهم؛ حياء من رسول الله بأن يكون أصهاره أسرى فى أيديهم، حيث أعادوا إليهم أموالهم رغم فقرهم الشديد، فى تصرف مبهر للقبيلة، حتى قالوا: هذا لا يفعله إلا نبى، وعندما حدث هذا، أسلمت القبيلة كلها طواعية دون إجبار .. الرسول إذن كان هدفه رسالة الإسلام فى هذه الزيجة، وكل زيجاته كذلك، فيما عدا خديجة.

2- سلوك المسلمين وأخلاقهم أكثر وسائل الدعوة أثرًا وأكثر نشرًا لفكرة الإسلام (خلق المسلمين فى الغزوة أبهر قبيلة بنى المصطلق، وكان سببًا فى دخول الإسلام):

عمل رجل فى ألف رجل، خير من كلام ألف رجل فى رجل ..

هذا المقولة الرائعة رددناها كثيرًا كمسلمين، لكننا نصر على أن نفعل عكسها، نصر أن ندعو إلى الإسلام بكلام كثير، وأن نخرج فى مظاهرات عارمة عندما يهان الإسلام أو يسب الرسول، ثم نأتى بأفعال عكس ما دعا إليه الإسلام، وقال لنا الرسول، حتى أصبح الدين عند كثير منا شكليًّا، وأصبح التدين مظهريًّا، لا يؤثر فى أحد، بل يأتى بنتيجة سلبية عند الكثيرين، عندما يصبح المتدين منا من أهل الكلام، وليس من أهل الفعل، نريد أن نفكر فى أفعالنا قبل أقوالنا، وأن ننظر إلى أنفسنا جيدًا قبل أن ننظر إلى الآخرين، وأن نكون مظهرًا جيدًا للإسلام بأفعالنا قبل أقوالنا، ساعتها سيرى الناس صورة الإسلام الجميلة فينا، وسيعجبون به، بكثير من العمل وقليل من الكلام.

3- الأصل فى منهج الإسلام هو الطواعية لا الإجبار (الرسول كان يريد أن يطلق المسلمون سراح الأسرى طواعية دون أمر مباشر منه):

فلسفة الدعوة فى الإسلام تقوم على أنه يريد من الناس أن يدخلوه عن اقتناع، وينفذوا تعاليمه وأحكامه طواعية دون إجبار، وهذه المنهجية تشكل قوة للمسلم وللإسلام نفسه، أما الإجبار فيأتى كمرحلة أخيرة إذا فشلت كل محاولات الإقناع، وفى بعض الأمور لا كلها، فالأصل هو الدعوة والاجتهاد فيها وإيجاد بدائل لترك المعصية واجتناب الخطأ، ولا يأتى الحل الأخير إلا للمصر على المعصية أو المصر على إيذاء المجتمع، واستخدام حريته كأنه يعيش فى هذا العالم وحده، لا يحاسبه أحد، ولا ينبغى أن يحاسبه أحد.

4- ربما كان إخلاص السيدة جويرية فى إسلامها سببًا فى إسلام القبيلة كلها (السيدة جويرية تدخل للرسول وتسلم أمامه):

الإخلاص عمل قلبى غاية فى الأهمية والخطورة، من الصعب أن يصل إليه المسلم إلا عن طريق التدريب المستمر على مجاهدة النفس، والتعلق بالله، والتخفف من شهوات الدنيا " النفسية "، وساعتها سيتضاعف نتاج أعمالنا لأكثر مما نتوقع، فعمل يصاحبه الإخلاص لله، يعنى أن الله سيقبله وسيدعمه وسيجبر كسره وسيبارك نتائجه ويضاعفها، والعكس بالعكس، وربما هذا ما حدث مع أمنا جويرية، عندما أسلمت بإخلاص لله دون أى أسباب أخرى محتملة؛ كالتخلص من الأسر أو النجاة بنفسها مؤقتًا؛ مما أكرمها الله بإسلام قبيلتها كلها، ففعلت بإخلاصها أمرًا غير منتظر وغير متوقع، حتى قال عنها العلماء:

فما كانت امرأة أكثر فضلًا على قومها وعشيرتها وقبيلتها، من جويرية بنت الحارث، فأخرجتهم من الأسر، وأعادت لهم أموالهم، وأدخلتهم فى الإسلام.

استحضروا نواياكم قبل أعمالكم، وستجدون ساعتها أن للعمل طعمًا آخر ونتيجة أخرى، فيما لو بدأتم أعمالكم دون توجيه بوصلة القلب لخالقه .. الله رب العالمين.

صفية بنت حيى

الرؤية

صفية بنت حيى

الرؤية

" أهو هو؟ "

قالها فى قلق بالغ ياسر بن أخطب لأخيه حيى بن أخطب بعد أن دخل عليه، بعد أن استقبل النبى فى المدينة بعد هجرته من مكة، وقد بدا على ملامحه الحزن ليجيب فى انكسار، وهو يلقى بجسده على الأريكة:

نعم يا ياسر، هو .. نفس النبى الذى وصف فى التوراة ..

مسح ياسر بيده على لحيته، ثم قال:

هل تأكدت؟

قال حيى:

قابلته وسألته عن أبيه، فقال لى إنه مات، ثم سألته عن جده، فقال لى إنه مات، ثم سألته عمن رباه، قال إنه عمه، ثم سألته عن حرفته وهو صغير، فقال إنه كان يرعى الغنم.

قاطعة ياسر، وكأنه يتعلق بأمل أخير فى ألا يكون هو كما هو مذكور فى التوراة، قائلًا:

هل تأكدت من العلامة التى فى ظهره؟

هز حيى رأسه فى استسلام، قائلًا:

ثلاث شعرات، يخرجون من حسنة سوداء فى ظهره ..

وضع ياسر يده على جبينه مستسلمًا، وهو يقول فى صوت خفيض:

إنه خاتم النبوة عند نوح وعيسى.

ثم توقف برهة ليفكر، ثم نظر إلى أخيه حيى قائلًا:

وماذا ستفعل يا حيى؟

نهض حيى قائلًا فى غضب:

عداوته ما حييت.

كانت المشكلة مركبة عند حيى بن أخطب .. فهو يكره الرسول كرهًا شديدًا، فى نفس الوقت الذى أخبره عمه - وهو أحد علماء اليهود - بمواصفات النبى القادم، دون أن تحدد النبوءة هويته، أهو من العرب أم من اليهود، فأخذ اليهود يبشرون بالنبى القادم؛ ظنًّا منهم أنه سيأتى منهم.

لكن حدثت المفاجأة ..

ظهر النبى من العرب، وكانت صدمة بكل المقاييس لحيى بن أخطب ولليهود جميعًا.

أما الصدمة الثانية، فكانت أمرًا يتعلق بابنته صفية ..

وكانت صدمة بحق.

* * *

كانت النبوءة لا تصف النبى فقط وعلاماته، ولكنها كانت تصف زوجته أيضًا، ولاحظ حيى بن أخطب وأخوه ياسر، أن هذه المواصفات التى تنبأت بها التوراة تقترب بشدة من صفية، ابنة حيى بن أخطب، ولعل هذا هو الذى قوى فكرة أن يكون النبى من اليهود، ومنذ ذلك التاريخ وحيى بن أخطب يعد ابنته صفية لتكون زوجة نبى، فاهتم بتربيتها، واجتهد فى رعايتها وإعدادها؛ لتكون زوجة للنبى القادم الذى سيخرج من اليهود.

لكن حيى لم ينتبه إلى أن خروج النبى من اليهود كان لا يعدو كونه احتمالًا، حتى وإن كان احتمالًا قويًّا، فإن هذا لا يمنع إمكانية خروج النبى من غيرهم.

وبالفعل هذا ما حدث ..

فلم يكن نبى آخر الزمان يهوديًّا، وهذا ما أكده الحوار الدائر بين حيى بن أخطب وأخيه ياسر بن أخطب ..

ولقد سمعت صفية ابنة الحادية عشرة عامًا هذا الحوار، بكل تفاصيله .. لتدخل إلى حجرتها بعدها، وتفكر فى النبوءة التى أتت بنبى آخر الزمان، وأخذت صفية تفكر بعمق، حتى أغمضت عينيها، وتركت أفكارها تسبح فى عالم الخيال.

وهنا رأت صفية رؤيا عجيبة ..

لقد رأت القمر ينزل من السماء ويسقط فى حجرها ..

وتستيقظ صفية لتذهب إلى أبيها وتحكى له ما رأته، وهنا يجن جنون حيى، ويغضب بشدة، ليلطم ابنته على وجهها ويصرخ فى غضب:

أتطمعين أن تتزوجى نبى العرب؟

كانت اللطمة قوية إلى الدرجة التى أسالت الدماء من شفتى صفية، وجعل قرطها يطير من إحدى أذنيها، وهى تقف ذاهلة لا تدرى لماذا يفعل أبوها ذلك ..

لكن الذى يعلمه أبوها، أن هذه الرؤيا تعنى أن ابنته ستتزوج من الرسول، وهو ما لا يستطيع حيى تحمله أبدًا ..

وعلى الفور، سارع الخطا ليعقد عليها على (سلام بن مشكم) أحد رجال اليهود؛ ليقطع الطريق بسرعة على زواج صفية من النبى.

بعدها يسير حيى بن أخطب على معاداة النبى والمسلمين والكيد لهم، إلى الحد الذى جعله يدبر مؤامرة لاغتيال الرسول بإسقاط حجر فوق رأسه عند ذهابه إليهم، لولا أن جبريل أخبره ..

وإلى الحد الذى جعله يمر على قبائل الجزيرة العربية ليدفعهم إلى حرب الرسول فى المدينة فى السنة الخامسة من الهجرة، ليزحف عشرة آلاف من المشركين، يحاصرون المسلمين فى المدينة لقرابة شهر.

إلا أن انتصار المسلمين فى غزوة الأحزاب كان مفاجئًا للجزيرة كلها، وصادمًا لحيى بن أخطب على وجه الخصوص، وكان إعلانًا ببدء تفوق المسلمين وإدراك قوتهم.

وبدأت انتصارات المسلمين تتوالى، فبعد غزوة الأحزاب بعام واحد، فتح اللـه على المسـلمين بصلح الحديبية، حتى جاءت لحظة المواجهة.

كانت خيبر مصدر إزعاج مستمر على المسلمين؛ فلقد كان مركزًا إعلاميًّا للشـائعات المغرضـة ضد المسلمين، ومركزًا للتآمر عليهم، ومنها خرج حيى بن أخطب لتأليـب الجزيـرة العربيـة عـلى المسلمين فى غزوة الأحـزاب، وكانـت الخطـوة القادمـة هـى التحـالف مـع الفـرس والـروم ضـد المسلمين.

وقرر الرسول التحرك نحو خيبر، المدينة المحصـنة ذات الثمانيـة حصـون، والقـوة العسـكرية الكبيرة، والثروة الزراعية التى تكفى لعام كامل.

قرر الرسول محاربتهم؛ من أجل إبلاغ رسالة لهم أنهم يعيشون فى المدينة، وأن هنـاك عقـدًا واتفاقًا بينهم وبين المسلمين، يمنعهم أن يتآمروا ضدهم، وضد أهل المدينة.

ويكتب اللـه النصر للمسلمين، ويكتب مع هذا النصر مقتل حيـى بـن أخطـب أبـو صـفية وزوجها سلام بن مشكم.

وتقع صفية وأختها فى الأسر، ويؤتى بها إلى رسول اللـه، فيقول النبى:

أدخلوها.

وتدخل صفية لتقول فى صوت خفيض منكسر:

السلام عليك يا رسول اللـه.

ينظر إليها الرسول، وقد بدت على ملامحه المفاجأة، قائلًا:

أوتعلمين أنى رسول اللـه؟

هزت صفية رأسها مجيبة:

نعم.

ثم رفعت رأسها، وأخذت تحكى للرسول الحوار الذى دار بين أبيها وعمها منذ سبع سنوات، والرؤيا التى رأتها فى منامها، والتى انزعج منها أبوها بشدة، وسارع بعدها بزواجها.

أخذت صفية تتحدث والرسول يستمع، وما أن فرغت من كلامها حتى قال لها الرسول:

هل لك فى خير من ذلك؟

سكتت صفية برهة، ثم قالت:

وما ذاك يا رسول اللـه؟

قال لها الرسول:

أتزوجك.

وكانت مفاجأة للجميع ..

مفاجأة بحق ..

* * *

كان طبيعيًّا أن تنال الدهشة من الصحابة، وأن تغلبهم الحيرة فى اتخاذ الرسول هذا القرار مع ابنة الرجل الذى طالما حارب الإسلام، وكاد له بكل قوته .. كان غريبًا أن يرى الصحابة ابنة الرجل الذى دبر لاغتيال الرسول يومًا، تنال هذا الشرف، أن تصبح زوجة للنبى وأمًّا للمؤمنين.

لكن الرسول كان له حسابات أخرى ..

كان الرسول يريد أن يرسى قاعدتين مهمتين؛ **الأولى:** أن المسلم له حقوق بمجرد دخوله الإسلام، وصفية أصبحت مسلمة، يجب أن تتغير النظرة إليها، والتعامل معها، حتى وإن كانت ابنة حيى بن خطب، فليس من العدل أن يحاسب المرء على وزر أبيه.

القاعدة الثانية: هى قاعدة التسامح، وهى قاعدة ترسى قواعد المحبة بين البشر وتنزع العداوة، وتهدف إلى البناء والوحدة، بدلًا من الهدم والصراع.



منذ سبع سنوات، ومنذ رؤيا القمر التى رأتها صفية، وقلبها يميل إلى الإسلام بعد أن أدركت الحقيقة التى أقر بها أبوها وعمها.

وبعد كل هذه السنين، ورغم محاولات أبيها الشرسة لمنع الزواج، تتحقق الرؤيا، وتصبح صفية زوجة لنبى الإسلام ..

لكنها تخاف على الرسول من اليهود .. فلم يكن المسلمون خرجوا من خيبر بعد، ويريد الرسول أن يدخل بها، فيفاجأ الرسول أنها تمتنع، ويريد أن يدخل بها فتمتنع مرى أخرى، حتى اقتربوا من المدينة، فدخل بها الرسول، فيقول لها رسول الله:

لم امتنعت؟

فتقول: خفت عليك اليهود.

ويخرج النبى من خيمته ليجد أبا أيوب الأنصارى يقف بسيفه، وهو يتلفت يمينًا ويسارًا، فينظر إليه رسول الله قائلًا:

ما لك يا أبا أيوب؟

يجيب أبو أيوب فى تحفز مملوء بالخوف والحب معًا:

رسول الله .. خفت عليك هذه المرأة، يهودية وقتل أبوها وعمها وزوجها.

لم يكن الصحابة قد استوعبوا الأمر بعد، ولكن الرسول قدر صنيع أبى أيوب، فدعا له قائلًا:

حفظك الله يا أبا أيوب كما حفظتنى.

وتدخل صفية بيت الرسول، وتحاول أن تندمج مع زوجاته، ولكن الأمر لم يكن سهلًا بعض الشىء.

كان صعبًا على زوجات الرسول أن يتقبلن صفية كيهودية أسلمت بعد تاريخ العداء القاسى بين المسلمين واليهود، وكن كثيرًا ما يذكرن أمامها أنها كانت يهودية، حتى فاض بها، وذهبت للرسول باكية تشكو إليه، فإذا بالرسول يهدئها، ويقول لها:

يا صفية، إن قالوا لك ذلك مرة أخرى فقولى: أيكم خير منى؟! أما أنا فزوجى محمد وأبى هارون وعمى موسى.

كان الرسول يعلم أن فكرة تقبل امرأة كانت يهودية بين زوجاته لم يكن سهلًا؛ ولذا كان يقف بجانبها ويشد من أزرها.

فى إحدى المرات ذكرت صفية أمام السيدة عائشة، فقالت عنها السيدة عائشة إنها قصيرة.

وعندها نظر إليها الرسول قائلًا فى غضب:

يا عائشة .. لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته.

كم أحبت صفية الرسول الزوج، الذى يقف بجانبها، ويحافظ على مشاعرها حتى اللحظة الأخيرة فى حياته.

ففى مرض الرسول الأخير، وقفت السيدة صفية تقول فى حزن:

فديتك بنفسى يا رسول الله، وددت لو أن الذى بك بى، وليس بك يا رسول الله، وهنا أخذت بعض زوجات الرسول تتغامزن على كلام صفية، فإذا بالرسول ينظر إليهن قائلًا:

مضمضن.

فنظرن إلى الرسول قائلين فى تعجب:

يا رسول الله .. ما أكلنا شيئًا.

قال لهن الرسول:

لتغامزكن عليها.

يدافع الرسول عن صفية، ويعلم زوجاته والمسلمين وهو فى مرضه الأخير، أن من يغتاب غيره كمن يأكل لحم أخيه ميتًا.

ويموت الرسول، وتبكى صفية كأشد ما يكون البكاء، وتحزن على زوجها الكريم العطوف، ونبيها الذى كرمها بجواره، ودافع عنها طيلة حياته.

وتمر الأيام على المسلمين وعلى صفية، وهى لا تنس أهلها من اليهود، تودهم وتصل رحمهم، حتى أن جاريتها تتعجب، فتذهب إلى عمر بن الخطاب فتقول له:

يا أمير المؤمنين .. صفية تحب السبت وتصل اليهود، فناداها سيدنا عمر، قال: أتفعلين ذلك؟

فقالت: يا أمير المؤمنين، أما السبت فوالله منذ أبدلنى الله بيوم الجمعة ما أحببت السبت، وأما اليهود فإن لهم رحمًا أوصانى بهم دينى وأوصانى بهم إسلامى، فإنى أصل اليهود صلة لرحمى، فقال لها عمر: صلى رحمك يا أمنا.

وبعد عمر تأتى محنة عثمان، وتتألم السيدة صفية أشد ما يكون الألم، وهى ترى أمير المؤمنين وزوج بنتى الرسول محاصرًا، لا يستطيع الخروج من بيته، وتدافع السيدة صفية عنه، وتصر على أن تنقل الماء والأكل إليه.

وبعدها بقليل تموت السيدة صفية، وتلحق برسول الله، وبزوجها الحنون.

وداعًا يا أمى ..

ودعائك لنا أن نموت والرسول راض عنا، كما كان راضيًا عنك.

* * *

تحليل ودروس

1- كم مرة واجهنا الحق برغم تأكدنا أنه حق؟ (حيى بن أخطب اليهودى يعادى الرسول رغم تيقنه من نبوته؛ لأنه كان يتوقع أن يكون النبى من اليهود ولكنه لم يحدث):

قد يتبين لنا الحق فى أمر ما أو قضية أو مشكلة حياتية أو خلاف شخصى بيننا وبين آخرين، ولكننا نصر على موقفنا، مع علمنا التام بأننا بذلك نواجه الحق بالباطل، ولا يمنعنا إيماننا بالله أن نتوقف أو نتراجع أو نستغفر أو نعيد الحق لأصحابه، إنه نوع من فساد النفس الذى إن تمكن منا خسرنا فضيلة الرجوع إلى الحق ومناصرته، وخسرنا رضا الله وأنفسنا، وكنا سببًا فى إفساد المجتمع من حولنا.

2- كان طبيعيًّا عند العرب أن تتزوج البنات فى سن صغيرة (حيى بن أخطب يزوج ابنته وهى فى سن صغيرة):

خاف حيى بن أخطب أن تتزوج ابنته صفية من رسول الله، وتتحقق الرؤيا التى حكتها له ابنته، فسارع بزواجها من سلام بن مشكم، أحد رجال اليهود؛ ليقطع الطريق على النبى، وكان سن صفية آنذاك أحد عشر عامًا، وهو يعنى أن زواج البنات فى سن صغيرة كان أمرًا طبيعيًّا عند العرب؛ نظرًا لطبيعية البيئة التى كانت تسمح ببلوغ البنات فى سن صغيرة، وهو أمر يفسر أن زواج الرسول من السيدة عائشة فى سن صغيرة أيضًا كان أمرًا طبيعيًّا، ولم يكن أمرًا غير عادى .. إذًا ينبغى أن يكون هناك اختلاف فى قياس هذه الأمور من بيئة لأخرى، فالبيئة الباردة أو المعتدلة الحرارة، يختلف تأثيرها عن الأخرى شديدة الحرارة.

3- زواج الرسول من السيدة صفية، لإثبات أن الإسلام دين عدل وسلام، لا دين انتقام وتشفٍّ:

كان التصرف الطبيعى عند الكثيرين أنه من الطبيعى أن تؤسر السيدة صفية على

الأقل؛ كابنة للرجل الذى حاول قتل الرسول، ودعا إلى تأليب الجزيرة العربية على المسلمين، وربما فى موقف كهذا قد يعطى جيش آخر منتصر لنفسه الحق فى إهانتها وتعذيبها، فيأخذونها بذنب أبيها، وكان الموقف للرسول أن يقر مبدأين مهمين، وأن يقرن هذين المبدأين بزواج؛ حتى يستقر الأمر فى الأذهان عبر التاريخ:

الأول: مبدأ العدل: أن الإسلام لا يحاسب الابنة بذنب أبيها، مصداقًا لقول الله عز وجل (وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى)[فاطر:18]، وقوله تعالى: (وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ)[المائدة:8]، هذا المبدأ كان يريد الرسول أن يقره بقوة، بألا يحاسب صفية على ذنب أبيها، حتى لو وصل أبوها إلى درجة من العداوة لم يسبقه إليه غيره.

الثانى: أن الإسلام دين سلام لا دين تشفٍ وانتقام، فالرسول كان يريد أن يعلم المسلمين، أن رسالة الإسلام ليست أن ننتقم من الناس، ولكنه رسالة سلام وهداية، ومن الإخلاص الشديد أن نستغل المواقف حتى وإن كانت صعبة علينا، فى أن تكون سببًا فى إضافة مكسب للإسلام وللدعوة إلى الله.

4- الإيمان بالله له قدرة غريبة على تغيير النفوس وتوجيهها توجيهًا صحيحًا، طالما كانت مرتبطة بالله وموصولة به (نفوس المسلمين تتغير تجاه السيدة صفية من ابنة عدو للمسلمين، إلى أم لهم بعد زواجها من رسول الله):

الإيمان بالله قادر على تغيير المشاعر وتوجهات النفس، فيجعلها تحب ما تكره وتكره ما تحب؛ ذلك أن النفس ملك لله، فإذا وجد الله منها نية صادقة فى التغيير؛ أمر النفس فاستجابت؛ ولذا فإننا ندعو الدعاء الجميل:

اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ..

هذا الإيمان هو الذى جعل نفوس المسلمين تتغير تجاه السيدة صفية، من كره شديد؛ لأنها ابنة عدو للرسول وللإسلام، إلى حب شديد كما نحب أمهاتنا، وهكذا النفوس تتغير إذا شحناها بالإيمان وأوصلناها بالله، وساعتها سنكون قادرين على التحكم فيها، وسنأمرها وستنفذ ما نريد وما يريده الله، أما إذا شح الإيمان وضعفت الصلة بالله، ستتحكم فينا النفس كما تشاء وسنأمرها فتعصى، ثم تأمرنا فنطيع.

5- الغيبة مرض اجتماعى خطير، يسمم علاقات البشر، ويفسد العلاقات الاجتماعية (الرسول يلوم السيدة عائشة؛ لأنها قالت إن السيدة صفية قصيرة):

لام الرسول السيدة عائشة عندما اغتابت السيدة صفية فوصفتها بالقصيرة، وقال لها: لقد قلت كلمة لو مزجت بماء البحر لمزجته.

إن ذكر عيوب الناس وأخطاءهم أمام الناس شيء محبب إلى النفس، حتى قيل عن الغيبة (ذكر الآخرين بما يكرهون) .. إنها فاكهة المجالس، ولكنها فاكهة سامة، تسمم العلاقات بين الناس، بعد أن تفسدها بإيجاد مشكلات من عدم، بعد أن تتطور الغيبة لتصبح نميمة بعد نقل الكلام إلى صاحب الشأن، فتتوتر العلاقات، وقد تقطع الصلات.

علينا أن نتحكم فى ألسنتنا عند الحديث عن الآخرين، ولا نتحدث عن العيوب إلا فى حالات خاصة ومحددة وضرورية، مثل: الزواج أو العمل أو المسائل المالية، وذلك بعد أن نخلص النية لله، ونعرف الهدف من الكلام، لا أن يصبح ذكر عيوب الآخرين شهوة حرامًا، تتلذذ بها النفس، ثم تدمر المجتمع من حولنا.

إن الغيبة أمر ذمه القرآن بشدة، حيث قال اللـه فى كتابه: (أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ)[الحُجُرات:12]، ويقول رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم : " إن العبد ليتكلم بالكلمة لا يلقى لها بالًا من سخط اللـه - عز وجل - تهوى بها فى نار جهنم سبعين خريفًا".

* * *

رملة بنت أبي سفيان
أم حبيبة
مع الـلـه

رملة بنت أبى سفيان
أم حبيبة
مع اللـه

خمس سنوات تمر على دعـوة الرسـول فى مكـة، والعـداء يتزايـد، والسـهام تصـوب للرسـول والصحابة من كل مكان، ويومًا بعد يوم، يتسابق رموز قريش فى العداء للدعوة.

ويظهر أبو سفيان خصمًا عنيدًا للدعوة، يحاربها فى كل مكان بكـل قوتـه وعنفوانـه .. لكنـه رغم كل هذا العداء لم يستطع أن يمنع أن تصل دعـوة الرجـل الـذى يعاديـه أشـد العـداوة، إلى أقرب أقربائه، وفى عقر داره .. فلقد أسلمت ابنته رملة بنت أبى سفيان .. كما أسلم زوجها عبيـد اللـه بن جحش.

يبدو أن دعوة الإسلام كانت أقوى بكثير مما تصور أبو سفيان، ويبدو أيضًا أن هذا اليقين قد دفعه إلى مزيد من العداء للمسلمين ..

" لم يعد الأمر يحتمل أكثر من ذلك، ودعوة الرسول للهجرة جاءت فى وقتها "

هتفت بها رملة بنت أبى سفيان لزوجها عبيد اللـه بن جحش، بعـد أن طلـب الرسـول مـن المسلمين أن يهاجروا إلى الحبشة فى السنة الخامسة من البعثة.

واتجه الاثنان إلى الحبشة مع عدد من المسلمين، متجهـين إلى النجـاشى، الـذى سـيكون أكـثر عدلًا على رملة من أبيها.

ومكـث الاثنـان فى الحبشـة وسـط أهلهـا النصـارى دون مشـكلات، وانـدمجوا فى المجتمـع، وتعاونوا معه تحت رعاية النجاشى وفى أمنه.

واستمرت رملة مع زوجها، تعيش فى هدوء واستقرار، وتصاعدت سعادتها بأول حمل يتحرك فى أحشائها.

إلا أن أشياء مقلقة بدأت تحدث لتأكل من هذه السعادة، وتهز من هذا الاستقرار شيئًا فشيئًا ..

لقد بدأت تظهر تغيرات مقلقة على عبيد الله بن جحش، فلقد بدأ يقول كلامًا غريبًا، انزعجت منه رملة فى أول الأمر، واعتبرت أنه أمر طارئ قد لا يتكرر، لكن الأمور تطورت إلى ما هو أشد إزعاجًا .. فلقد وجدت زوجها يومًا يشرب الخمر ..

وكاد أن يطير عقل رملة من رأسها، وعندما واجهته اندفع فى كلام غريب، يتهجم فيها على دعوة الرسول، ويقدح فيها ..

ولم تصدق رملة أذنيها، وشلت الصدمة عقلها عن التفكير، وظلت واجمة، وهى ترى زوجها يقول ما يقول، ويفعل ما يفعل ..

ومع الوقت تطورت الأمور إلى أبعد ما يمكن تخيله ..

لقد ارتد زوجها عن الإسلام ..

وكانت صدمة العمر لرملة ..

صدمة بحق.

* * *

ماذا تفعل رملة الآن؟

زوجها الذى تحدت معه أباها وعائلتها من أجل إيمانها وإسلامها يصدمها صدمة عمرها بارتداده .. زوجها الذى تركت معه أهلها وبلدها، وقطعت معه المسافات الطوال، يخذلها ويخذيها، فيترك دينه ويشرب الخمر .. زوجها الذى أصبح أبًا لجنين يتحرك فى أحشائها، لم يعد مشرفًا لها ولمولودها القادم.

لقد بدا زوجها وكأن مسًّا أصابه، فظل يشرب الخمر بنهم غريب، حتى وقع من سطح جبل فسقط قتيلا.

ووقعت الواقعة على رملة ..

وشعرت أن الدنيا كلها قد تكالبت عليها، وأن عيون أهلها تنظر إليها مـن بعيـد ضـاحكة فى شماتة.

أغلقت رملة عليها بابهـا، تـبكى بحرقـة، ومـرارة الحـزن والأسى والهزيمـة تأكـل قلبهـا، وتهـد جسدها.

ظلت رملة وحيـدة، تصـلى وترفـع رأسـها لربهـا باكيـة شـاكية، تـدعوه وتـتضرع إليـه بكـل مشاعرها.

ظلت رملة أيامًا طويلة صابرة كالجبل، تدعو ربها وتناجيه وتتذلل إليه وتستنصره.

ويشاء الـلـه أن يسمع بأمرها من يستطيع أن يخفف عنها ألمها، ويفرج كربها ..

" أطرقت الباب عليها كثيرًا يا مولاى، فلم تفتح لى " ..

قالتها إحدى الجاريات للنجاشى الذى أرسلها إلى أم حبيبة؛ ليبلغهـا برسـالة مهمـة، إلا أن أم حبيبة كانت كسيرة مهزومة لا تفتح لأحد ولا ترد على أحد، وهنا قال لها النجاشى:

اذهبى إليها مرة أخرى، واطرقى الباب ونادى عليها بأعلى صوتك: إن رسول الـلـه هو الـذى أرسلك.

كان جعفر بن أبى طالب أميرًا للمسلمين فى الحبشة، يقـودهم ويرعـاهم، ولمـا عـرف مأسـاة رملة بنت أبى سفيان حزن كثيرًا، ومن خلال اتصاله برسول الـلـه فى المدينة، علم رسول الـلـه بمـا حدث، وأدرك الحالة النفسية التى وصلت إليها رملة بعد جهادها الكبير ومعاداتهـا لأهلهـا مـن أجل دينها، وعندها اتخذ الرسول قرارًا يعيد إلى رملة مكانتها أمام نفسها وأمام أهلها.

لقد قرر الرسول أن يتزوج برملة بنت أبى سفيان ..

وزيادة فى تكريمها، طلب رسول الـلـه يدها من ملك الحبشة رأسًا، فأرسل يقول له:

إنى أريد منك أن تخطب لى رملة بنت أبى سفيان.

وأرسل النجاشى الجارية إلى رملة حاملة البشرى إليها، بعد أن امتنعت عن فـتح البـاب أول مرة، لتنادى بأعلى صوتها:

إنى جارية النجاشى، ولقد أرسل رسول اللـه إلى النجاشى يطلب منه أن يخطبك إليه.

رنت الكلمات فى أذن رملة، وكأنها تشك فى أذنيها، فنهضت فى اتجاه الباب لتقول فى دهشة:

أعيدى علىَّ ما قلت.

وتسر الجارية، لتعيد إليها ما قالت فى حماس:

يا رملة .. إنى جارية النجاشى، ولقد أرسل رسول اللـه إلى النجاشى يطلب منه أن يخطبك إليه.

وعلى الفور هرعت رملة إلى الباب لفتحه فى قوة، وهى تقول فى لهفة:

أحقًّا ما تقولين؟

ابتسمت الجارية، وهى تقول وقد هالها الحالة التى كانت عليها رملة:

نعم .. نعم .. هذه رسالة أرسلنى بها مولاى النجاشى إليك.

أدخلت رملة الجارية وأجلستها، وأخذت تخلع أساورها فى سرعة واضطراب، ثم مدت يدها بها إلى الجارية قائلة، وهى لا تستطيع أن تسيطر على مشاعرها:

خذى هذه الأساور لك .. هذه لبشارتك.

أخذت الجارية الأساور فرحة، وانطلقت خارج المنزل، بينما وقفت رملة بنت أبى سفيان لا تدرى أتضحك أم تبكى، لا تصدق نفسها، تشعر وكأنها فى حالة بين الحلم والواقع، أو بين الحقيقة والخيال.

وظلت رملة على حالها هذه لدقائق، حتى هدأت ونظرت إلى السماء، لتتذكر دعاءها وتضرعها إلى ربها، وأن اللـه قد أكرمها على صبرها بما لم تحلم به على الإطلاق.

هذا ما وصل رملة حتى الآن ..

لكن اللـه كان لديه أكثر مما لم تعلمه بعد.

ففى اليوم التالى .. أرسل النجاشى إليها وإلى جعفر بن أبى طالب، وإلى الصحابة جميعًا، ليقف النجاشى أمامهم قائلًا لرملة وهو يبتسم:

يا رملة .. إن رسول الله قد طلب الزواج منك، فمن ترضينه وكيلًا عنك.

ظهر الخجل على رملة، وهى تطأطئ رأسها قائلة بصوت منخفض:

أوكل عنى خالد بن سعيد؛ فهو قريب لى.

وهنا رفع النجاشى صوته فى الحضور قائلًا:

وأنا أمهر لرسول الله بأربعمائة درهم.

وعم الفرح الجميع، وحمد الله الجميع على تعويض الله لأم حبيبة، وأخذ الصحابة يتحدثون فى ثنائيات فرحين بما حدث، وقبل أن يهموا بالانصراف، هتف فيهم النجاشى الذى بدا أنه لم يقل فرحًا عنهم، قائلا:

أين ستذهبون؟ إنى أعلم أنه من سنن الأنبياء، أنهم إذا تزوجوا أولموا ..

وقف الصحابة بينما هو يتابع:

وأنا أولم لأم حبيبة.

وأمر النجاشى على الفور بذبح الذبائح، وتضاعفت البهجة بين الجميع لفعل النجاشى.

كان كرم الله على أم حبيبة كبيرًا ..

فلقد عوضها الله برسول الله جزاء جهادها وصبرها، وأعلى كرامتها بتوسط ملك الحبشة بنفسه فى زواجها، وجعل لزواجها صدى إعلاميًا واسعًا، بما أعطى النجاشى من مهر، وبما ذبح من ذبائح.

كان هذا مما رأته وعرفته أم حبيبة، ولكن الذى لم تره ولم تعرفه، أن هذا لم يحدث لأى زوجة من زوجات الرسول قط، فمهرها كان أغلى مهر، ولم يذبح فى وليمتها كما ذبح لغيرها.



لقد كان كرم اللـه عليها عظيمًا، وكان تعويضه لامرأة كسرتها الأيـام، وأذلتهـا المحنـة، وهـى صابرة محتسبة، كرمًا ملأ قلبها سعادة لا توصف، وملأ نفسها عزة تكفى الدنيا كلها.

لقد كانت مع اللـه، فكان اللـه معها.

أما الجارية، فكانت أم حبيبة تعطيها من الهدايا والعطور كلما رأتها.

الآن أصبحت أم حبيبة زوجة لرسول اللـه، لكن الرسول لم يأمر بطلبهـا بعـد، فلقـد آثـر أن يأتى كل المهاجرين إلى الحبشة دفعة واحدة.

إلا أن الخبر كان قد طار بالفعل باتجاه مكة، حيث أبيها .. أبي سفيان.

* * *

كانت كل المقدمات تقول إن أبا سفيان سيثور ثورة عارمة عندما يصله خبر زواج ابنتـه مـن عدوه اللدود، وأن الأمر قد يدفعـه إلى أن يهـاجر إلى الحبشـة نفسـها، ليعاقـب ابنتـه عـلى مـا فعلت، أو أن الغل سيفتك به ليحرك مشاعره نحو أفعال انتقامية من المسلمين فى مكة.

لكن شيئًا من هذا لم يحدث، وموقف أبى سفيان من زواج ابنته من رسول اللـه، كان يثبـت قاعدة أن النفس الإنسانية لغز كبير، لا يعرف سرها إلا خالقها.

لقد كان موقف أبى سفيان لا يصدق ..

لقد فرح أبو سفيان فرحًا شديدًا لزواج ابنته من الرسول، واعترف بعد إسلامه اعترافًا عجيبًـا كان يقول فيه:

إن أول ما أثر قلبى للإسلام، هو زواج ابنتى من الرسول.

لقد امتد كرم اللـه على أم حبيبة أن جعل زواجها من رسول اللـه سببًا مـن أسـباب إسـلام أبيها.

وتمكث أم حبيبة فى الحبشة، تنتظـر يـوم اللقـاء، خمـس سـنوات، وهـى تحلـم برؤيـة نبـى اللـه..

زوجها.

وتمر الأيام تلو الأيام، حتى يأتى الموعد، ويأتى أمر رسول الـلـه بالهجرة إلى المدينة، وتشـعر أم حبيبة بشعور العروس التى تزف إلى زوجها، ويرسل إليها النجـاشى الملـك العـادل الكـريم عـددًا كبيرًا من العطور هدية زواجها.

وانطلقت أم حبيبة من الحبشة إلى المدينة، لتلتقى برسول الـلـه، وهو عائد من نصر عظـيم فى معركة خيبر، انتصر فيها الرسول انتصارًا كاسحًا على اليهود.

لا زالـت نفحـات السـماء تهـب عـلى أم حبيبـة لا تنقطـع، ولا زال الكـرم غزيـرًا، ولا زالـت السعادة تتدفق على القلب الذى تحمل كثيرًا.

إلا أن شيئًا ما سيجرح تلك السعادة، وينغص عليها بين الحين والآخر .. أبوها.. أبو سفيان ..

بدأت تعانى أم حبيبة من ذلك الصراع النفسى الرهيب، بين عاطفتها نحـو أبيهـا الـذى تحبـه بحكم الفطرة، وبين عاطفتها نحو زوجها الذى تحبه كزوج ونبى.

كيف تحب الاثنين وهما عدوان، وأبوها يحارب زوجها، ويكيد لدينـه كيـدًا تعرفـه الجزيـرة العربية كلها؟

كانت الأفكار تشغل حيزًا فى رأس أم حبيبة، تسكن أحيانًـا، لكنهـا تثـور ثـورة عارمـة أحيانًـا أخرى، وتحولت هذه الأفكار إلى تساؤلات على ألسنة الصحابة ..

لمن يكون ولاء أم حبيبة؟ .. لزوجها رسول الـلـه؟ أم لأبيها الذى يعـادى الإسـلام والمسـلمين؟ ظل السؤال السخيف يتردد والإجابة غائبة، إلى أن جاء اليوم الذى حسمت فيه الأمور ..

فلقد ذهب أبو سفيان إلى المدينة؛ كى يمد صلح الحديبية مع الرسول، وسأل عن بيت النبـى، ولما وصل إلى البيت، لم يكـن الرسـول موجـودًا، ودخـل عـلى ابنتـه، وتلاقـت العيـون، وتحركـت النظرات بين الوحشة والشوق والعتاب ..

كان الحديث الصمت فيه أكثر من الكلام، المشـاعر مـترددة، والقلـوب متأرجحـة، والنفـوس تتنازع بين الحب والغضب ..

كان الموقف مجهدًا للطرفين، وكان أبـو سـفيان فى حاجـة إلى أن يسـتريح، فاتجـه إلى فـراش الرسول ليهم بالجلوس، لكن فاجأته ابنته بما لم يتوقع أبدًا ..

لقد اندفعت بسرعة لتسحب الفراش من تحته قبل أن يجلس عليه.

وهنا نظر إليها أبوها فى دهشة قائلًا:

يا بنية .. أرغبت به عنى أم رغبت عنى منه، فقالت: بل رغبت بـه عنـك، أنـت رجـل كـافر نجس، وهذا فراش رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم .

دقت الكلمات كالمطرقة على رأس أبيها، فى نفس الوقت الذى تعالى صداها فى المدينة كلهـا، لتعلن أم حبيبة أخيرًا عن الإجابة الشافية، ويتوقف الجميع عن السؤال..

لمن يكون ولاء أم حبيبة .. لزوجها رسول الـلـه؟ أم لأبيها الذى يعادى الإسلام والمسلمين؟

سيظل ولاء أم حبية لرسولها ولزوجها ولربها ولدينها، ولا شىء غيرهم.

أراحت أم حبيبة الجميع، لتكمل رحلتها مع الرسول، لكن الرحلـة لم تكتمـل معـه أكـثر مـن أربع سنوات فقط ..

وعندها جاءت لحظة الفراق، وأخذت أم حبيبة تنظر إلى زوجهـا وحبيبهـا فى مرضـه الأخـير، وهى تتذكر نفسها عندما كانت وحيدة كسيرة ضائعة فى بلد غريب، لا تقوى أن ترفـع عينهـا فى أحد، أو تفتح بابها لأحد، فإذا به يرفعها إلى أعلى عليين ..

أخذت تنظر إليه وتتذكر، وتقترب منه، وهى تبتسم مداعبة له، والدموع تترقـرق فى عينيهـا، وهو تقول:

يا رسول الـلـه .. جارية النجاشى تهديك السلام.

بعد بقليل .. انهمرت الدموع من عينيها، وأغمضت عينى حبيبها، الذى أعـاد إليهـا كرامتهـا بين الناس، فلقد أراده الـلـه إلى جواره.

و تكمل أم حبيبة رحلتها مع الذكريات ومع زوجات الرسول، وتستمر الحياة بينهم كما تستمر بين كل البشر، حب ومودة، وأحاديث جميلة، خلافات أحيانًا وغيرة أحيانًا.

لكن الحب الطاهر بين زوجات الرسول كان أقوى من كل خلاف .. وعندما اقتربت النهاية .. أتت أم حبيبة بالسيدة عائشة، وقالت لها:

يا عائشة .. قد كان يحدث بينى وبينك ما يحدث بين الضرائر، سامحينى يا عائشة، فإنى قد سامحتك، فإنى سألقى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأحب أن ألقى النبى صلى الله عليه وسلم وليس بينى وبين أحد من نساء النبى أى صغيرة من صغائر الدنيا، فحللينى يا عائشة إن كنت قد أخطأت..

فقالت عائشة: سامحتك غفر الله لك ولى ..

فقالت أم حبيبة: سررتينى أسرك الله.

وكانت هذه آخر كلمات أم حبيبة، فلقد أرادت أن تلقى حبيبها وزوجها ونبيها، وهو راض عنها، بريئة من شكوى تشكوها إليه عائشة فى الجنة ..

لقد أرادت أن ترد شيئًا من الجميل، قبل أن تنتهى الرحلة الطويلة ..

وداعا يا أمى .. سنتذكرك ونتذكر معك، أن الصبر نصف الإيمان .. وأن الله مع الصابرين.

* * *



دروس وتحليل

1- من كان مع الله، فلن يضيعه الله (أم حبيبة ضحت وتحملت، وهاجرت فى سبيل الله، وارتد زوجها فى الحبشة، فأكرمها الله بزواجها من رسول الله صلى الله عليه وسلم):

إذا أقدمت على عمل وكانت نيتك أن ترضى الله، أو كان الدافع خوفك من الله، ثم أوذيت بعد هذا العمل، سواء وقع الإيذاء على زوجة من زوجها أو مرءوس من رئيسه، فتأكد أن الله لن يتركك، وأن الله سيعوضك .. ربما يتأخر الأمر قليلًا، لكن سنة الله فى عباده، أن الله لا يضيع من يتحمل الأذى فى سبيله أو يضحى من أجله ولو بعد حين، هكذا وقف الله مع السيدة أم حبيبة، لتتزوج من رسول الله بعد أن ارتد زوجها، وهكذا فهمت السيدة خديجة بفطرتها وطمأنت زوجها رسول الله، بعد أن نزل مفزوعًا من غار حراء بعد نزول الوحى عليه، قائلة فى ثقة: والله لن يضيعك الله أبدًا، وهكذا ينبغى أن نثق بربنا، وأنه لن يتركنا أبدًا، وأنه يتذكرنا دومًا، وسيقف بجانبنا وسيعوضنا عما أوذينا، المهم أن نخلص النيه لله فى أعمالنا، وأن نصل ما فقد بيننا وبينه، وأن نتذكره كى يتذكرنا.

2- البر لا يبلى، وفعل الخير يؤثر حتى فى الأعداء والكارهين (أبو سفيان يتأثر بما فعله النبى مع ابنته، وكان تمهيدًا لدخوله الإسلام فيما بعد):

فعل الخير دائمًا يمتد أثره مهما كان ضعيفًا، وأثره لا يمتد للأحباء أو الأصدقاء فقط، بل يمتد للأعداء والكارهين؛ لذا كان لفضيلة الرحمة مكانة كبيرة فى الإسلام؛ حتى لا يتحول العداء إلى منهج للانتقام ممن يكرهوننا، بل يكون التعامل على أساس العدل والرحمة، دون ضعف أو ذلة، فتعطى من يكرهك مساحة للتأمل والرجوع .. وفيما يخص الأحباب والأصدقاء، فكثيرًا ما قابلنا أشخاص بعد سنوات ليذكرونا بفعل خير نسيناه ويشكرونا عليه، ويذكرونا بكلمة قلناها بتلقائية، لكنها أثرت فيهم وغيرت من تفكيرهم، فليكن فعل الخير منهجًا فى التعامل، ولنوقن أنه سيكون له أثره، إن لم يكن الآن فسيكون غدًا، وسيمتد أثره إلى أبعد مما نتصور.

3- الإيمان درجات، والإيمان الحق يدفعنا إلى أن نحب اللــه ورسوله أكثر من الأم والأب والأبناء والإخوة والأصدقاء (أم حبيبة، ترفض أن يجلس والدها على فراش الرسول صلى اللــه عليه وسلم):

كيف نعرف أننا وصلنا إلى درجة عالية من الإيمان، وأن الصلة بيننا وبين اللـه قد أصبحت قوية؟ نعرف ذلك عندما يصبح حبنا لله أقوى من حبنا للأم والأب والأبناء والإخوة والأصدقاء .. كل هؤلاء نحبهم، ونعتز بهم ونحترمهم، ولكن حبنا لهم لا يدفعنا أن نرتكب معصية أو نتخذ قرارًا يغضب اللـه، أو نتشارك معهم فى عمل لا يرضى اللـه عنه؛ لأننا إذا كنا نحبهم فإننا نحب اللـه أكثر، وليس معنى أن نفضل حب اللـه على هؤلاء، أن نعاملهم بغلظة وجفاء - وبخاصة الأب والأم - بل يستمر تعاملنا معهم بكل الأدب والذوق الذى علمنا إياه الإسلام، ولكن فلتكن شخصيتنا قوية، بحيث نعرف متى تقول " لا " لن أفعل ذلك؛ لأن هذا حرام وسيغضب اللــه، دون تهجم أو نية للصدام أو القطيعة.

4- الإسلام يعلمنا محاسبة النفس وثقافة الاعتذار (أم حبيبة تعتذر للسيدة عائشة عما بدر منها، وتطلب منها أن تسامحها قبل وفاتها):

يعودنا الإسلام دائمًا أن نحاسب أنفسنا، وأن نتذكر ما فعلناه وما قلناه (حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا،وزنوا أعمالكم قبل أن توزن عليكم)، فإن كان الذنب فى حق اللــه استغفرنا وتبنا إليه، وعزمنا على ألا نعود، وإذا كان الخطأ فى حق البشر اعتذرنا عنه وأعدنا الحق لأصحابه ..

إن الإسلام يدربنا دائمًا على مواجهة النفس بأخطائها، والاعتذار عما بدر منها من خطأ؛ حتى يغفر اللـه لنا، وهى طريقة نطهر بها أنفسنا أولا بأول، ونصحح بها أخطاءنا، ونصلح بها العلاقات الإنسانية مع أهلنا وأصدقائنا، ومع الوقت تقل أخطاؤنا، وتتحسن علاقاتنا الاجتماعية، ونكون أقدر على ضبط النفس والتحكم فيها.

* * *

مارية بنت شمعون

جارية من مصر

مارية بنت شمعون

جارية من مصر

" من محمد رسول اللـه إلى المقوقس عظيم مصر أسلم تسلم، وإلا فإن عليك إثم الفلاحين وإثم المصريين وإثم القبط، (قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللـهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللـهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ {64/3}) [آل عمران] ..

أرخى المقوقس حاكم مصر يده وأغمض عينيه، بعد أن أنهى قراءة الرسالة التى أرسلها إليه الرسول، ضمن المكاتبات التى كان يرسلها الرسول للملوك والأمراء فى السنة السابعة من الهجرة، حيث أخذ المقوقس الرسالة التى أرسلت له مع حاطب بن أبى بلتعة، ليقرأها بعناية، ثم يقول بعد أن أغمض عينيه للحظات:

كنت أعلم ..

قال له: حاطب بن أبى بلتعه متسائلًا:

كنت تعلم ماذا يا سيدى؟

نظر المقوقس إلى حاطب قائلًا:

إنه نبى آخر الزمان ..

قال حاطب:

نعم سيدى .. إنه خاتم الأنبياء، أرسله اللـه هداية للعالمين ..

تابع المقوقس:

كنت أظن أنه سيخرج من الشام مثل باقى الأنبياء، لكنه خرج من العرب ..

قال حاطب:

أنت تصدقه إذن سيدى ..

قال المقوقس:

سأرسل معك إلى رسول الـلـه رسالة وهدية .. ثم أشار إلى أحد جنوده ليأمره بأن يكتب ما يمليه عليه، قائلًا:

اكتب عندك ..

ثم تابع:

إننى قد وصلنى رسولك، ألا وإننى قد قرأت كتابك وفهمت ما فيه، وقد كنت أظن أن نبى آخر الزمان يخرج من جانب الشام، ألا وإنه قد خرج من جانب العرب، فإنى أصدقك، وإنى لا أستطيع أن أكون معك، وإنى أرسل إليك بهدية، وهى عشرين قطعة من نسيج مصر، وعسل من منطقة بنها، وجاريتين .. مارية وسيرين من أفضل الجوارى التى عندنا ..

كانت أزمة المقوقس أنه يصدق بنبوة الرسول، ولكنه لا يستطيع أن يؤمن به؛ لأنه يدرك أن إسلامه يعنى حدوث اضطرابات .. كثيرون كانوا يعرفون الحقيقة لكنهم غير قادرين على اتباعها، إلا أن المقوقس قرر أن يكسب الموقف سياسيًّا، ليرسل الهدايا إلى الرسول ..

إلا أنه لم يكن فى حسبانه أن إحدى هذه الهدايا سيكون لها ذلك الأثر فى التاريخ، أو أن تصل إلى هذه المكانة العظيمة.

كان الحزن يخيم على مارية وسيرين .. الجاريتين اللتين أرسلهما المقوقس إلى الرسول، وهما فى طريقهما إلى المدينة بصحبة حاطب بن أبى بلتعة ..

طبيعى أن تشعر الفتاتان بالحزن؛ لتركهما بلدهما مصر بأمر الحاكم؛ للخدمة لدى رجل له ديانة أخرى غير المسيحية ..

طبيعى أن تشعر الفتاتان بالقلق على مصيرهما، الذى سيبدأ فى بلد غريب مع قوم غرباء لا يعرفانهم، ولا يعرفان سلوكهم، ولا يعرفان كيف سينظرون إلى خادمة آتية من بلد غريب، وعلى غير دينهم.

ولاحظ حاطب بن أبى بلتعة ما تشعر به الفتاتان، فحاول أن يسرى عنهما بحاسة الداعية الخبير، ونظر إلى المشهد، فوجده نفس المشهد الذى تكرر منذ آلاف السنين مع السيدة هاجر وسيدنا إبراهيم ..

وأخذ يحكى لهما ..

كانت هناك سيدة مصرية اسمها هاجر، كانت تعمل فى قصر ملك مصر، وعندما جاء إبراهيم إلى مصر أساء إليه الملك، ولكنه أحب بعدها أن يكسب وده، فأرسل إليه هاجر هدية له، فتزوجها إبراهيم وأنجب منها إسماعيل، ليصبح هو أبو العرب، ومن نسله يأتى نبى آخر الزمان، وتصبح هاجر رمزًا من رموز العرب، ومن أجلها نسعى بين الصفا والمروة سبع مرات إذا ذهبنا إلى الحج.

تسلل الكلام إلى قلب الفتاتين، وبدأت ملامحمها تتغير إلى الأفضل، وبدآ يشعران بشىء من الطمأنينة، وكانوا قد وصلوا على مشارف المدينة ..

ويذهب حاطب إلى الرسول ويحكى له ما حدث، ويأمر النبى بدخول الفتاتين عليه، وبعد حديث معهما، يعرض الرسول عليهما الإسلام ..

كان حديث حاطب لهما مؤثرًا إلى الدرجة التى قبلت الفتاتات الدخول فى دين الإسلام بمجرد عرض الرسول، لتصبح الفتاتان مسلمتين، ليعرض الرسول بعدها عرضًا مفاجئًا على مارية لم تكن تتوقعه، ولم يكن يتوقعه أحد على الإطلاق ..

لقد عرض عليها الزواج.

وكانت مفاجأة للجميع.

* * *

كان غريبًا على المسلمين أن يتخذ الرسول قرارًا بالزواج من جارية كانت قبطية منذ قليل، وكانت رؤية الرسول الذى شارف على الستين فى هذا الوقت، أن الزواج من مارية سيدعم التواصل مع أهل مصر، بعد علاقة المصاهرة بين الرسول ومارية المصرية، وسيفتح بعدها طريقًا للإسلام فى هذا البلد المهم.



كان الرسول يريد أيضًا أن يقر مبدأ مهمًّا، وهو أن الإسلام يجب ما قبله، وأن دخول مارية الإسلام جعلها أختًا لكل المسلمين، لا ينبغى أن نتحدث عنها بسوء، أو نتقول عليها لأنها كانت على غير ديانة الإسلام.

إلا أن فطرة النساء كانت غالبة فى بعض الأحيان، زاد على ذلك أن لسان مارية العذب حرك بعض مشاعر الغيرة لدى بعض زوجات الرسول، مثل عائشة، فلقد لاحظت أن الرسول يكثر من الجلوس مع مارية، وكانت تقول:

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم يحبها لحلاوة لسانها، وتقول: كان لها لسان حلو الكلام كلسان المصريين.

كان الرسول يتفهم موقف مارية ومعنوياتها، فمارية تهاجمها مشاعر الغربة من ناحية، ومشاهد التعجب والاستغراب من ناحية أخرى، الحديث الخفى عن عملها كجارية وديانتها المسيحية، إضافة إلى الاختلاف الطبيعى بين أهل مصر وأهل الجزيرة.

من أجل ذلك كله كان الرسول يريد أن يكسرعنها وحدتها النفسية، ويخفف من حدة مشاعرها السلبية، ولأن النبى كان متفهمًا ظروفها المختلفة، فلقد جعل لها بيتًا فى منطقة العوالى، وهى منطقة ريفية مليئة بالشجر والنخيل والتمر وينابيع الماء .. هى منطقة شبيهة لطبيعة مصر الريفية .. أرض النيل، بخلاف طبيعة الجزيرة الصحراوية التى تعتاد عليها باقى زوجات الرسول.

ومرت الأيام على مارية، وهى تشعر أن الأمور تتحسن يومًا بعد يوم، ولكنها مع ذلك كانت تشعر بشىء آخر غريب، وغير متوقع على الإطلاق.

لقد شعرت أن شيئًا يتحرك فى أحشائها.

وظلت الأسئلة تدق عليها الأبواب من كل اتجاه ..

هل ما أشعر به صحيح بالفعل، أم أنه مجرد شعور كاذب؟ كيف أحمل من رسول الله وهو فى هذه السن؟ هل أقول للرسول الآن أم أصبر قليلًا حتى أتأكد؟

هل كلام حاطب بن أبى بلتعة سيتحقق، وتعود قصة هاجر المصرية من جديد؟

وبعد تفكير طويل قررت مارية أن تصبر ولا تتعجل فى إخبار الرسول حتى تتأكد، وظلت على هذه الحال ثلاثة أشهر، حتى تأكدت من حملها ..

وهنا أخبرت الرسول بالخبر السعيد ..

وطار الرسول فرحًا، فلقد كانت أول من ينجب للرسول بعد أن أنجبت خديجة ثلاثة أطفال ماتوا جميعًا، وظل بعدها الرسول لم ينجب من زوجاته، وتقدم به العمر حتى أصبح الأمر قريبًا من المستحيل ..

إلا أن الله شاء، فنفذت إرادته بمولد ابن الرسول ..

إبراهيم ..

لعل الرسول سماه هذا الاسم لأنه أعاد قصة سيدنا إبراهيم مع السيدة هاجر.

ويحمل الرسول طفله الوليد، وأخذ يمر على بيوت الصحابة، ويقول لهم فى فرح شديد:

انظروا إلى ابنى إبراهيم ..

وتعتنى مارية بإبراهيم مع أختها سيرين، ويرى الرسول إبراهيم يكبر يومًا بعد يوم، وتتغير ملامحه، ويخرج بعض الحروف الجميلة من لسانه، ويلوح بيديه بحركات يعشقها الآباء والأمهات .. إنه سن البراءة الذى يزيل هم الكبار ويدخل عليهم السرور والسعادة..

لقد وصل سن إبراهيم إلى عام ونصف ..

لكن شاء الله بعدها، أن يتوقف اللسان عن نطق الحروف الجميلة، وأن تتوقف حركات البراءة وإشارات الأيدى الصغيرة.

لقد بدأ المرض يتسلل إلى إبراهيم، وأخذ يشتد حدة مع مرور الوقت، وتبلغ مارية النبى بما وصل إليه إبراهيم، فيهرع إلى العوالى ليجد إبراهيم يئن من الألم فى حجر أمه، وينظر الرسول إليه متألمًا، ويدرك أنه فى مراحل المرض الأخيرة، فيحمله بين ذراعيه، ويتبادل الاثنان النظرات الأخيرة ..



وتأتى لحظة الوداع ..

ويغمض إبراهيم عيينه، ويبكى الرسول، وتبكى مارية، وتبكى سيرين، ويقول الرسـول فى حـزن بالغ:

" يا إبراهيم .. إنا والـلـه لا نغنى عنك من الـلـه شيئًا، ولا نملك لك من الـلـه شيئًا.."

ثم يقول:

" إن العين لتدمع وإن القلب ليحزن، ولا نقول إلا ما يـرضى ربنـا، وإنـا لفراقـك يـا إبـراهيم لمحزونون ".

ولم يستطع الرسول أن يتحمل أن يغسل ابنه، فغسله الفضيل بن عباس، ليدفن فى البقيع ..

وينظر عمر للرسول وهو يبكى، فيرق له عمر، ويقول فى شفقة:

أتبكى يا رسول الـلـه؟

يرد عليه الرسول ودموعه تسرح فى وجهه:

" نعم يا عمر .. تلك رحمة يجعلها الـلـه فى قلوب عباده المؤمنين ".

كان موت إبراهيم صدمة للجميع، ولكنها لم تكن آخر الصـدمات .. فبعـد ثلاثـة أشـهر مـن وفاة إبراهيم كانت صدمة المسلمين أكبر من أن تحتمل ..

فلقد توفى رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم وكأن الرسـول لم يتحمـل فـراق ابنـه الصـغير، فذهب إليه سريعًا ..

وبقيت مارية وحيدة، فلقد فقدت ابنها الصغير، الذى كان يملأ عليها حياتها، وفقدت زوجها الذى كان يؤنسها ويفهمها.

ولم تحتمل مارية أن تبقى وحيدة طويلًا، فلقد توفيت بعد وفاة الرسول بستة أشهر، ليلتقى الثلاثة فى الجنة، ويكملوا حياتهم الجديدة دون عناء.

رحمك الـلـه يا أمى ..

وادع لنا أن نلحق بك، وبرسول الـلـه وبإبراهيم.

* * *

دروس وتحليل

1- الحرص على مشاعر الآخرين، حتى وإن كانوا غير مسلمين، من آداب الإسلام وذوقياته العالية (حاطب بن أبى بلتعة يحكى قصة السيدة هاجر لمارية وسيرين فى الطريق؛ للتخفيف من أثر الغربة عليهما):

من آداب الإسلام وذوقياته العالية أنه يدعونا إلى الحرص على مشاعر الآخرين، حتى وإن كانوا غير مسلمين، وذلك بأن ننتقى ألفاظنا، ونتأكد من أنها مناسبة للشخص والموقف قبل أن ننطق بها؛ لذا حثنا الإسلام أن ندعو الناس بأحب الأسماء إليهم؛ حتى نسعدهم ونرفع من معنوياتهم .. للأسف كثير من الناس لا يتحسس كلامه، وهو يتحدث إلى الآخرين، وهو لا يدرى أنه فى طيات كلامه، يؤذى مشاعرهم بكلمة سخرية أو اتهام غير صحيح، ويترتب على هذه الكلمة تأثير سيئ فى النفس، قد لا يدركه المتحدث فى حينه؛ لأنه لا يتخير كلماته، ولا يكترث لمشاعر الآخرين.

علينا أن نتحسس كلماتنا فى خطابنا مع الآخرين، ونحاول أن نخفف عنهم ونرفع معنوياتهم قدر الإمكان، هكذا يعلمنا حاطب بن أبى بلتعة، وهكذا يعلمنا الإسلام الجميل ..

2- حديث القلب أقصر من حديث العقل فى إقناع الآخرين، والدمج بينهما مطلوب (حاطب يخفف عن مارية وسيرين فى الطريق، فيسلمون فور وصولهم إلى المدينة دون مناقشات تبين أفضلية الإسلام على المسيحية):

قد يتمكن شخص ما من قضية معينة، ويلم بكل المعلومات والأسانيد والدلائل التى يستطيع أن يفحم بها الآخرين، لكنه مع ذلك لا يفلح فى إقناع الناس بوجهة نظره، ذلك أن فنيات الحوار تتطلب الموازنة بين القلب والعقل، حيث تتداخل المشاعر والأحاسيس فى ثنايا الأدلة والحجج المنطقية، وحديث القلب يعنى الحوار فى إطار من المحبة والتقدير والاحترام، وكلمات الثناء على الطرف الآخر أثناء الحوار، واحترام عقله ورأيه ووجهة



نظره، بعدها تؤتى الحجج أثرها فى الإقناع، وبدون ذلك يتحول الأمر إلى مناظرة، لن يقبل فيها أى طرف الهزيمة والاعتراف، حتى ولو رأى الحجج والبراهين تتحرك أمام عينيه.

3- لماذا تزوج الرسول من مارية؟

كان السبب الأول من زواج الرسول من مارية، هو إيجاد علاقة نسب بين الرسول والمصريين؛ مما يسهل قبول المصريين للإسلام ودخولهم فيه، والرسول كان يرى أن مصر ستضيف كثيراً للإسلام؛ لطبيعة أهلها ومكانها الجغرافى، وعدد سكانها، ولذلك قال عنها:

" إذا دخلتم مصر فاتخذوا منها جندًا كثيرين؛ فإنهم خير أجناد الأرض، وإنهم فى رباط إلى يوم القيامة " .. وفى حديث آخر قاله النبى صلى الله عليه وسلم قبل أن يموت: " إذا دخلتم مصر فأوصيكم بأهل مصر خيرًا فإن لهم نسبًا وصهرًا ".

والسبب الثانى هو رسالة للمسلمين، أن الإسلام يجب ما قبله، وأنه من اللحظة التى يعلن فيها شخص ما إسلامه، فيجب أن تنشأ علاقة جديدة معه، سواء أكان مسيحيًّا أو يهوديًّا؛ ولذا أصبحت مارية أمًّا للمؤمنين، وقد كانت مسيحية، وأصبحت صفية بنت حيى أمًّا للمؤمنين، وقد كانت يهودية.

4- التيسير فى ماديات الزواج مطلوب، ولكن على الفتاة أن تعى جيدًا المستوى الاجتماعى الذى ستنتقل إليه (الرسول يخصص بيتًا لمارية فى العوالى (ريف المدينة)؛ لأن مارية لا تتحمل جو الصحراء):

المال عنصر مهم فى الزواج، ولكن سيكون من الخطأ التعامل معه على أنه السبب الوحيد والرئيسى لنجاح الزواج، وفى نفس الوقت لا يمكن إغفاله تمامًا، والاكتفاء بعنصر الخلق والدين، وكأنه غير موجود .. المطلوب التوازن، وأن تعرف الفتاة جيدًا ما هو المستوى الاجتماعى الذى ستنتقل إليه، وإذا قل مستوى المعيشة عن المستوى الذى تعتاد عليه، فلتسأل نفسها: هل تستطيع أن تتحمل المستوى الجديد أم لا؟



5- الدنيا دار ابتلاء وليست دار استقرار، فلنصبر على ما نبتلى به، ونصبر ونرضى بقضاء اللـه (إبراهيم ابن الرسول من مارية، يتوفى في عمر عام ونصف):

سنبتلى طالما كنا في هذه الدنيا، وستتقلب الأيام بين الحلو والمر، وسيكرمنا اللـه بأحداث سعيدة، تثلج صدرونا، وترسم البسمة على شفاهنا، ثم تأتى حوادث تزعجنا وتحزننا وتبكينا، وهذه هى الدنيا .. علينا أن نفهمها، فنشكر اللـه في السراء على نعمته لنا ورحمته بنا، وفي الضراء، نصبر ونحتسب ونرضى بقضائه، ونسأل اللـه الثبات والأجر، وننتظر منه أن نكون فائزين في مكان ليس فيه ابتلاءات ولا مصائب ولا حوادث ولا حزن ولا ألم ولا مشقة، في جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، اللـهم آمين.

* * *

ميمونة بنت الحارث

أخت المؤمنات

ميمونة بنت الحارث
أخت المؤمنات

" إذن قريش تمنعنا من اللحاق برسول الـلـه "

قالتها فى حزن بليغ ميمونة بنت الحارث لزوجها وزوج أختها العباس بن عبد المطلب بعد أن أخبرهما العباس أن قريشًا تمنعهم وغيرهم من المستضعفين من الهجرة إلى المدينة، واللحاق برسول الـلـه، ليرد عليها العباس بأسى:

نعم .. منعتنا من الخروج من مكة.

واستسلمت ميمونة وزوجها لقدرها، وعاشت هى وزوجها فى مكة، تنظر إلى المدينة من بعيد، وتشتاق إليها، تستمع إلى أخبارها يومًا بعد يوم، وتدعو الـلـه أن تكون من بين أهلها يومًا ..

كانت ميمونة تشعر يومًا بعد يوم أنها وحيدة غريبة، رغم وجودها فى بلدها مكة، وبين أهلها، وكانت تستأنس الحياة مع زوجها حتى يأذن الـلـه لهم بالخروج .. لكن الحياة قست عليها أكثر وأكثر ..

فلقد مات زوجها ..

وزاد عليها ألم الوحدة بعد ألم الغربة، وضاقت عليها الدنيا، وظلت تلجأ إلى ربها أن يفرج عليها ما بها ..

وتكفل بها زوج أختها العباس، وظل الجميع يعيشون فى مكة ينتظرون، إلى أن جاءت السنة السادسة من الهجرة لتحمل معها بداية الحل.

فلقد خرج الرسول والمسلمون فى هذه السنة من المدينة فى اتجاه مكة ..

خبر غريب ومذهل، فوجئ به قادة قريش فى إحدى أيام شهر ذى القعدة من السنة السادسة من الهجرة.



وأخذ الخبر يلف رءوسهم واحدًا واحدًا ...

ما الذى يريده محمد؟

وكيف وصلت به الجرأة، أن يأتى إلى بلادنا هو وأصحابه رغم كل ما حدث؟

وماذا يعنى أن يأتى ألف وأربعمائة رجل من المدينة إلى مكة فى هذا التوقيت؟

دارت الرءوس وكثر الجدال وتعددت الآراء، إلا أنهم اتفقوا على رأى واحد ..

لقد أقسموا ألا يدخل محمد وأصحابه مكة مهما كانت الأسباب.

كان الرسول قد أتى بالمسلمين إلى مكة ناويًا العمرة، والتى اتخذها وسيلة للتخطيط لحيلة سياسية بارعة، يحاول بها أن يكسب بها أرضًا جديدة للدعوة، عن طريق اتفاق سياسى للصلح بينه وبين قريش، يفتح المجال للدعوة، بعدما تعثرت فى الجزيرة العربية طيلة السنوات السابقة.

وكان كل ما تدركه قريش، أن دخول الرسول مكة، يعنى هزيمة نفسية وإعلامية لها أمام العرب.

وبعد تفكير .. بعثت بخالد بن الوليد ابن أخت ميمونة يناوشهم، إلا أن المعلومات تصل الرسول فى الوقت المناسب، ليقوم بتغيير طريقه.

وتبدأ قريش فى التفاوض لينتهى الأمر بعدة شروط، منها ألا يعتمر المسلمون فى هذا العام، على أن يأتى فى العام القادم.

ويجىء المسلمون فى العام التالى، لتبدأ قصة ميمونة مع الرسول.

فلقد سمع الرسول بقصتها، وعلم أنها كانت مستضعفة منعتها قريش من الخروج من مكة، وأن زوجها توفى، وأن لها خمسة من الأخوات المسلمات كان يطلق عليهن الأخوات المؤمنات، وأنها كبرت فى السن، ومن الصعب أن يتزوج بها أحد الآن ..

فقرر الرسول أن يتزوج بها؛ ليرحمها بعد وفاة زوجها، ويكرم عائلتها المؤمنة الصابرة، ويصبح زواجه من ميمونة بنت الحارث هو رابع زواج فى هذا العام، بعد السيدة صفية، والسيدة أم حبيبة والسيدة مارية المصرية.

زواج امرأة فى هذه الظروف، وفى هذه السن عبء كبير، لم يشأ الرسول أن يلقى به على أحد الصحابة، ليتحمله هو وفى سن الواحد والستين.

كانت قريش قد أعطت مهلة للمسلمين للمكوث فى مكة ثلاثة أيام، وفى اليوم الثالث كان زواج الرسول من ميمونة بنت الحارث.

ورغم حالة العداء بين المسلمين وقريش، حاول الرسول أن يلطف الأجواء؛ رغبة فى هدايتهم، لا لتصعيد العداء بينهم، فقال لسادة قريش فى لطف:

" لقد تزوجت منكم الليلة فهل تأذنون أن أبقى بينكم، فأصنع لكم وليمة فتأكلون ".. وكانت دعوة الرسول لزعماء قريش إلى وليمة، تعنى أن تمتد المهلة المقررة لنصف يوم آخر.. إلا أن زعماء قريش رفضوا، وأصروا أن يخرج الرسول والمسلمون فى الموعد المحدد، وقالوا بلهجة حادة متعجرفة:

اخرج من بيننا، فلا نريد منك وليمة، ويغضب سعد بن معاذ الذى كان واقفًا بجانب الرسول، قائلًا:

تقولون هذا واللـه الأرض لله، والأرض لنا، وستكون لنا.

وينظر إليه الرسول، ويقول له رفق:

"اسكت يا سعد، واعدناهم ثلاثة أيام، وقد انقضت" ..

ثم يتابع فى حزم:

"من كان يؤمن باللـه واليوم الآخر فلا تغرب عليه الشمس إلا وهو خارج مكة".

ويخرج الرسول من مكة فى الموعد المحدد، دون أن يبنى بزوجته ميمونة، حتى إذا نزل بمنطقة خارج مكة تسمى (سرف)، تبعد عن مكة خمسة عشر كيلو مترًا بنى بها.

وتصل ميمونة المدينة، أمًّا جديدة للمؤمنين، وهى تدرك كيف عوضها اللـه عن سنين صبرها وكرمها بشرف جوار النبى ..

لم تكن ميمونة جميلة، ولكنها كانت تملك مهارة، أتقنتها وأضافت إليها ميزة عوضت قلة جمالها .. مهارة الطهى ..

فلقد كانت السيدة ميمونة ماهرة فى إعداد الطعام، والتفـنن فى الأكـلات الجديـدة، ظهـرت هذه الميزة بشدة يومًا على خالد بن الوليد، ابن أختهـا، عنـدما كـان فى زيـارة للرسـول، فقامـت بطبخ حيوان الضب، وهو نوع من الزواحف، يعيش فى الصحراء، فقال لها الرسول:

" ما هذا يا ميمونة؟ "

قالت ميمونة: إنه لحم ضب:

فامتنع عنه الرسول؛ لأنه لا يعرفه، وهنا نظر إليه خالد، سائلًا:

أحرام هو يا رسول اللـه؟

قال له الرسول:

"لا .. ولكنه ليس من طعام قومى".

فنظر خالد بن الوليد إلى الطعام، وأخذ يأكله بحذر، ثم شعر بطعمه الطيـب، فأخـذ يزيـد من تناوله، وهو يتلذذ به حتى شبع.

لم تشعر ميمونة يومًا مع الرسول أنها ليسـت جميلـة، بـل كانـت تشـعر أنهـا سـيدة العـالم بمعاملة الرسول لها، وعطفه عليها، واحترامه لمشاعرها كأنثى، ومداعبته لها كفتـاة، حتـى كانـت تقول:

"كنت أغتسل أنا ورسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم فى إناء واحد، فأقول له دع لى، ويقـول لى دعى لى".

كان النبى بسيطًا رغم مشاغله العظيمة وهمومـه الكبـيرة، لا يتكـبر عـلى زوجاتـه، ولا يمـل منهم، ولا يضيق بهم تحت ضغط مسئولياته الجمة؛ لذلك كانوا يقتربون منـه ويتحـدثون معـه كثيرًا؛ لينقلوا للعامة أدق التفاصيل، وكان لميمونة نصيب منـه غـيرت بعـض المفـاهيم الخاطئـة عند الصحابة.

فلقد كان الصحابة يظنون أنه من المحرم لمس الزوجة وهى حائض، وأنه مـن المحـرم النـوم بجانبها فى الفراش إلا بعد أن تتوضأ، وعندما سمعت ميمونة ذلك تعجبت، وقالت:

من أين جئتم بهذا؟ والـلـه كان رسول الـلـه صـلى الـلــه عليـه وسـلم ينـام معـى فى فـراش واحد، وأنا حائض.

ثم تابعت متسائلة:

أنتم خير أم رسول الـلـه؟!

ومنذ هذه اللحظة، توقف المسلمون عن هذه العادة.

ربما لأن السيدة ميمونة عاشت فترة طويلة مستضعفة مقهورة، فتحول عندها هذا الشعور إلى عطف شديد على الفقراء والمساكين، فكانت تتصدق بسخاء على الفقـراء، حتـى أنهـا كانـت تقترض أحيانًا من أجلهم.

شعرت ميمونة بسنوات زواجها مع الرسول وكأنها سنوات خـارج الـزمن، منفصـلة عـن كـل سنين حياتها، كان حنان الرسول فياضًا ليفيض على زوجاته كلهم فى آن واحد، وكان عدله لا يـدع فرصة للظلم أن يخدشه معهن، وكانت سعادة ميمونة لا توصف.

لكنها الحياة .. لا تستمر السعادة معها إلى الأبد.

فبعد أربع سنوات من رفقتها برسول الـلـه، أراد الـلـه لقاءه، وودعته هى بحزن ليس كمثله حزن، لتكمل حياتها وحيدة كما كانت، تحمل رسالته، وتعيد ذكرياته وتترقب لقاءه.

ثلاثون عامًا وميمونة تتذكر وتترقب .. حتى جاء الموعد.

ففى العام الواحد والستين من الهجرة، ذهبت ميمونة إلى الحج فى مكة، وهـى تحمـل عـلى كاهلها خمسة وثمانين عامًا، كانت تسير فى الطريق إلى مكة، وتتـذكر صـور زفافهـا مـع الرسـول، وقصة زواجها الغريبة. لقد شهد هذا المكان بداية حياة جديدة سعيدة، لم تحلم بهـا، وهـا هـو نفس المكان يشهد النهاية.

ففـــى مكـــة، قضى الـلـــه أمـــرًا، وأراد الـلــــه لقـــاء ميمونـــة، لتتحقـــق أمنيتهـــا فى لقـــاء زوجها، وتكمل معه ما بـدآه فى الجنـة، فلـم تكـن أربـع سـنوات كافيـة أبـدًا للعـيش مـع زوج كالرسول.

وداعًا يا أمى ميمونة ..

وننتظر لقاءك فى الجنة، لتحكى لنا عن زواجك وحياتك أكثر وأكثر.

دروس وتحليل

1- لماذا تزوج الرسول من ميمونة بنت الحارث؟:

فى السنة السابعة من الهجرة جاء الرسول ومعه ألف وأربعمائة من الصحابة، يـؤدون عمـرة القضاء كما كان الاتفاق فى صلح الحديبية، وعلم الرسول بأمر ميمونة، بأن زوجها توفى، وكان قد أسلم وقت الهجرة ومنعته قريش من الهجرة لمكة، وبعد وفاته لم تستطع ميمونة الخـروج مـن مكة، ليكفلها العباس بن عبد المطلب .. كانت ميمونة وأخواتها من المؤمنـات، حتـى أنهـن كـن يسمين الأخوات المؤمنات.

كانت ميمونة فى هذا الوقت تبلغ من العمر 31 عامًا، وكان الرسول يبلغ مـن العمـر سـتين عامًا، ولم تكـن ميمونـة جميلـة، وكـان مـن الصـعب أن يطلـب الرسـول مـن أحـد الصحابة أن يتزوجها، فرأى الرسول أن يتزوجها؛ تكريمًا لها على صبرها وإيمانها.

2- الإسلام رسالة هداية وحب، وليست رسـالة عـداء وانتقـام (المشركـون يرفضـون بقـاء الرسول فى مكة نصف ليلة أخرى لزواجه من ميمونة، والرسول يوافق على الخروج بهدوء):

الإسلام يتعامل مع أعدائه أو من يكرهونه بمنطق الرغبة فى الهداية، وليس بمنطـق التشـفى والانتقام، وهذا المنطق يحتاج إلى صبر على الإيذاء والحلم، ولكن بعزة وكرامـة وتمسـك بالمبـدأ، فإذا جاءت لحظة النصر كان التواضع والرحمة والبعد عن الكبر والتعالى، وساعتها ستكون هناك فرصة للآخرين للهداية، ونكون بذلك قد حققنا الهدف من الإسلام، أن نهـدى النـاس وننقـذهم من النار.

3- كل واحد فينا لديه ميزة عليه أن يبحث عنها ويستغلها ويفيد الناس بها، لتتوازن مع عيوبه ونواقصه (السيدة ميمونة لم تكن جميلة، ولكنها كانت تتميز فى الطهى):

لم يترك الـلـه إنسانًا إلا وجعل فيه موهبة وميزة يستطيع بها أن ينفع نفسه وينفـع النـاس،

وطبيعى أيضًا أن يكون كل واحد فينا عيوبه، ولكن من الذكاء ألا يستسلم الإنسان لعيوبه، ليجعلها تهزمه وتصيبه بالإحباط واليأس وتقلل من قدرته على الإنجاز، ومن هذه العيوب قد تكون عيوب لا دخل للإنسان بها، كالشكل مثلًا، وهنا علينا أن نأخذ الأمر ببساطة، وأن نبحث عن ميزاتنا ونقويها، وأن نرى مواهبنا وننميها، ونفيد الناس بها، هكذا كانت السيدة ميمونة، فكان تميزها فى الطهى يوازن قلة جمالها، وكان النبى يحب طعامها جدًّا، وهكذا كانت السيدة سودة بنت زمعة، فكانت خفة ظلها توازن كبر سنها وقلة جمالها، هذا مع جهدنا المتواصل فى إصلاح عيوبنا الخلقية والسلوكية، وأن نرضى بما قسمه الله لنا فيما لا نستطيع تغييره، ثم نبحث عن ميزاتنا فننميها؛ لتعطينا ثقة بأنفسنا ونسعد بالحياة.

4- نحتاج إلى أن نصحح كثيرًا من مفاهمينا الخاطئة، بالمعرفة والسؤال والحوار (السيدة ميمونة تصحح معلومة خاطئة عند الصحابة، حيث كان مشهورًا بينهم أنه محظور عليهم لمس زوجاتهم أثناء الحيض وألا تتوضأ، وأن لا تنام بجانبها فى الفراش):

هل تثق أن كل معلوماتك عن الإسلام صحيحة، وليس من بينها معلومات خاطئة؟ هل تثق أن كل معلوماتك عن أصدقائك أو أشخاص تعرفهم صحيحة ليس فيها لبس يقينًا؟ إن كثيرًا من المفاهيم نظن أنها صحيحة، ولكنها ليست كذلك، ونجعل هذه المفاهيم الخاطئة فرضيات نتعامل على أساسها فى حياتنا، فتقودنا إلى أخطاء صغيرة أو كبيرة، والمفاهيم الخاطئة تنتشر دائمًا فى المجتمعات التى تعانى من مشكلات فى التعليم، فتصدق الشائعات بسرعة، ولديها مشكلة بينها وبين القراءة، وإذا قرأت لا تعمل الفكر فيما تقرأ.

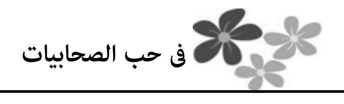
إن كثيرًا من الغربيين تكون لديهم مفهوم أن الإسلام دين إرهابى، وبعض من المسلمين تكون لديهم أن الإسلام دين لن يحقق التقدم، وبعض المتدينين يرون فى الإسلام دين شدة وإجبار، وفرض للأوامر، وكثير من الشباب يرون فى الدين دعوة إلى التجهم، وعدم الترفيه عن النفس.

جرب أن تقرأ كثيرًا وتسأل كثيرًا، وتتحاور مع غيرك، ستكتشف أن هناك مفاهيم خاطئة عن دين الإسلام، وأفكار خاطئة كونتها عن أشخاص دون معلومات حقيقة، ساعتها ستغير أفكارك، وستغير سلوكك، وستتغير حياتك.

5- معرفة تفاصيل الحياة بين الرسول وزوجاته خصوصية للرسول؛ كي تتعلم الأمة (السيدة ميمونة كانت تحكي تفاصيل دقيقة بينها وبين الرسول):

كما أن للرسول خصوصية في أن يتزوج أكثر من أربعة، لا يجوز لأحد من الرجال أن يقلده فيها، كذلك كانت خصوصية للرسول السماح لزوجاته بأن يكشفن أدق تفاصيل حياته للصحابة؛ حتى يتعلم الناس أدق تفاصيل الحياة على منهج الإسلام، وهذه الخصوصية كانت لأن الرسول قدوة ومعلم للبشرية، فكان من الضروري أن تخرج هذه التفاصيل؛ ليعلمها الناس ويقلدوا الرسول فيها، وهذا لا يعني مطلقًا أن تكشف الزوجة أسرار المنزل، أو يكشف الزوج تفاصيل خاصة بينه وبين زوجته، وهو ما نهى الرسول عنه.

* * *



نسيبة بنت كعب

بطولة نادرة

نسيبة بنت كعب

بطولة نادرة

" أنا قلق عليك يا نسيبة "

في قلق بالغ قالها زيد بن عاصم لزوجته نسيبة بنت كعب، وهما يجهزان أمتعتهما استعدادًا لرحلة الحج إلى مكة ..

قالت نسيبة بشجاعة، وهي تجمع حاجتها بنشاط:

لا تقلق يا زيد، معي أسماء بنت عمرو ..

توقف زيد وجلس على أريكته قائلًا:

لا أعرف .. الموقف في غاية الصعوبة، المهمة سرية، وعددنا ليس قليلًا لو انكشف أمرنا، لا أعرف كيف ستكون النتيجة ..

قالت نسيبة:

وما رأي مصعب بن عمير؟

قال زيد:

مصعب أخبرنا أن الرسول كان مصرًا أن يحضر عدد من النساء مهما كانت الظروف ..

نظرت إليه نسيبة قائلة - وكأنها تفكر:

هذا الرسول يحترم النساء ..

ثم تابعت:

إني أريد أن أراه وأسمعه ..

سأل عاصم:

والأبناء؟

أجابت:

- حبيب وعبد اللـه؟ نأخذهما معنا.

قال زيد وهو لا يزال قلقًا:

السفر طويل، والخطر كبير، وإنى أخشى عليك يا نسيبة ..

توقفت نسيبة عن تجهيز الأمتعة، وقالت فى ابتسامة حانية:

لا تخش علىَّ يا زيد، مهما كان السفر طويلًا، سنصل إن شاء اللـه ..

فى اليوم التالى، كانت نسيبة بنت كعب تحمل أمتعتها، مع أسماء بنت عمرو، ضمن وفد من خمس وسبعين مسلمًا، كانتا هما المرأتان الوحيدتان فيه، وسارت المجموعة ضمن مجموعات الحجيج، منطلقة من المدينة، متجهة إلى مكة، دون أن يشعر أحد بشىء، ودون أن تحدث صدامات سببها الخلاف فى العقيدة والفكر وتستمر نسيبة فى الرحلة تفكر ..

من هذا الرسول؟ كيف يتحدث وكيف يفكر؟ وكيف سيعامل النساء؟ هل سيغير رؤية الجزيرة العربية للمرأة ويرفع من شأنها؟ هل سيقنع الرجال أن المرأة لها كيان ومشاعر ورأى وفكر؟

على مدار عام فى المدينة أدركت نسيبة قوة هذا الدين وقوة أفكاره، وزاد اقتناعها بقوته من حدثين كبيرين، حدثا أثناء الرحلة .. فلقد أسلم رئيس وفد الحجيج، البراء بن معرور، ثم تبعه الرجل ذو المكانة عبد اللـه بن حرام..

وتبتهج نسيبة فرحًا بالحدثين السعيدين، وتنظر إلى الأمام لتلوح لها مكة من بعيد، وتأتى اللحظة التى تنتظرها منذ زمن ..

ويدخل وفد الحجيج مكة، ويبدأ الجميع فى ممارسة شعائر الحج، وتمر الأيام دون أن يخبرهم مصعب بموعد المقابلة .. إلا أن الجميع يحافظون على السر، لا يتفوه به أحد ..

والأيام تمر، وتوشك أيام الحج على الانتهاء، يومًا بعد يوم تبيت نسيبة مع زوجها زيد، تتساءل وتفكر وتنتظر ..

إلى أن جاءت الأخبار فى آخر يوم فى منى .. بمنتهى الدقة والسرية .. المقابلة فى منتصف الليل، عند العقبة، وألا يعمد أحد إلى إيقاظ أحد، وألا تتعدى كل مجموعة شخصين اثنين ..

وفى الموعد المحدد، تتسلل نسيبة مع زوجها زيد بكل خفة؛ حتى لا يشعر بهما أحد، حتى يقتربا من المكان، لتنظر نسيبة وتجد الناس يتوافدون من كل مكان، يتجمعون عند العقبة، وبعد فترة يأتى رجل، وبمجرد أن يأتى يتجه إليه مصعب بن عمير، لينصت إليه بكل اهتمام ..

وتحدث نسيبة نفسها .. إنه هو .. بالتأكيد هو ..

إنه محمد ..

محمد رسول اللـه.

تتابع نسيبة الموقف بكل حواسها، ويظهر الرسول أمام الجميع ليتحدث، وتنصت نسيبة بكل اهتمام، حتى يأتى الوقت الذى يطالب فيه الأنصار بالبيعة:

تبايعوننى على السمع والطاعة فى المنشط والمكره ..

تبايعوننى على الإنفاق فى اليسر والعسر ..

تباعوننى على الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ..

تبايعوننى ألا تأخذكم فى اللـه لومة لائم ..

تمنعوننى عندما آتى إليكم كما تمنعون نساءكم وأولادكم ..

فيقول البعض:

فما لنا إن فعلنا ذلك؟

ولم ينطق رسول اللـه إلا بكلمة واحدة:

الجنة.

كانت الكلمات ترن فى مشاعر نسيبة، وهزتها كلمة الجنة هزًّا، وأيقنت أن هذا الدين يستحق أن تغامر من أجله مغامرة، قد يكون ثمنها حياتها وحياة زوجها وحياة أبنائها.

لقد بايعت نسيبة الرسول، وهى على استعداد الآن أن تضحى بنفسها من أجله، ومن أجل الجنة.

وتعود نسيبة مع زوجها إلى المدينة، ليأتى لها الخبر الجديد بعد ذلك ..

سيهاجر الرسول إلى المدينة.

ويأتى الرسول، ويبدأ بناء دولة الإسلام، وتبدأ المناوشات من الداخل والخارج،

من يهود المدينة ومشركى مكة والجزيرة العربية.

وبعد عامين يحارب المسلمون فى بدر، وبعدها بعام واحد، يزحف المشركون إلى المدينة.

المشركون مصممون على الأخذ بثأرهم ..

غريب على المرأة أن تفكر فى المشاركة فى حرب ولو من بعيد، وغريب على المرأة أن تتخذ قرارات صعبة فى حياتها تتسم بالمغامرة، لكن يبدو أن مشهد العقبة الكبرى لم يفارق نسيبة .. شروط بيعتها لرسول الله كانت تتردد فى أذنيها طيلة ثلاث سنوات.

" تمنعوننى عندما آتى إليكم، كما تمنعون نساءكم وأولادكم ".

لقد جاءت اللحظة التى تريد فيه نسيبة أن تدافع عن الرسول، كما تدافع عن أبنائها .. لقد اتخذت نسيبة قرارًا صعبًا، صعبًا على أى امرأة أن تتخذه ..

" أريد أن أسقى الجرحى يا رسول الله " ..

ويأذن الرسول لها بسقاية الجرحى، وتدخل نسيبة المعركة متحمسة تمر على الجرحى هنا وهناك.

يزداد حماس نسيبة، وهى ترى تفوق المسلمين الواضح، وترى المعركة تقترب من نهايتها لصالحهم.

حتى حدثت المفاجأة ..

لقد ترك الرماة أماكنهم، ونزلوا من على الجبل، مخالفين لأمر الرسول، ونظرت نسيبة لتجد خالد بن الوليد يظهر من وراء الجبل، ليبدأ ضرب المسلمين من الخلف وتتحول المعركة ..

وترى نسيبة المسلمين يتساقطون واحدًا تلو الآخر، فتقرر أن تدخل نسيبة المعركة مقاتلة ..

وتلتقط نسيبة أحد السيوف لتقف فى وجه المشركين تقاتل بشراسة، لا يعنيها أنها امرأة لا تعرف فنون الحرب والقتال، كل ما يعنيها أنها لابد أن تقاتل، حاربت بالسيف، ورمت السهام بالقوس، لتجرح اثنى عشر رجلًا من المشركين، وتصاب بالجراح فى أماكن متفرقة من جسدها ..

ويرى الرسول ما تفعل نسيبة، فيقول:

" لمقام نسيبة بنت كعب اليوم، خير من مقام فلان وفلان " ..

وتنظر نسيبة إلى الرسول، تقول فى رجاء:

يا رسول الله .. ادع الله أن نرافقك فى الجنة ..

فينظر إليها الرسول، وهو يقول:

" اللهمَّ اجعلهم رفقائى فى الجنة " ..

ويتدفق الحماس فى قلب نسيبة، فتقول فى فرح:

ما أبالى ما أصابنى من الدنيا ..

وتنطلق بكل قوتها تحارب بسيفها وقوسها فى كل اتجاه، و ...

" ولدى "

صرخت بها نسيبة بنت كعب، وهى تجرى على ابنها عبد اللـه، وقد جرح فى ذراعه اليسرى، ثم سألته فى لهفة:

ما بك يا عبد اللـه؟

ليقول عبد اللـه وهو يمسك بيده متألمًا:

ضربنى أحدهم وجرى ..

ويمر الرسول عليه ليقول له فى حنان:

اعصب جرحك ..

وعلى الفور تأتى نسيبة بعصابات كانت قد أعدتها لتضميد الجروح، وتبدأ فى ربطها حول ذراعه، ليقول الرسول لعبد اللـه محمسًا له:

" انهضْ بنى فضارِب القومَ " ..

وبعد فترة يظهر الرجل الذى ضرب ابنها فيعترضه ويضرب ساقه فيركع على الأرض، ليبتسم له رسول اللـه قائلًا:

" الحمدُ لله الذى ظفّركِ وأقرّ عينك من عدوّك، وأراك ثأرَكِ بعينِك ".

كانت بطولة نسيبة بنت كعب ملفتة للنظر، ومحل تقدير الرسول، وكل من يراها

.. فهى تضمد الجراح، وتقاتل هى وزوجها وابنيها فى سبيل اللـه ..

فى هذا اليوم تحملت نسيبة وأسرتها الكثير، حتى قال لها رسول اللـه:

" ومَنْ يُطيقُ ما تُطيقينَ يا أمَّ عمارة؟! "

لم تفارق بيعة العقبة خيالهم أبدًا ..

" تمنعوننى عندما آتى إليكم كما تمنعون نساءكم وأولادكم ".

لقد كانوا يمنعون الرسول بكل قوتهم ..

إلا أن الخطر كان يقترب من الرسول.

لقد وجدت نسيبة " ابن قميئة " يتجه إلى الرسول حاملا سيفه، حتى وصل إلى مصعب الذى كان يحمل الراية، وتشق نسيبة الصفوف، وهى تقترب من الرسول لترى الرجال منهزمين مكسورين، ويراها الرسول بلا ترس، فيهتف فى أحد الرجال المحبطين ليقول فى حزم:

" ألقِ تُرْسَكَ إلى مَنْ يُقاتِل ".

ويلق الرجل ترسه لتلتقطه نسيبة، وتبدأ فى الدفاع عن الرسول بكل ما أوتيت من قوة ..

تقف نسيبة أمام ابن قميئة بكل قوة، تضربة ويضربها، كانت الفرسان تجرى على جانبيها، حتى أشفق عليها رسول الله، ونادى على ابنها يقف بجانبها:

" يا ابن أم عمارة .. أمك أمك ".

إلا أن ابن قميئة ضربها ضربة قوية على (عاتقها)، ليحدث لها جرحًا أجوف يسقطها على الأرض، لتجد ابن قميئة ينقض على مصعب، فيقطع يده اليمنى ثم اليسرى ثم يضربه فى صدره ليقع شهيدًا، ويجرى ابن قميئة وهو يصيح:

قتل محمد .. قتل محمد.

وينهزم المسلمون، ويفترش الشهداء الأرض، ويقف الرسول على رءوسهم .. يبكى.

لكنه لا ينسى أبدًا ما فعلت نسيبة فى هذا اليوم.

وظل جرحها الغائر يذكرها وهى تداويه لمدة عام كامل، كان يطمئن خلاله الرسول عليها، مقدرًا لها بطولتها النادرة ..

لكن غزوة " أحد " لم تكن الأخيرة لنسيبة.

فلقد اضطرتها الظروف أن تشترك فى موقعة أخرى .. موقعة اليمامة.

* * *



عرفت عائلة نسيبة كلها بالبطولة، هى وزوجها وابناها عبد اللـه وحبيب ..

وإذا كانت نسيبة صاحبة بطولة فى " أحد "، فلقد كان ابنهـا حبيـب صـاحب بطولـة أخـرى كبيرة.

ذات يوم وصل إلى مسامع الرسول خبر فى غاية الغرابة والخطورة ..

لقد كان هناك من يدعى النبوة مع رسول اللـه فى جنوب الجزيرة العربية، وزاد من غرابـة الأمر وخطورته، أن هذه الأكذوبة الكبرى لم يكن بطلها أحمق واحدًا .. بل اثنان ..

اثنان دفعة واحدة ..

الأول فى صنعاء باليمن، وهو الأسود بن كعب العنسى ..

والثانى فى اليمامة، وهو مسيلمة.

كانت المعلومات خطيرة .. والحدث أخطر ..

كان الأمر يعنى أن جبهتين قد بدأتا تعدان العدة للوقـوف فى وجـه الرسـول .. وربمـا كانـت هاتان الجبهتان أخطر على الدعوة من جبهة قريش نفسها ..

وبلغت الوقاحة بمسيلمة أن يبعث برسالة إلى الرسول يخبره فيهـا بنبوتـه، ويطلـب منـه أن يقتسم معه الأرض ..

ويقرر الرسول أن يبعث له برسول وبرسالة تجعله يكف عما يفعل.

كان الأمر لا يخلو من خطورة ..

واختار الرسول للمهمة .. حبيب بن زيد .. ابن نسيبة بنت كعب ..

وبكل شجاعة .. لم يتردد حبيب فى قبـول المهمـة .. وأعـد العـدة للسـفر إلى اليمامـة لحمـل الرسالة إلى مسيلمة ..

وهناك .. كانت بطولة حبيب بن زيد النادرة.

* * *

ما إن فتح مسيلمة الرسالة وقرأ ما فيها، حتى صدم أشد الصدمة، وشعر بالمهانة والخزى .. واحمر وجهه الكئيب، ونظر بكل ما امتلكه من غيظ وحدة إلى حبيب بن زيد ..

أصدر مسيلمة الإشارة إلى أعوانه أن يأخذوا " حبيب " ليحبسوه، ثم يبدأوا بعدها رحلة تعذيب بشعة له ..

وبعد أن أنهكوه من التعذيب، أمر مسيلمة بتجميع الناس والإتيان بحبيب بن زيد ..

ليقف حبيب بن زيد منهكًا من آثار ما تعرض من ضرب مبرح ..

وأخذ مسيلمة ينظر إليه نظرة استعلاء .. ثم قال له فى غرور واضح:

- يا حبيب .. أتشهد أن محمدًا رسول اللـه؟
- فيرد حبيب بمنتهى الصرامة والقوة:
- نعم أشهد أن محمدًا رسول اللـه ..
- فيلاحقه مسيلمة:

وتشهد أنى رسول اللـه؟

وإذا بحبيب هذه المرة يرد عليه باستهانة ممزوجة بسخرية شديدة قائلًا:

- إنى لا أسمع شيئًا!!

وهنا يأمر مسيلمة بالسياف، ولكنه لم يشأ أن يضربه ضربة تريحه بالشهادة .. فلقد أخذ يقطع جسده بالسيف قطعة قطعة ..

وفى كل مرة يقطع فيها السياف قطعة من جسد حبيب، كان مسيلمة ينتظر منه كلمة ..

كلمة واحدة فقط ترد كرامته أمام الناس ..

فإذا بحبيب رسول رسول اللـه، لا ينطق إلا بجملتين اثنتين:

" لا إله إلا اللـه .. محمد رسول اللـه ".

حتى تراخى الجسد، ولم يعد اللسان يستطيع أن ينطق.

ومات حبيب شهيدًا ..

ويصل الخبر إلى نسيبة كالصاعقة، فتبكى وتنتحب على ابنها الحبيب .. لكنها تعود وتتذكر بيعة العقبة.

" تمنعوننى عندما آتى إليكم كما تمنعون نساءكم وأولادكم ".

نعم هكذا كانت البيعة، وهكذا كان العهد.

لكن قرارها وقتها لم يكن سوى الثأر لابنها من مسيلمة ..

ولكن متى؟

ظلت نسيبة تنتظر وتنتظر ..

توفى الرسول وهى تنتظر، وأصبح أبو بكر خليفة، وهى لم تفقد الأمل بعد،

وفى خلافة أبى بكر جاءت موقعة اليمامة، ليبعث أبو بكر بخالد بن الوليد لمحاربة مسيلمة.

أخيرًا جاء اليوم الذى انتظرته نسيبة طويلًا.

وتخرج نسيبة مع خالد بن الوليد، ومعها ابنها عبد الله، لتقاتل بكل قوتها، تتذكر ابنها حبيب فى كل لحظة، لا يفارقها خياله .. وتشتد المعركة، فتقطع يد نسيبة، ويصيبها اثنا عشر جرحًا.

وفى المعركة يقتل ابنها الثانى عبد الله، فتقول فى صبر واحتساب:

لمثل هذا أعددته وعند الله احتسبته ..

لا زالت البيعة مستمرة ..

ولا زال إيمان نسيبة شامخًا كالجبل لا يتزحزح، لا يعنيها ما ضحت، ولكن يهمها رسول الله ودينه ورسالته ورسالتها.

وينتصر المسلمون فى اليمامة، ويقتل مسيلمة، فيثلج صدرها وترتاح سريرتها ..

وتكمل نسيبة حياتها مستعدة في أي وقت أن تموت فداء لله ورسوله ..

حتى يأذن الـلـه للبطلة أن تلقاه في عهد عمر بن الخطاب، في العام الثالث عشر من الهجرة ..

وداعًا يا نسيبة ..

وداعا يا بطلة .. يا أم الأبطال.

* * *

دروس وتحليل

1- الإسلام يدعو إلى مشاركة المرأة فى الحياة السياسية (الرسول يصر على حضور نساء كممثلين عن المرأة فى بيعة العقبة):

لا يمكن أن تستقيم الحياة إلا بمشاركة المرأة؛ فهى نصف المجتمع، وهى قوة فاعلة فيه، لا تقل عن الرجل، وبدون ذلك ستظلم المرأة، ويظلم المجتمع بالحرمان من طاقتها وآرائها، والإسلام يدعو المرأة لكل أنواع المشاركة المجتمعية، بما فى ذلك المشاركة السياسية، عن طريق الاهتمام بشئون بلادها والترشح للانتخابات، ولن يأتى ذلك إلا إذا طورت المرأة من نفسها بالتثقيف السياسى والمشاركة الفعالة؛ حتى يقتنع المجتمع بقدرتها ودورها شيئًا فشيئًا، وفى نفس الوقت تتنبه المؤسسات التربوية لتفعيل دورها، وتأهيلها بصورة أكبر.

2- الإسلام له فضل كبير على المرأة؛ حيث اعتز بها وكرمها أيما تكريم، وعلى المرأة أن ترد الجميل لدينها العظيم باتباع تعاليمه (نسيبة بنت كعب تتأثر بكلام الرسول فى بيعة العقبة، وتشعر أن هذا الدين يستحق التضحية:

جاء الإسلام لينقل المرأة نقلة عظيمة، ويحررها من عبودية مقيتة، وازدراء لكيانها واحتقار لآدميتها، إلى كيان محترم، يحترم رأيه وعقله، ويؤخذ برأيه فى أشد المواقف وأصعبها، ولديه من الحقوق والواجبات ما للرجل، إلا فى أمور استثنائية، كان للشرع حكمة منها.

إن هذا التكريم جدير بأن يجعل كل فتاة وكل امرأة، تعتز بدينها وتحبه وترد جميله عليها، وأول ما تفعله أن تعرف دينها حق معرفة، بالقراءة والاطلاع، وأن تطبق ما يريده الإسلام منها؛ من ملبس ومعاملات، بما يتفق مع صحيح الإسلام، وأن ترضى اللـه ولا

تغضبه، وأن تكون واجهة جيدة للفتاة المسلمة، سواء أكانت ابنة أو طالبة أو زوجة أو عاملة أو مسئولة، فهل نرد الجميل لديننا العظيم؟

3- **الإيمان بالله وحب الله ورسوله يعنى التضحية من أجلهما (نسيبة بنت كعب تمسك بالسيف، وتحارب فى أحد؛ دفاعًا عن الرسول)**

الحب ليس بالكلام، والإيمان إن لم يرتبط بفعل حقيقى وصادق، يصبح كلامًا أجوف غير فاعل، والتضحية هى دليل الإيمان بالله .. التضحية بالمال والوقت والنفس، وتحمل الأذى فى سبيل الدفاع عن الأخلاق والمبادئ والدين، هذا هو الدليل الوحيد على حبنا لله ورسوله، وإذا كان هذا الحب صادقًا، سيعيننا الله على ذلك إذا صدقت النوايا، فالإيمان يشعل الحماس ويفجر الطاقة ويشجع القلوب، فلنقس حبنا لله ورسوله بمقدار ما نضحى من أجله، ومقدار ما نتحمل فى سبيله.

4- **ما أجمل أن تعيش الأسرة كلها فى طاعة الله، تعمل لدينها وتضحى من أجله (عائلة نسيبة كلها كانت من الأبطال الذين خاضوا المعارك دفاعًا عن الإسلام، هى وزوجها وابنها الشهيد حبيب بن زيد):**

عادة ما يختلف أبناء الأسرة الواحدة فى الأفكار والاتجاهات، فتجد المتدين وغير المتدين، وتجد الخلوق الذى يلتزم بالأخلاق الحميدة، والمنفلت الذى لا يحب الالتزام بقواعد أخلاقية أو دينية، وهذه الأسر أسر متوترة، ليس بها انسجام أو ترابط، وستكون نعمة من الله - عز وجل - لو أنعم على أسرة كاملة .. آباء وأبناء .. بالتدين والالتزام بالإسلام فى انسجام جميل، وتوافق نادر، يحقق الترابط والتفاهم، ويقلل المشكلات، ويرفع من روح الإيمان بالله فى المنزل، كما أنعم الله على أسرة نسيبة بنت كعب، هى وزوجها وابنها، فكانوا جميعًا أبطالًا، جاهدوا فى سبيل الله، عاشوا معًا فى الدنيا، وموعدهم معًا فى الجنة بإذن الله.

* * *

أسماء بنت أبي بكر
قصة كفاح

أسماء بنت أبي بكر
قصة كفاح

في السنة الثانية من البعثة، كانت أسماء الفتاة الصغيرة لا تزال في الرابعة عشر من عمرها.

كانت فتاة صغيرة لكنها تشعر بما حولها ترقب الأحداث، وتستوعب حديث أبيها أبي بكر الصديق عن ذلك الدين الجديد .. الإسلام، وذلك الرجل الذى تعرفه مكة كلها .. محمد.

في هذه السنة أسلمت أسماء، لتتابع أبيها يومًا بيوم، عما فعل مع الرسول وعما فعل الرسول ..

راقبت أسماء الأمور سنوات مع أبيها، جهادًا من الرسول والصحابة، ومقاومة أسطورية أمام بطش قريش وحربها ..

بعد سنوات .. تتزوج أسماء من الزبير بن العوام.

كان الزبير شابًّا فقيرًا، لم يملك من الحياة غير فرس، لكن أسماء ارتضت دينه وخلقه، ووقفت بجانبه تعينه ويعينها على مشاق الحياة.

كانت تهتم بفرسه وترعاه، وتقوم بالعجين في المنزل، ثم تقطع المسافات لتساعده في عمله في الزراعة.

كانت أسماء تهتم ببيتها وبزوجها، وكانت تقول عن الزبير - فيما يرويه عروة عنها:

تزوجني الزبير وما له شيء غير فرسه، فكنت أسوسه وأعلفه، وأدق لناضحه النوى، وأستقي، وأعجن، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير التي أقطعه رسول الله على رأسي، وهي على ثلثي فرسخ، فجئت يومًا، والنوى على رأسي، فلقيت رسول الله ومعه نفر، فدعاني، فقال: " إخ، إخ"، ليحملني خلفه، فاستحييت، وذكرت الزبير وغيرته.

قالت: فمضى ..

فلما أتيت الزبير أخبرته، فقال: والـلـه، لحملك النوى كان أشد على من ركوبك معـه! قالـت: حتى أرسل إلى أبو بكر بعد بخادمة، فكفتنى سياسة الفرس.

فى السنة الثالثة عشر من البعثة، كانت أسماء تنتظـر حـدثين مهمـين فى تاريخهـا؛ أمـا الأول: فهو حملها لمولودها الأول، الذى بدأ يتحرك فى أحشائها، ووصلت به إلى شهرها السادس.

أما الحدث الثانى: فكان هجرة الرسول من مكة إلى المدينة ..

لقد جاء أمر الـلـه إلى المسلمين، بالهجرة والفرار بدينهم، و ..

* * *

" ماجاءنا رسول الـلـه فى هذا الوقت من قبل! "

هكذا قالت أسماء فى اندهاش بعد أن دق الباب فى وقـت الظهـيرة، ليفـتح أبـو بكـر البـاب ليجد الرسول أمامه ..

كان سؤال أسماء فى محله، هناك شيء ما جديـد، هـو الـذى أتى بالرسـول فى هـذا التوقيـت، وتأكد إحساسها بعد أن طلب الرسول من أبى بكر أن يخرج مَن بالحجرة، فإذا بأبى بكر يرد عليه مطمئنًا له:

يا رسول الـلـه .. إنها أسماء وعائشة ..

وهنا ينظر الرسول إلى أبى بكر، ويقول له:

" إن الـلـه قد أمرنى بالهجرة ".

ويلاحقه ابوبكر قائلًا فى لهفة:

إذن فهى الصحبة يا سول الـلـه ..

وعندها يقول الرسول لأبى بكر مبتسمًا فى حنان:

" نعم هى الصحبة يا أبا بكر ".

وتنظر أسماء لأبى بكر، فإذا بـه يـبكى بكـاء شـديدًا مـن فرحتـه بصـحبة الرسـول فى هجرتـه للمدينة، حتى قالت عائشة:

ما وجدت أحدًا يبكى من الفرحة مثلما رأيت أبى يبكى فى هذا اليوم ..

كانت المهمة تحتاج إلى تخطيط دقيق، فيه من الذكاء والدهاء مـا يصرف قريشًـا عـن خـط سير الرسول، ويصيبهم بالفشل فى إمكانية تعقبه، والوصول إلى مكانه، ليتخذ الرسـول اتجاهًـا فى السير ناحية الجنوب، عكس الاتجاه المتوقع ناحية الشمال، ويترك المشركـين يجهـدون فى البحـث عن آثار أقدامه لمدة ثلاثة أيام متواصلة ..

أما الرسول وأبو بكر، فكانا مختبئين فى غار ثور أعلى الجبل، وكانت المشـكلة الوحيـدة.. مـن يأتى بالطعام طيلة الأيام الثلاثة؟

من يمتلك القدرة على كتمان سر خطير كهذا؟ ومـن لديـه الشـجاعة أن يعـرض نفسـه لهـذا الخطر؟ ومن لديه الكفاءة أن يقوم بهذه المهمة دون أن يشك فيه أحد؟

لقد اختار الرسول أسماء بنت أبى بكر لهذه المهمة الخطيرة.

كانت أسماء بنت الخامسة والعشرين فى شهرها السابع من الحمـل، وكـان عليهـا أن تقطـع على هذا الحال مسافة طويلة حتى تصل إلى الجبل الذى يقع أعلاه غار ثور، ثم عليها بعد ذلك أن تصعد ثلاثة أميال حتى تصل إلى الغار.

" ستحملين الطعام إلينا يا أسماء " ..

قالها أبو بكر لأسماء بعد أن شرح لها المكان وائتمنها على سر بالغ الخطورة، لو تهاونت فيه كما تتهاون كثير من النساء مع الأسرار، لانهـارت كـل خطـة الرسـول وأبى بكـر، ولعرضـت حيـاة الرسول نفسه للخطر، ولضاعت دعوة الإسلام، وهى على أبواب الانطلاق.

فى اليوم الأول جهزت أسماء الطعام والماء، وبدأت تستعد لحمله إلى الرسول وأبيها فى الغار.

لكن كيف تحمله دون أن يظهر لأحد، فيكون مثار شك يكشف الأمر ويهدد الرسول؟

كانت أسماء كغيرها من فتيات ونساء الجزيرة، تربط حزامًا على بطنها تحزم به ملابسها، فجاءتها الفكرة أن تشق حزامها، فتحمل فى جزء منه الطعام فتمشى به فى أمان دون أن يظهر.

وتنفذ أسماء الفكرة، فتحمل الطعام وتسير فى الطريق إلى الغار، تتقوى بإيمانها وثباتها على مشقة الحمل وعناء الطريق وشدة الموقف وخطورة المهمة، وتصعد أسماء الجبل، حتى تصعد إلى الغار، وفى هدوء شديد، تعطى الإشارة التى تخبر الرسول وأبا بكر بوصولها للمكان، وعندها تخرج أسماء الطعام من حزامها، ليراها الرسول ويبتسم لما فعلت، ويدعو لها قائلًا:

" أبدلك اللـه بنطاقك هذا نطاقين فى الجنة".

كانت فرحة أسماء لا توصف بدعوة الرسول، وأصبح كل التعب والإرهاق كأن شيئًا لم يكن، وتضاعفت لديها حماسة العمل والجهد والتضحية.

ربما لم تحب أسماء شيئًا يومها كما أحبت هذا النطاق، ربما خلعته وأخذت تنظر إليه وتحدثه، وتشكره أنه سيكون سببًا فى دخولها الجنة بإذن اللـه.

فى اليوم التالى تنزل أسماء من منزلها ليلًا؛ لتؤدى مهتمها الخطيرة بكل حب وحماس، تريد أن تلقى الرسول مرة أخرى ليدعو لها مرة أخرى ..

" أبدلك اللـه بنطاقك هذا نطاقين فى الجنة ".

إلا أن قريشًا قد أتعبتها الحيل فى البحث عن الرسول، وبدت بكل قوتها وسلطانها عاجزة عن الوصول إلى فرد واحد.

وبدأت قريش تفكر فى البحث عن خيوط تستطيع أن تمسك بها لتصل إلى غرضها، وكان أول هذه الخيوط صديقه، أبو بكر الصديق ..

و بالفعل .. انطلق أبو جهل إلى منزل أبى بكر ليقرع الباب بكل قوة وعنفوان، وتسمع أسماء طرق الباب، وتنظر إلى الباب بفزع .. لا تدرى ماذا تفعل ..

وبدأت تدور فى رأسها الأفكار، ووضعت يدها على قلبها أن يكون قد انكشف الأمر..

وعندها سيصبح الموقف صعبًا .. وإلى أبعد حد.

* * *

" أين أبوك؟ "

صاح بها أبو جهل فى قوة وغيظ، والشرر يتطاير من عينيه، بعد أن استجمعت أسماء شجاعتها وفتحت الباب فى ترقب وخوف، ليدفع أبو جهل الباب ويصيح فيها، لترد أسماء فى ثبات وقوة:

لا أعرف .. لا أعرف شيئًا ..

وهنا يزداد غيظ أبى جهل، ويفقد أعصابه ليرفع يده، وينزل بها فى قوة على وجه أسماء، حتى طرح قرطها من أذنيها جانبًا.

كانت اللطمة قوية، وكان الألم شديدًا، ولكن ثبات أسماء كان أقوى، ودارت ببصرها لتنظر إلى أبى جهل فى احتقار، ومع نظرتها هاجمته مشاعر الخجل تلومه على ضربه امرأة، ليدرك بعدها أنه لا أمل منها فى شىء، فينصرف فى غيظ، يبحث عن الرسول فى طريق آخر.

يزداد قلق أسماء على الرسول وأبيها، لتحمل إليهما الطعام هذه المرة، وتحمل معه مزيدًا من القلق، لكن بمجرد وصولها تبدأ مشاعر الاطمئنان فى التسرب إليها، بعد أن عرفت من الرسول أنها الليلة الأخيرة، وأن مهمتها قد انتهت بنجاح.

سلمت أسماء الطعام للرسول وأبى بكر وأخبرتهما بما حدث، ليخبرها الرسول أن هذا اليوم هو اليوم الأخير، وأنه قد حان وقت الهجرة.

لن تصعد أسماء الجبل مرة أخرى ..

لقد انتهت مهمة أسماء، وانتهت مهمة النطاق العجيب.

عادت أسماء حزينة على فراق الرسول وفراق أبيها، ودخلت بيتها، وخلعت نطاقها، وجلست تستريح، وتفكر فى الخطوة القادمة ..

الهجرة إلى المدينة ..

وقبل الهجرة، ذهبت إلى بيت أمها، لتجد جدها الضرير أبا قحافة يسألها فى حزن قائلًا:

هل هاجر أبوك؟

نظرت إليه أسماء، وكأنها تسمع خبرًا جديدًا، ثم قالت بصوت خفيض:

نعم .. نعم يا أبى، لقد هاجر مع رسول الـلـه ..

ثم تابع فى استنكار:

ترككم وأخذ معه كل ماله .. إنى أراه قد فجعكم بماله، بعد أن فجعكم بنفسه ..

وهنا انتفضت أسماء تحاول أن تطمئن جدها، وهى تقول:

لا .. لا يا جدى ..

ثم جمعت بعض الحصى بسرعة، ووضعت عليه ثوبًا، ووضعته فى فتحة كانت توضع فيها المال، ثم أخذت يد جدها ووضعتها عليه، وهى تقول فى لهفة:

انظر يا أبت .. انظر كم ترك لنا أبونا من المال ..

ويبدو أن الحيلة قد أقنعت جدها، فقال مطمئنًا:

لا بأس .. إن كان ترك لكم هذا كله فقد أحسن ..

وتستعد البطلة مع زوجها الزبير للهجرة إلى المدينة، تقطع مع زوجها الصحراء تحت لهيب الشمس فى جهاد متصل لا ينقطع ..

مجاهدة أسماء، ربما تعودت على المشقة والاجتهاد؛ لأن أباها أبا بكر، أو لأن الإيمان قد أعطاها دفعات كبيرة من الجهد، أو أن دعوة الرسول قد أعطتها حماسًا عجيبًا تغلب على ما تعانيه من مشقة.

وتستمر الرحلة، وشيئًا فشيئًا تقترب المدينة ويقترب اللقاء ويجتمع الشمل من جديد..

إلا أنه عند وصول أسماء منطقة قباء ازدادت آلام أسماء، وفاجأها المخاض، ليأذن الله بمولودها الأول (عبد الله) عند دخول المدينة.

ويحمل الرسول مولود أسماء والزبير " عبد الله "، فيقبله ويدعو له ويحنكه، فكان أول شىء دخل فى جوف عبد الله هو ريق الرسول صلى الله عليه وسلم .

ثم يحمل بعض الصحابة عبد الله فرحين مكبرين، وهم يطوفون به المدينة ..

ربما كان الموقف رسالة لأسماء لمشاركتها البطولية فى هجرة الرسول، فكان جزاء ربها لها أن أذن بميلاد ابنها فى هذه اللحظة التاريخية، لتسجل الذكريات ويسجل التاريخ أن أول مولود لها كان مع أعظم أحداث التاريخ على الإطلاق .. هجرة الرسول من مكة للمدينة.

أى فرحة يا أسماء؟! وأى شرف؟! وأى احتفاء من رب العالمين؟!

لقد أصبحت الفرحة فرحتين .. فرحة الهجرة وفرحة المولود الأول لأسماء الذى سجل اسمه مع المهاجرين.

* * *

فى المدينة:

تكمل أسماء الرحلة مع زوجها الزبير وابنها عبد الله ..

تعيش مع الأحداث فى بدر وأحد والأحزاب وصلح الحديبية وفتح مكة ..

تجلس مع عائشة فتحكى عن الرسول، كيف يفكر وكيف يتصرف وماذا يقول..

تسمع الأحاديث وتحفظها وترويها، حتى روت عن الرسول ثمانية وخمسين حديثًا، ترويها فيروى عنها الرجال ..

وتمر الأيام وتصاب أسماء ككل المسلمين بفاجعة وفاة رسول الله، ليصبح أبوها أبو بكر الصديق خليفة للمسلمين من بعده، ليأتيها مصاب جديد بعد أقل من عامين، بوفاة والدها.

بكت أسماء كثيراً، وتذكرتهما معًا ..

وتذكرت أيام الصديقين اللذين كانت تقطع الأميال وتصعد الجبل من أجل إيصال الطعام لهما، تتذكر النطاق العجيب ودعوة الرسول لها، ويوم فراق الرسول وأبيها.

مات الصاحبان، لم يتحمل أحدهما أن يبق وحيدًا بعيدًا عن صاحبه لعامين، فترك الدنيا ليلحق به عند ربه ..

وتكمل أسماء ..

تحب الناس ويحبها الناس ..

متوسطة الحال، لكنها حريصة على الإنفاق فى سبيل اللـه، فكانت تجمع الشىء إلى الشىء ثم تنفقه، تحسب حاجة يومها فقط، وما زاد عن ذلك فهو للمساكين وليس لها.

قربها من اللـه كان لافتًا للنظر، وحرصها على العبادة كان مثار اندهاش زوجها، وهو يحكى عنها:

" دخلت يومًا بيتى، فوجدت أسماء تصلى، فسمعتها تقرأ الآية:

(فَمَنَّ اللـهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ {27/52} إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ {28/52})[الطور:27] .

فما كانت تدرى بى، فأسمع بكاءها، وتردد الآية، وأسمع بكاءها وتردد الآية فخرجت، فعدت إلى السوق واشتريت حاجاتى، ثم عدت ودخلت بيتى فسمعتها، تقول: (إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ {28/52}) [الطور]، فقلت: أما زالت تصلى منذ أن عدت إلى السوق بنفس الآية، فعجبت وخرجت فى حاجة لى وعدت، فوجدتها تردد: (إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ {28/52}) [الطور]، يقول: حتى خجلت من نفسى ".

وتمر الأيام على أسماء ..

ترعى بيتها وتهتم بزوجها وتعبد ربها وتتصدق بمالها وتربى ابنها عبد اللـه ..

ومع ابنها عبد اللـه كانت لها مواقف لا ينساها التاريخ ..

أبدًا.

* * *

فى عام 64 هجرية .. قدم ابن الزبير نفسه خليفة للمسلمين عقب وفـاة يزيـد بـن معاويـة، وبويع بالخلافة، ودخلت فى طاعته ومبايعته الكوفة، والبصرة، ومصر، وخراسان، والشـام معقـل الأمويين.

لكن عبد الملك بن مروان أرسل الحجاج بن يوسـف الثقفـى عـلى رأس جـيش مـن عشريـن ألف جندى إلى مكة، وضرب حصارًا على مكة، فأصاب أهل مكة مجاعة كبيرة.

وإزاء الأزمة والموقف الصعب الذى يعيشه عبـد اللـــه، لم يجـد سـوى أمـه أسـماء، يـذهب إليها، ويسألها فى حيرة قائلًا:

يا أماه ماذا أفعل، وقد تخلى الناس عنى؟

وتنظر إليه أسماء وتمسك بكتفيه، وتقول له فى ثبات وقوة:

إن كنت على حقٍّ فامضِ لشأنك، لا تمكّن غلمان بنى أميّة، ثم تتابع:

وإن كنتَ إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت! أهلكت نفسك ومن معك ..

وهنا نظر عبد اللـه إليها، وقد بدا فى عينيه القلق قائلًا:

يا أُمَّاه، إنى أخاف إن قتلونى أن يمثّلوا بى ..

نظرت إليه أمه أسماء، وهى تبتسم ابتسامة خفيفة، وهى تطمئنه قائلة:

يا بنى .. إنّ الشاة لا يضرُّها سلخها بعد ذبحها.

ويخرج عبد اللـه بن الزبير مودعًا أمه إلى ساحة القتال، وتعود هى إلى بيتها تتعبـد وتـدعو ربها ..

وبعد قليل يأتيها الخبر ..

لقد استشهد عبد الـلـه، ويعلقه الحجاج مقتولًا سبعة أيام، ويذهب الحجاج إلى أسماء قائلًا فى شماتة:

أرأيت كيف فعلت بابنك؟

فى أواخر أيام أسماء كانت قد فقدت البصر، ولكنها توجهت إليه بوجهها فى تحد واضح وثبات مدهش، قائلة:

أراك قد أفسدت عليه دنياه، وأفسد عليك آخرتك.

كانت أسماء قد بلغت المائة عام .. كانت كلماتها قوية، وكأنها رمتها من قوس بطول هذه السنين، فانطلقت الكلمات كالسهام مصوبة ناحية الحجاج .. لم يستطع إزاءها أن يصمد أمامها، فبدا عليه القلق والاضطراب، ليخرج من عندها مفزوعًا.

كانت الفاجعة كبيرة، والمصيبة عظيمة، ولكن أسماء تعودت على التحمل منذ كانت فتاة صغيرة تصعد الجبل، وهو فى شهور الحمل الأخيرة ..

بعد سبعة أيام يأمر الحجاج بإنزال عبد الـلـه بن الزبير ليدفن ..

ولكن أسماء لم تعد تحتمل أكثر من ذلك ..

فلقد كانت آخر أيامها فى اليوم التالى لدفن ابنها عبد الـلـه ..

ماتت أسماء المجاهدة الصابرة المحتسبة العابدة المنفقة ..

ماتت بعدما أرسلت رسائلها فى كل اتجاه لنقرأها ونتعلمها .. وتخلد هى فى نعيم ينتظرها ويناديها منذ زمن.

* * *

دروس وتحليل

1- مرة أخرى .. الإسلام يكرم المرأة، عندما يأتمن الرسول أسماء بنت أبى بكر على سر خطير كالهجرة (أسماء تعرف مكان الرسول، وتوصل له الطعام ثلاثة أيام متواصلة، دون أن يعرف أحد):

لم يكن هناك أخطر فى مرحلة الدعوة الأولى فى مكة من أمر الهجرة، ولم يكن هناك سر أكثر خطورة من سر مكان الرسول وقت الهجرة، هذا السر الذى لم يكن يعرفه إلا شخصيات قليلة جدًّا، وثق بها الرسول إلى أقصى درجة، وكان من بين هؤلاء فتاة عمرها خمسة وعشرون عامًا .. كتمت السر وتحملت المسئولية، وأخذت تصعد الجبل وهى حامل فى الشهر السابع؛ كى توصل الطعام إلى الرسول وأبيها أبى بكر، فى غار ثور، فى جو مريب، وهى تعلم أنها مهددة، وعندما يأتيها أبو جهل فى بيتها ليسألها عن مكان أبيها، تثبت، وترفض إبلاغه، فيضربها على وجهها، ولكنها لم تهتز.

إن أسماء بنت أبى بكر نموذج لفتاة ضحت من أجل دينها، وتمسكت بأخلاقه فى أشد المواقف صعوبة، ودلالة على أن الإسلام يقدر المرأة ويثق بها، ويعتز بها طالما كانت على قدر المسئولية، والاعتزاز بدينها.

2- العبادة هى الباعث المستمر لطاقة الإيمان، وعلى الفتيات أن يجتهدن فيها، ولكن بوعى وفهم (السيدة أسماء كانت تعرف بكثرة تعبدها لله):

المرأة أكثر عاطفة من الرجل، وهى أسرع فى التأثر بكلام الله والتقرب إليه، وهى قادرة أن تقطع مسافات طويلة مع الله .. فقط لو أتيحت لها الفرصة، والفتاة إذا تعبدت لله تتعبد بإخلاص شديد ولفترات طويلة، وسيكون لذلك أكبر الأثر على حياتها، فالعبادة تجدد الطاقة الإيمانية فى النفوس وتطهرها من الخبث أولًا بأول، ولكن لدينا مشكلتان:

أنه من الممكن أن يحدث تقصير للفتيات فى العبادة؛ نتيجة لاستقرار العبادة فى المنـزل دون تشجيع ومشاركة فى المسجد، كما يحدث مع الرجل؛ ولذا يفضل أن تنشط الفتاة نفسها بالصـلاة فى المسجد بين الحين والآخر ..

المشكلة الثانية: وهى سطحية العبـادة، بـأن تعطـى العبـادة طاقـة روحيـة، ولكنهـا تكـون منفصلة عن الخلق السليم والمعاملات التى لا تغضب اللـه؛ لـذا يجـب عـلى الفتـاة أن تحـاول الارتباط بدروس العلم المباشرة، التى تتعلم فيها دينها عن طريق حضور الندوات فى المساجد أو أى مكان آخر، حتى وإن كانت تتابع برامج تلفزيزنية دينية، فالمشاركة مع آخرين والانـدماج فى مجموعات تمارس الإسلام عمليًّا أمر آخرمختلف، عن طريقة التلقى السلبى من وسائل الإعلام.

إن العبادة كنز من اللـه، على الفتاة أن تحرص عليه، ولكن عليها أن تستفيد منـه فى تغيـير حياتها، والعمل بما يريده اللـه الذى تتعبد من أجله، فساعتها سيكون رضا اللـه عنها ليس لـه حدود، وهكذا كانت أسماء، وهكذا كانت الصحابيات وأمهات المؤمنين.

3- الفتاة عليها مهمة مضاعفة، بأن تنجح فى حياتها، وتتعلم تدبير شـئون بيتهـا (أسـماء بنت أبى بكر كانت تهتم بأمور بيتها، من مراعاة لزوجها، واهتمام بتربية أولادها):

أعطى اللـه للمرأة قدرة على التحمل والصـبر أكـبر مـن الرجـل، وقـد أعطاهـا اللــه هـذه القدرة نظرًا لمهامها الكبيرة المكلفة بها، فالمرأة مكلفة برعاية زوجها وأولادها، وفى نفـس الوقـت بالنجاح فى حياتهـا العمليـة خـارج المنـزل - إن كانـت تعمـل - وهـى مسـألة تحتـاج إلى جهـد وتدريب وقدرة على التوازن وتحديد الأولويات.

على الفتاة أن تتدرب على شـئون المنـزل مـن صـغرها بمسـاعدة أمهـا، والمشـاركة فى شـئون المنزل، وتعلم خبرة إدارة المنزل، ومشاركة أمهـا فى حـل مشـكلاته، وهـو أمـر تـقصر فيـه بعـض الفتيات، لتجد نفسها فى مشكلة بعد الزواج، تؤثر على حياتها من حين لآخر.

4- الفراغ آفة تؤثر على الفتيات تأثيراً كبيراً إذا لم يحسنوا استغلال مـا لـديهم مـن وقـت (نجحت السيدة أسماء فى عدة جوانب مـن حياتهـا؛ لأنهـا كانـت تـتعلم مـن حولهـا وتسـتغل وقتها):

قال رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم : " نعمتان مغبون فـيهما كثـير مـن النـاس؛ الصحة والفراغ " صدق رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم .

الوقت نعمة أنعم الله بها على الكثير من الفتيات؛ نظرًا لمكوثهن في البيت فترة طويلة، وإذا لم تستغل الفتاة هذا الوقت استغلالًا جيدًا، ستترك نفسها غالبًا لمشاهدة التلفزيون ومكالمات الهاتف في محاولة لقتل الوقت، وستمر الأيام والسنوات، وستدرك الفتاة يومًا أنها كانت في حاجة ماسة كي تستغل هذا الوقت في زيادة ثقافتها الدينية، عن طريق حضور الدروس الدينية وقراءة القرآن والتعلم الفقه وسيرة الرسول وحياة الصحابيات (كانت أسماء تروى الأحاديث عن رسول الله، وينقل عنها الصحابة ما ترويه)، وتنمية مهاراتها الحياتها ومواهبها وزيادة ثقافتها العلمية.

إن الفتاة لديها ميزة الوقت، ومن الخطورة أن تهدرهذه الميزة في مشاهدة التلفاز، بما له من رسائل سلبية كثيرة، تفسد فكرها وتهدر قدراتها، وعليها أن تتذكر دائمًا أن هذا الوقت نعمة وثروة، تستطيع أن تستثمرها في المستقبل، وإلا ستحاسب عليه أمام الله يوم القيامة.

5- قوة الإيمان تجعل صاحبه لا يخاف من البشر؛ لأن صلته بالله تقويه (أسماء تتحدث إلى الحجاج بقوة دون خوف، بعد أن قتل ابنها عبد الله، وجاء شامتًا فيها):

" أراك قد أفسدت عليه دنياه وأفسد عليك آخرتك ".

كانت هذه هي الجملة التي قالتها أسماء بكل شجاعة إلى الحجاج، بعد أن جاء إليها قائلًا في شماتة: أريت كيف فعلت بابنك؟

كانت الجملة تنطق بقوة الإيمان التي تمد صاحبها بالقوة والشجاعة، المستمدة من الله عز وجل، حتى وإن كانت امرأة قتل ابنها بيد رئيس قوي كالحجاج، هذه القوة هي القوة التي تجعل صاحبها، لا يخاف من البشر؛ لأنه قرر أن يخاف من الله، ولا يهتز أمام الظالم، بل هو الذي يهزهم بثقته بنفسه وإيمانه بالله، واقتناعه بمبدئه.

إن الإيمان يحرر الإنسان من الخوف؛ لأنه قرر أن يخاف من الله وحده، وموقف السيدة أسماء العظيم أمام الحجاج، يعلمنا إلى أي حد يعطي الإيمان قوة للنفوس .. إنها قوة نحتاجها للثقة بأنفسنا، ودفع الظلم عنا وعن الآخرين، والدعوة إلى مبادئنا، والنجاح في الحياة.

* * *

أم أيمن

امرأة من الجنة

أم أيمن
امرأة من الجنة

" بارك الـلـه لك فيه يا سيدتى "

فى فرح وابتهاج هللت " بركة بنت ثعلبة " مهنئة السيدة " آمنة " بعد ولادتها الطفل محمد، ثم حملته على ذراعيها، واحتضنته، وهى تقبله فى حنان بالغ.

كانت بركة بنت ثعلبة جارية حبشية عند عبد الـلـه بن عبد المطلب قبل وفاته، واستمرت تخدم آمنة بعد وفاته، ووقفت بجانب آمنة تواسيها بعد أن أصبحت وحيدة بعد زوجها، وترقبت معها فى شغف ميلاد طفل يملأ عليها حياتها.

احتضنت بركة الجارية الحبشية الطفل محمد، وأخذت تنظر إليه فى إشفاق كنظرة أى امرأة إلى طفل يتيم، سيخرج إلى الحياة يواجهها دون رجل يحميه، وأب يصاحبه ويقومه.

أخذت بركة ترعاه وترضعه، حتى انتقل إلى بيت حليمة السعيدة، ليمكث عندها أربع سنوات، قبل أن يعود إلى بيت أمه آمنة من جديد.

وتستقبل أم أيمن طفلها من جديد فى سعادة غامرة، فتلاطفه وتلاعبه وتتعلق به ويتعلق بها، حتى يأتى يوم تنقلب فيه السعادة إلى أحزان.

فبعد عامين .. طلبت السيدة آمنة من بركة أن تجهز الحاجيات، وتعد محمدًا لزيارة قبر والده، ثم زيارة أخواله بعدها.

وجهزت بركة محمدًا، وخرجا فى طريقهما، وزارا قبر أبيه، ومر على أخواله، إلا أن طريق العودة كان يحمل مفاجأة كبيرة ..

ومحزنة.

* * *

" ما بك يا سيدتى؟ "

هتفت بها فى انزعاج بالغ الجارية بركة بنت ثعلبة لآمنة بنت وهب، وهما عائدتان فى الطريق بعد زيارة قبر عبد المطلب وأخوال الطفل محمد، بعد أن وجدت السيدة آمنة قد توقفت متعبة، لتقول فى إرهاق:

لا شىء يا بركة .. فقط بعض الإرهاق ..

وتكمل آمنة طريقها، بينما تحاول أن تساعدها جاريتها بركة، لكن آمنة توقفت مرة أخرى، وقد ازداد الألم عليها هذه المرة.

وعبثًا حاولت بركة أن تفعل شيئًا، لكن الآلام كانت متسارعة، وبدأت الأنفاس تتقطع، والنهاية تقترب، حتى وقعت آمنة بلا حراك ..

لقد ماتت آمنة.

ووقفت الجارية بركة لا تدرى ماذا تفعل، وأخذ محمد ينادى عليها:

" أماه .. أماه ".

وأخذت هى تقلب نظرها بين آمنة ومحمد وهى ذاهلة، وقلبها يتقطع على آمنة وعلى طفلها الصغير.

وتبكى بركة، وينفطر قلبها حزنًا، وتدفن آمنة فى منطقة الأبواء، ثم تعود بمحمد إلى المنزل ..

مسكين محمد ..

يفقد أباه قبل أن يراه، ويفقد أمه بعد ست سنوات فقط من عمره.

ودارت الأفكار فى ذهن بركة بنت ثعلبة .. من يرعى الطفل؟ من ينفق عليه ويعطيه الحب والأمان؟

ولم تجد بركة غير جده عبد المطلب، فتصحبه إليه، وتمكث فى منزله ترعاه هناك.

وترى بركة محمدًا يكبر يومًا بعد يوم، وتراه طفلًا مميزًا بين الأطفال، وبعد سنوات يذيع صيته كشاب يافع ذى خلق وعقل وحكمة وذكاء.

تمر الأيام، وتقوى العلاقة بين بركة ومحمد، حتى إذا بلغ محمد سنه الخامس والعشرين، تزوج من خديجة، وهنا يعتق الشاب محمد الجارية بركة، لتصبح حرة بعد أن ورثها من جده عبد المطلب.

ثم تأتى اللحظة التى تفاجئ خديجة وكل البيت، وتفاجئ محمدًا نفسه.

لقد أصبح محمد نبيًّا من عند اللـه.

وتتزوج بركة من عبيد بن زيد الخزرجى، وتنجب منه أيمن، ومن يومها تلقب بأم أيمن ..

لكن زواج أم أيمن لم يدم طويلًا بوفاة زوجها عبيد بن زيد الخزرجى .. لكن اللـه كان يدخر لها من هو أفضل منه ..

كان رسول اللـه يحبها كثيرًا، ويكثر من زيارتها، ويعظمها أمام الناس، فكان يقول:

" هذه بقية أهل بيتى " .. ويقول أيضًا: " أم أيمن أمى بعد أمى ".

فى إحدى المرات كان يتحدث الرسول عن أم أيمن، ويقول:

" من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنه، فليتزوج أم أيمن " ..

فسمع زيد بن حارثة ما قال، وطلب من الرسول أن يتزوج أم أيمن، وتتزوج أم أيمن من زيد، لتنجب له أسامة بن زيد، ليزيد أحباء رسول اللـه واحدًا بعد أم أيمن وزيد بن حارثة.

وتستمر الحياة وتمر الأيام حتى يأذن اللـه لرسوله بالهجرة ..

وتقطع أم أيمن الصحراء مهاجرة فى سبيل اللـه، وتزيد من تقربها لله بالصوم فى ذلك اليوم، فيجهدها العطش إجهادًا شديدًا، فإذا بدلو من الماء ينزل عليها من السماء، فتشرب منه حتى رويت، وكانت تقول:

ما أصابنى بعدُ عطش، ولقد تعرضت للعطش بالصوم فى الهواجر، فما عطشت بعد تلك الشربة ، وإن كنت لأصوم فى اليوم الحار فما أعطش.



وتتـوالى الأحـداث فى المدينـة، وتشـارك أم أيمـن فى المعـارك، ويشـتد الصراع بـين المسـلمين والمشركين، ويتأرجح المسلمون بين النصر والهزيمـة، وتشـارك أم أيمـن فى المعـارك، فخرجـت مـع المسلمين فى غزوة خيبر، تسقى الجرحى وتداويهم .. إلا أن القدر كان يخبئ لها محنة كبيرة.. وعظيمة.

* * *

" هل ستخرج غدًا؟ "

نطقت بها أم أيمن بصوت خفيض، وفى قلق دفين لزوجها زيد بن حارثة، بعـد أن علمـت أن الرسول قد اختاره ليكون قائدًا للمعركة ضد الروم فى مؤتة، فى السنة التاسعة من الهجرة، وينظر إليها زيد باسمًا، وهو يربت على كتفيها فى حنان قائلًا:

" أحتاج إلى دعائك يا أم أيمن ".

وفى اليوم التالى، يخرج زيد إلى المعركة، يقود ثلاثة آلاف مقاتل مـن المسـلمين أمـام جحافـل من جيش الروم، ليضع زيد خطة تحصين محكمة للمسلمين فى المعركة.

وتبدأ المعركة، ويستمر القتال الشرس، ويطوي اللـه الأرض لرسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم ، ليخبر المسلمين بما يحدث في المعركة ساعة بساعة، وكأنه يراها رأي العين..

وينطق الرسول بالخبر الأليم..

لقد استشهد زيد بن حارثة ..

استشهد وهو يحمل راية الإسلام، ولم يتركها حتى سقط على الأرض ..

وتتساقط الدموع من أم أيمن، وتبكى وتنتحب وتصبر وتحتسب.

إلا أن الرسول لم يكن يرى القيادة والبطولة فى زيد بن حارثة، زوج أم أيمـن فقـط، بـل كـان يراها فى أسامة بن زيد أيضًا.

وشابه أسامة أباه " زيد " فى الكثير .. فكان له شرف القرب الشديد من الرسول.

وكما كان لأبيه شرف ذكره فى كتاب اللـه، وهو الصحابى الوحيد الذى نال هذا الشرف، فلقد كان لأسامة شرف أنه لم يتعرض لمخاطر الجاهلية قط.

فلقد نشأ أسامة مسلمًا، من أب وأم مسلمين، لهما من المكانة والحب الكثير والكثير عند رسول اللـه.

فلقد رأى فيه شابًّا قادرًا على حمل لواء الدعوة والذود عن الإسلام، بما له من قدرات ومهارات، راقبها الرسول ووجهها على مر السنين.

لذا .. وبعد عامين من استشهاد أبيه، بعثه الرسول على رأس سرية فى حرب بعض المشركين الذين يناوئون الإسلام.

وكانت هذه أول إمارة لأسامة ..

وكان أسامة عند حسن ظن نبيه، فلقد حقق نجاحًا كبيرًا فى المعركة، ووصل الخبر إلى أم أيمن ليثلج صدرها، وتنتظر أسامة ابنها البطل على شوق.

وتنظر أم أيمن إلى ابنها لتتذكر أباه، ويجلس إليها ليحكى لها.

لقد أصبحت أم أيمن أمًّا لبطل، وغدًا ستكون أمًّا لأمير كما كان أبوه ..

فبينما كان أسامة لا يزال شابًّا صغيرًا فى سن العشرين، قرر الرسول أن يأمر بقيادة أسامة على جيش إلى الشام لحرب الروم، مثلما حاربهم أبوه زيد من قبل، وأمره الرسول أن يطأ بخيله البلقاء والداروم من أرض فلسطين.

ويعترض المسلمون، لكن الرسول يصر، ويصعد على المنبر ليقول فى قوة:

" أيها الناس، أنفذوا بعث أسامة، فلعمرى لئن قلتم فى إمارته، ولقد قلتم فى إمارة أبيه من قبله، وإنه لخليق بالإمارة، وإن كان أبوه لخليقًا لها، وإنه لمن أحبّ الناس إلىّ بعد أبيه .. وإنى لأرجو أن يكون من صالحيكم .. فاستوصوا به خيرًا " ..

يا لشرف أم أيمن، ويا لفخرها بابنها، ورسول اللـه يقول ذلك فى حقه قبل مماته، ويا لفخرها وهى ترى ابنها أميرًا على جيش المسلمين.

إلا أنه بعد أيام تصعق بالخبر الأليم، كما صعق جميع المسلمين .. فلقد توفى من كان يحبها، ويحب زيدًا، ويحب أسامة كل هذا الحب.

لقد توفى رسول الـلـه.

* * *

كان الخبر شديدًا على أم أيمن كما كان شديدًا على كل المسلمين، كانت هى أول من احتضنته، كانت هى التى رعته فى بيت أمه آمنة، وهى التى شاهدته فى أقسى لحظات حياته عندما فقد أمه، وهى التى رعته فى بيت جده عبد المطلب.

كانت مثل أمه الثانية، ظل يكبر أمامها حتى أصبح شابًّا يافعًا، وحتى أصبح حديث كل الناس فى مكة بنبوته العظيمة ..

كان الموقف أصعب من تحملها ...

فهو الذى لم ينساها أبدًا، ولم يتوقف عن زيارتها.

وكذلك فعل عمر وأبو بكر .. فلقد قال أبو بكر لعمر يومًا:

انطلق بنا إلى أم أيمن نزورها، كما كان رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم يزورها، فلما ذهبا إليها وجداها تبكى، فحاولا أن يخففا عنها، ليقول أحدهما:

يا أم أيمن .. ما يبكيك؟ أما تعلمين، أن ما عند الـلـه خير لرسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم ؟!

وهنا تنظر إليهما أم أيمن قائلة:

أما إنى لا أبكى، إنى أعلم أن ما عند الـلـه خير لرسوله صلى الـلـه عليه وسلم ، ولكنى أبكى انقطاع الوحى من السماء!

ولم يتمالك الاثنان دموعهما بعد ما قالته أم أيمن، فانفجرا فى البكاء مثلها.

ربما خفف عنها بعض الحزن، ما حققه ابنها أسامة من نجاح فى حربه ضد الروم، فبعد وفاة الرسول وتولى أبى بكر الصديق الخلافة، أصر على تنفيذ وصية الرسول، واستمرار أسامة فى قيادة الجيش، وقال:

" ما كان لى أن أحل لواء عقده رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم ".

وخرج الصديق يودع الجيش ماشيًا، بينما كان أسامة بن زيد على فرسه، وعندها قال أسـامة فى خجل:

- يا خليفة رسول الـلـه .. لتركبن أو لأنزلن.

نظر خليفة المسلمين إلى أسامة قائلًا له فى تواضع:

- والـلـه لا تنزل، ووالـلـه لا أركب، وما على أن أغبر قدمى فى سبيل الـلـه ساعة؟

ويحقق الفتى الصغير ابن العشرين عامًا، إنجازًا كبيرًا وتفوقًا لافتًا فى قيادة الجيش فى معركة كبرى كهذه.

فلقد انتصر الشاب الصغير عـلى قائـد الـروم انتصـارًا سـاحقًا ماحقًـا، فى معركـة هـى الأولى والأخيرة فى تاريخ المسلمين التى تنتهى دون قتيل واحد.

نعم .. دون قتيل واحد .. بما كان يشكل إعجازًا عسكريًّا، ليس له مثيل فى تاريخ العسكرية.

لقد أثبت أسامة أنه يستحق ثقة الرسول، وأثبت الفتى الصغير، أن مواهبـه وقدراتـه كانـت أكبر من سنه بكثير، بعد أن أصبح أصغر قائد عسكرى فى تاريخ الإسلام.

لقد كرم الرسول أسامة ابنها قبل وفاته، وها هو أبو بكر يكرم ابنها بإعطائه هذه الثقة التى يستحقها، ليصبح أميرًا على جيش فيه أبو بكر وعمر.

كانت قيمة أم أيمن كبيرة لدى أبى بكر وعمر؛ لأن قيمتها كانت كبيرة عند رسول الـلـه..

وظلت قيمتها كبيرة عند الجميع، حتى لحقت بأحبائها أيمن وزيـد ورسـول الـلــه فى خلافـة عثمان بن عفان ؓ.

هنيئًا لك يا أم أيمن ما أعطيت من حب لرسول الـلـه، وما أعطاك رسول الـلـه من حب، وما وهبك الـلـه من حب من المسلمين جميعًا.

دروس وتحليل

1. أكثر الناس قابلية لتولى المهام القيادية هم الأيتام (الرسول يفقد أباه قبل أن يولد ويفقد أمه فى سن الست سنوات):

من المؤلم حقًّا أن يخرج طفل إلى الحياة فاقدًا أباه، والأكثر إيلامًا أن يفقد أمه بعد ست سنوات فقط من ميلاده، لكن اللـه أكثر رحمة بالبشر من أنفسهم .. وهو يمنع الإنسان ليعيطيه لا ليعذبه، فلقد أعطى اللـه الطفل محمد قدرة بيتمه، وهى قابلية تحمل المسئولية مبكرًا، فى حين عوضه عن حنان أمه بمرضعات كرام أحببنه من قلوبهن، وكانت علاقته بهن علاقة أمومة حقيقية، لا علاقة وظيفة يتكسبن منها، هذا جعل الرسول مع الوقت يكتسب مهارات قيادية أهلته لأن يكون شابًّا مميزًا فى مكة، وقائدًا مثاليًّا بعد إنزال الرسالة عليه، ليثبت بذلك حقيقة أثبتتها الدراسات حسب كلام المفكر والباحث د. طارق السويدان: " إن الأيتام أكثر الناس قابلية لتولى المسئوليات القيادية "، علينا بعد ذلك أن لا نكتفى فى التعامل مع الأيتام بنظرة العطف فقط، بل علينا أن نعرف أن اللـه قد عوضهم بمهارات من الممكن استثمارها لو اكتشفناها واهتتمنا بها، لتحولت نقاط الضعف لديهم إلى نقاط قوة، ويفيد اليتيم المجتمع بإمكاناته، بدلًا من أن يصبح باستمرار محل شفقة وعطف.

2. الوفاء خلق عظيم من أخلاق الإسلام .. كثيرًا ما تلهينا الدنيا عن الانتباه إليه (الرسول وأبو بكر وعمر يضربون أعظم المثل فى الوفاء لأم أيمن):

آباؤنا لهم من الفضل علينا ما لا يعد ولا يحصى، وكثير من أصدقائنا أسدوا إلينا الجميل تلو الجميل، لكننا لا نقابل تلك الجمائل بما تستحق فى كثير من الأحيان .. ولو عاملنا أمهاتنا وآباءنا نظير ما ما قدموه لنا من خدمات وتضحية طيلة حياتهم، لما وفيناهم حقهم أبدًا، فما بالنا نغضبهم أحيانًا ونغلظ إليهم القول أحيانًا أخرى؟! وما بالنا تلهينا مشاغل الحياة عن معروف أو أكثر أسداه إلينا صديق يومًا فلا نتذكره له؟!

لقد ظل الرسول طيلة حياته يتذكر جميل أم أيمن عليه ويناديها بـ (أمى)، ويشيع بين أصحابه بأن من يريد أن يتزوج امرأة من الجنة، فليتزوج أم أيمن، ويحرص على زيارتها دومًا، ويكمل أبو بكر وعمر رسالة الوفاء لأم أيمن بعد وفاة الرسول بالحرص على زيارتها .. إنه مثال عظيم فى الوفاء، نحتاج أن نقتدى به فى حياتنا .. فلنتذكر معروفًا واحدًا صنعه آباؤنا أو أصدقاؤنا فينا، ثم نفكر فى عمل وفاء لهم مرة كل شهر .. ساعتها ستدخل فى قلبهم السعادة، وسيمنحك الله سعادة أكبر؛ لأنك كنت سببًا فى إدخال السرور على إنسان.

3. محبة الله ورسوله تجعل المسلم يستعذب المشقة فى سبيله (أم أيمن لا تكتفى بتحمل مشقة الهجرة، بل تهاجر وهى صائمة):

قد تقوم بعمل صغير، ولكنه ثقيل على نفسك، يسبب لك الضيق والألم النفسى، وقد تقوم بعمل شاق مجهد، ولكنك تكون فى منتهى السعادة، مهما تكبدت فى سبيله من مشاق، والسر فى ذلك هو " الهدف من العمل "، وعندما يكون العمل لله عز وجل حبًّا فيه، وفى رسوله، وسعيًا لإرضائه، والفوز بجنته - سيلقى الله فى قلبك السعادة والراحة، مهما واجهت من عقبات، ومهما واجهت من إيذاء.

إن الله هو الذى يملك النفوس ويحرك القلوب، وهو القادر أن يملأها حزنًا وألمًا، وهو القادر أن يملأها سعادة وفرحة، لهذا كان الصحابة يتسابقون فى نيل الشهادة؛ لأنها شهادة فى سبيل الله، ولأن ثوابها جنة عرضها السموات والأرض .. أخلص نيتك لله، وسيمنحك الله القدرة على العمل، والسعادة فيه، مهما كانت مشقته.

4. القرآن الكريم يصل السماء بالأرض، فحافظوا على هذا الصلة؛ لنعيد أيام الوحى من جديد (أم أيمن تبكى لانقطاع الوحى من السماء بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم):

القرآن هو كلام الله، كلما قرأنا فى كتابه، أو وقفنا بين يديه نقرأه فى الصلاة، فإننا نصل السماء بالأرض، ونعيد أيام الوحى من جديد .. فلنستشعر ونحن نقرأ القرآن أن هذه الآيات تنزل لأول مرة علينا، وأن الله ينزلها علينا طلبًا للتنفيذ والتغيير، وأنه من الشرف لنا أن الله يحدثنا ونحدثه .. إنه شعور مختلف بآيات القرآن الكريم، جعل أم أيمن تبكى

لأن الوحى انقطع، وأن شيئًا كانوا يسعدون به، يقربهم من اللـه، لم يكن قـد انتهـى إلا بوفـاة الرسول، وهو ما يعكس ارتباط أم أيمن بالقرآن ارتباطًا شديدًا ..

إن ما نزل به الوحى بين أيدينا، فلنجعله ينزل علينا كل يوم.

* * *



أم كلثوم بنت محمد

الصابرة

أم كلثوم بنت محمد
الصابرة

فى بيت هادئ لأب وأم حنونين، وقبل سبع سنوات من بعثة النبى، تخرج أم كلثوم لتستقبل نور الحياة، تتلقى ابتسامات أمها خديجة وأبيها محمد وأختها زينب.

ولدت أم كلثوم بعد عام أو عامين من مولد أختها رقية، ليكبرا معًا، ويلعب السن دوره فى التقارب بينهما يومًا بعد يوم ..

بعد سبع سنوات تدرك أم كلثوم أن شيئًا ما كبيرًا يحدث لأبيها، ترى ذلك فى حديث أمها وأبيها وإخوتها، والجو العام من حولها ..

لقد أصبح أبوها نبيًّا مرسلًا من اللـه ..

مؤكد أن ما حدث سيكون له تأثيره المباشر على حياتها الخاصة؛ فلقد اعتاد الناس ألا يفصلوا بين أبناء الزعماء وبين آبائهم وأبنائهم، وهذا ما حدث بعد عامين تقريبًا، بعد أن وصلت أم كلثوم إلى سن الزواج و ...

" جئناك نخطب ابنتينا رقية وأم كلثوم، وما أراك تضِنّ بهما على ابنى عمك .. عتبة وعتيبة ابنا العم عبد العزى " ..

كانت هذه كلمات أبى طالب عم النبى، عندما أتى إلى بيت الرسول يريد خطبة ابنتيه رقية وأم كلثوم لعتبة وعتيبة ابنى ابن أخيه عبد العزى بن عبد المطلب (أبو لهب)، ويرد الرسول بلطف على عمه أبى طالب دون أن يحسم الأمر، قائلًا فى ابتسامة:

" معاذ القرابة والرحم، ولكن هلا أمهلتنى يا عم حتى أتحدث فى هذا إلى بيتى؟"

كانت المشورة وأخذ الرأى سلوكًا طبيعيًّا عن الرسول، وكان التفاهم بينه وبين السيدة خديجة دافعًا لأن يؤجل الرسول الرد؛ حتى يتحدث إلى زوجته فيعرف رأيها.

لكن الأمر على خديجة لم يكن سهلًا أبدًا ..

فخديجة تعرف جيدًا من هى أم عتبة وعتيبة، إنها أم جميل، المرأة القاسية، سليطة اللسان، سيئة الطباع والخلق، كيف ستتعامل مع ابنتيها؟ وكيف ستتفاهم معها رقية وأم كلثوم؟

لكن ربما كان رفضها القاطع فى وجود قرابة الرسول لهما، كان فى نظرها سيسبب مشكلة ..

واستقر الأمر فى النهاية على الموافقة، ليعقد قران رقية وأم كلثوم على عتبة وعتيبة.

لكن دعوة النبى فى مكة وتزايدها يومًا بعد يوم، كان لها تأثيرها المباشر على ذلك الزواج ..

لم يتحمل عبد العزى بن عبد المطلب ما يدعو إليه الرسول، ورأى فى كلامه تهديدًا لتجارته ومكانته، وأخذ قلقه يزيد يومًا بعد يوم، وتحول هذا القلق إلى عداء صريح منه ومن زوجته أم جميل، حتى وصل الأمر إلى درجة غير مسبوقة، لينزل اللـه فيه سورة تعده بالعذاب الأليم:

بسم اللـه الرحمن الرحيم: (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ {1/111} مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ {2/111} سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ {3/111} وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ {4/111} فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ {5/111}) **[المسد].**

وبدرجة شدة الآيات ووضوحها وقوتها، كان عناد أبى لهب وتكبره وتجبره ..

لم يترك لنفسه مهلة للتفكير والمراجعة، بل تمادى فى كبره وتحديه وغبائه، ليقول لولديه فى غضب شديد:

رأسى من رأسيكما حرام إن لم تطلقا ابنتى محمد ..

ويستجيب الولدان لأمر أبيهما فى استسلام غريب، ويتم تطليق رقية وأم كلثوم بالفعل..

رغم أن التخلص من حماة كأم جميل زوجة أبى لهب يعد غنيمة، إلا أنه بمرور الأيام تبدأ كلمة سخيفة فى الهجوم على أم كلثوم، وتزيد من هجومها بتوحش يومًا بعد يوم ..

" مطلقة "

كلمة قاسية على أى فتاة أو امرأة، ويزيد من حدتها وقسوتها أن الأيام تمر عليها دون جديد، وأن السنوات تمضى دون أن يتقدم أحد ..

لكنه الإيمان بالله، يلهم الصبر والقوة ويشفى الصدور ..

تعيش أم كلثوم لترى الأحداث من حولها تتصاعد، والقسوة والجبروت يتزايد على أبيها وعلى المسلمين ، لتصل إلى ذورتها فى حصار عنيف لكل المسلمين، فى شعب أبي طالب.

ثلاث سنوات متواصلة، بلا طعام أو أى مساعدات إلا خلسة.

تنظر أم كلثوم إلى هذا كله، وتتذكر أن من يشارك بقوة فى حربه ضد أبيها هو أبو من كان سيكون زوجًا لها يومًا.

وينتهى الحصار أخيرًا، لكن أمها خديجة تخرج مجهدة جدًّا؛ فلقد أجهدها المرض بشدة..

وبعد أيام يرتجف قلبها بشدة أكبر ..

لقد ماتت أمها خديجة، وتنهمر الدموع من أم كلثوم، وينفطر قلبها حزنًا وكمدًا.

لكن أم كلثوم الصابرة المحتسبة تصبر كعادتها إلى أن يأتى يوم يأذن الله لنبيه وللمسلمين بالهجرة إلى المدينة ..

وفى المدينة، يأتى الخير لأم كلثوم ..

الخير الكثير.

* * *

الوضع مختلف فى المدينة، والدعوة تأخذ شكلًا آخر، هناك ترحيب شديد بالرسول، هناك حرية أكبر للدعوة، والمسلمون يأخذون فرصة أكبر للتفكير فى نشر الدعوة، وتوصيل الفكرة للناس.

إلا أن هذا لا يعني أن قريشًا قد هدأت، وأنها قد تركت الساحة خالية للمسلمين في المدينة، فبعد عام واحد فقط كان موقعة بدر، أول صدام مسلح بين المسلمين والمشركين.

وبينما كانت الأحداث ملتهبة في ساحة المعركة، كان المرض ينهش في جسد أختها رقية.. كانت أم كلثوم ترى المرض يتزايد على وجهها ساعة بعد ساعة، حتى سمح الرسول لزوجها عثمان بن عفان بأن يجلس بجانبها وألا يخرج للحرب.

لكن قدر الله ينفذ، ويأتي الخبر الأليم على أم كلثوم .. لقد ماتت أختها رقية.

تتضاعف الوحدة على أم كلثوم أضعافًا مضاعفة، فلقد تركها زوجها من قبل، وها هي أقرب الأخوات إليها تموت وتتركها.

لكنها لم تكن تعلم أن الله قد قدر خيرًا كثيرًا .. كان رسول الله يعلمه بعد أن دار حوار بينه وبين عمر بن الخطاب، بدا فيه عمر بن الخطاب غاضبًا لأن أبا بكر الصديق وعثمان بن عفان لم يردا عليه بشأن الزواج من حفصة، وهنا يقول الرسول له باسمًا:

" يا عمر يتزوج حفصة من هو خير من عثمان، ويتزوج عثمان من هي خير من حفصة"..

كانت الجملة غامضة على عمر وعلى الكثيرين .. ولكن بعد أيام، اتضحت الجملة تمامًا، وخصوصًا لأم كلثوم ..

فلقد تقدم عثمان بن عفان ليتزوج أم كلثوم .. وهنا يقول رسول الله لعثمان باسمًا:

" أزوجك أم كلثوم أخت رقية، ولو كن عشرًا لزوجتكهن".

وتعيش أم كلثوم مع زوجها عثمان، يكملان رسالة الجهاد مع أبيها رسول الله، تعيش المحنة في أحد والأحزاب، ثم تنفرج الأمور شيئًا ما في صلح الحديبية، إلى أن يأتي نصر الله في فتح مكة في السنة الثامنة من الهجرة ..

وكانت أم كلثوم قد تعبت من مشوار طويل، مشوار أجهدها وأتعبها، فأرادت أن ترتاح منه.

فبعد عام واحد من فتح مكة، في السنة التاسعة من الهجرة، وقبل أن تذهب أم كلثوم لتزور قبر والدتها خديجة، تموت أم كلثوم، لتلحق بأمها خديجة وأختها رقية، وتعاود الحديث إليهما كما كانت تتحدث إليهما في بيتهم الصغير.

وتتساقط دموع الرسول، وهو يدفنها بجانب ابنته رقية، ليضمها قبر واحد في بيت عثمان ..

لقد عادا قريبين من بعضهما كما كانا في بيت أمهما خديجة، يتحدثان معًا ويحكيان الحكايات.

وسيكملان حديثهما معًا في الجنة غدًا.

* * *



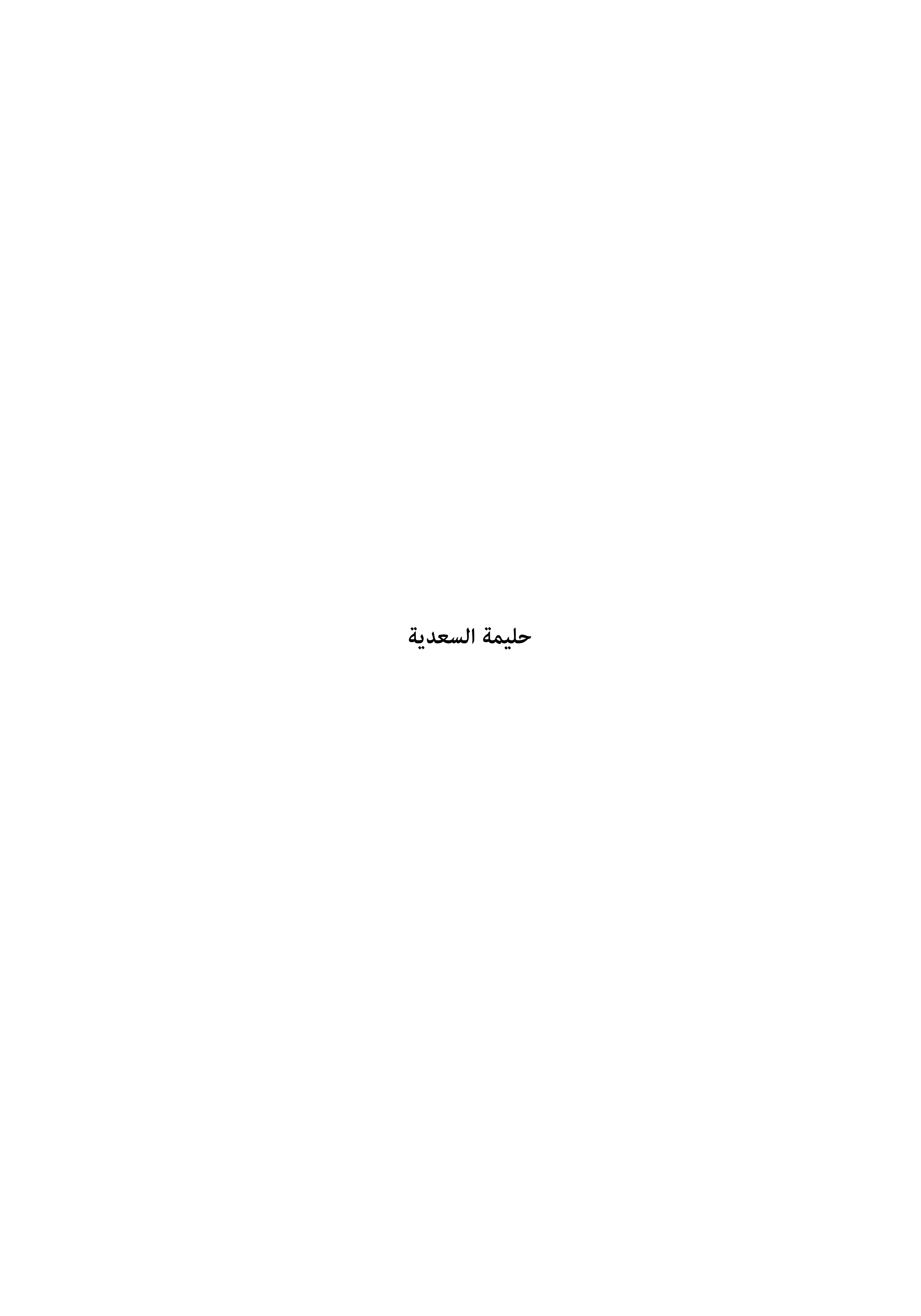
دروس وتحليل

اللـه لا ينسى المظلومين الصابرين (اللـه يعوض أم كلثوم بعد طلاقها بعثمان بن عفان زوجًا):

اللـه لا ينسى المظلوم، طالما رضى المظلوم بقضاء اللـه وصبر صبرًا جميلًا، وطالما وثق بربه، ووكله فى شئونه، فسيعوضه اللـه حتمًا، ولو بعد حين، وطلاق المرأة ظلمًا من أشد الأمور صعوبة على المرأة، وهو ما حدث لأم كلثوم على مكانتها فى مكة، ولكن صبرها عوضها بمن هو أفضل من ابن عمها، بما لا يجعل مجالا للمقارنة بينهما، وهكذا سيعوض اللـه كل من ظلم، وسيخفف عنه ويشف قلبه، إنه العدل الغفور الرحيم.

* * *





حليمة السعدية

حليمة السعدية

كعادة النساء المرضعات في قبيلة بني سعد، يتجهن كل فترة إلى إحدى البوادي في مكة ينتظرن عروض الأمهات عليهن برضاعة أبنائهن .. كانت العادة أن يرضع الولد أو البنت في البادية؛ حتى يصبح الأولاد أصح أجسامًا وأصفى ذهنًا وأكثر ذكاء ..

تمر الأمهات والآباء وهم يحملون أولادهم على المرضعات، يهتمون بشكل المرضعة، وتهتم المرضعة بنسب الطفل .. من أبوه؟ من عائلته؟ فدرجة الغنى تعني المزيد من الأموال والهدايا و ..

" من والده؟ "

هكذا سألت إحدى المرضعات عبد المطلب - جد الطفل محمد - سؤالها المعتاد بعد أن أخذت الطفل من يده لتحمله باسمه، ليجيب عليها عبد المطلب قائلًا:

أبوه عبد الله بن عبد المطلب ..

لكن المعلومات تتناثر بأن الطفل يتيم، فيتغير وجه المرضعة، وتضيق ابتسامتها وتعيده إلى جده عبد المطلب في اعتذار صامت ..

يتنقل عبد المطلب من مرضعة إلى أخرى، ليجد الإجابة نفسها على وجوه الجميع، وكانت لغة العيون تكفي، وكانت العبارة نفسها تتناقل في همس:

وماذا ستصنع لنا أمه؟

من بعيد .. كانت حليمة السعدية تجلس مع زوجها الحارث، وابنها عبد الله، بعد أن أتيا على حمأة ومعهم ناقة لا حليب لها، لم يكن من نصيبها طفل في ذلك اليوم، لكنها من بعيد، كانت تلاحظ محنة هذا الطفل المسكين، كل المرضعات يرفضنه، عبد المطلب يمر عليهن جميعًا دون جدوى.

تحرك قلب حليمة بالعطف والشفقة من ناحية، وشعرت بالإحراج من موقفها من ناحية أخرى، فلقد وجدت كل أصحابها قد أخذن أطفالًا يرضعنهم، إلا هى، فنظرت إلى زوجها الحارث، وهى تقول له:

يا حارث .. ما بقى من صواحبى امرأة إلا أخذت رضيعًا غيرى، والله إنى لأكره أن أرجع من بين صواحبى، ليس معى رضيع.

ثم تابعت فى حسم:

لأنطلقن إلى ذلك اليتيم فلآخذنه.

نظر إليها الحارث وسكت برهة، ثم قال:

لا عليك يا حليمة، افعلى، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة ..

انطلقت حليمة فى اتجاه عبد المطلب تهرول حتى وقفت عنده قائلة:

إنى أسالك رضاع هذا الطفل ..

نظر إليها عبد المطلب باسمًا، وهو يقول:

من أنت؟

قالت:

امرأة من بنى سعد ..

قال: ما اسمك؟

قالت: حليمة ..

قال: بخ بخ .. سعد وحلم ، هاتان خلتان فيهما غناء الدهر.

أعطى عبد المطلب الطفل لحليمة لتأخذه فى رفق، ثم أخذت تنظر إليه برهة، ثم انتحت جانبًا، ووضعته فى حجرها، ليشرب الطفل محمد ما شاء من لبن، ثم يشرب أخوه ما شاء من لبن، حتى شبع الاثنان وناما.

ربما لاحظت حليمة أن شيئًا ما تغير، وأن كمية اللبن الموجود فى ثديها قد زادت ..

لكن الملاحظة الثانية كانت مثيرة للانتباه أكثر ..

لقد لاحظ زوجها أن ضرع الناقة قد انتفخ، فاتجه إليها ليحلبها، فإذا بها تدر لبنًا كثيرًا، ليشرب منه هو وزوجته حليمة ويشبعا ..

وينظر الحارث إلى زوجته حليمة، ليقول لها وكأنه اكتشف شيئًا:

تعلمى واللـه يا حليمة، لقد أخذت نسمة مباركة.

نظرت إليه حليمة باسمة، وكأنها تريد أن تقول له إن نفس الإحساس قد وصل إليها ..

لكن ملاحظات حليمة والحارث لم تقف عند هذا الحد ..

فلقد كان لحليمة أغنام ترعاها، تطلقها كل يوم فى الصحراء تأكل، وكان غيرها من أصحابها يفعلن ذلك، لكن الملاحظة التى لاحظها الجميع، أن أغنام حليمة بعد فترة يمتلئ ضرعها لبنًا فتحلب منه حليمة الكثير، وأن الأغنام الباقية لا يمتلئ ضرعها بهذه الدرجة وهذه السرعة، فظنوا أن الأماكن التى ترعى فيها حليمة هى السبب، فأخذن يقلن لبعضهن البعض:

ويلكم .. اسرحوا حيث يسرح راعى بنت أبي ذؤيب، فتروح أغنامهم جياعًا ما تبض بقطرة لبن، وتروح أغنام حليمة شباعًا.

ظن الجميع أن السر فى المكان، لكن حليمة وحدها كانت تعلم أن السر ليس فى المكان، ولكنه فى ذلك الطفل الصغير .. محمد.

تعلقت حليمة بمحمد، فى كل يوم تنظر إليه وهى ترضعه تشعر أن له فضلا عليها، وأنه طفل نادر، ليس ككل الأطفال.

بعد عامين ستفطم حليمة محمدًا، لم تكن تريد للأيام أن تمر ..

لكنها مرت ..

وتأخذ حليمة طفلها فى حزن، وتذهب به إلى أمه آمنة، فترجوها أن يبقى عندها وقتًا آخر، وتقول لها فى لهفة:

يا آمنة .. لو تركت بُنى عندى حتى يغلظ، فإنى أخشى عليه وباء مكة.

وترددت آمنة، إلا أن حليمة ظلت تحاول معها تقنعها تارة وتترجاها تارة، حتى وافقت أخيرا، وأعطتها طفلها محمد لفترة أخرى ..

لم تصدق حليمة نفسها، وهى تعود بمحمد إلى بيتها مرة أخرى .. لقد رأت مع الطفل أمورًا لم ترها من قبل، وظلت هذه المشاهد تتكرر من حين لآخر ..

" أين أنت يا محمد "

هتفت بها حليمة، عندما تأخر عليها محمد خارج المنزل، فخرجت تبحث عنه، لتجده جالسًا بجانب أخته يتحدثان، فما إن وصلت إليهما، حتى سألت الأم فى استنكار:

تجلسان سويًّا فى هذا الحر؟

نظرت الابنة إلى أمها قائلة فى تعجب:

ما وجد أخى حرًّا، رأيت غمامة تظلل عليه، إذا وقف وقفت، وإذا سار سارت، حتى انتهى إلى هذا الموضع ..

كان شعور حليمة يتأكد كل مرة، حتى جاء الموقف الذى لم تتحمله حليمة ..

أبدًا ..

* * *

ظل محمد فى بيت حليمة فى بادية بنى سعد عامين آخرين، تسعد حليمة برؤيته كل يوم، ويسعد هو باللعب مع ابنها وأطفال البادية، حتى أتى يوم رأى فيه ابنها عبد اللـه مشهدًا غريبًا ومفزعًا .. و ..

" يا أماه ..يا أماه .. لقد قتل أخى محمد".

أصاب الفزع حليمة لتصرخ فى وجه ابنها قائلة له فى عصبية:

ماذا؟ .. ماذا تقول يا عبد اللـه؟

حاول الولد أن يلتقط أنفاسه ليحكى له، وهو يرتعش قائلًا:

ذاك أخـى القـرشى قـد أخـذه رجـلان علـيهما ثيـاب بـيض، فأضجعــاه فشـقا بطنــه، (فهـما يسوطانـه) .. فخرجا نحوه، فوجداه قائمًا منتقعًا وجهه، فالتزماه وقالا له: (مالك يا بنى؟) .. قـال: " جاءنى رجلان عليهما ثياب بيض، فأضجعانى وشقا بطنى فالتمسا فيه شيئًا لا أدرى ما هو ".

لم يكن الولد يهيأ له أو يتخيـل، فلقـد كـان كـل مـا رآه صـحيحًا .. فلقـد أتى جبريـل الطفـل محمد، وهو يلعب مع الغلمان فأخذه، فصرعه، فشق عن قلبه، فاستخرج القلب، فاستخرج منه علقة، فقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله فى طست من ذهـب بمـاء زمـزم، ثـم لأمـه - أى جمعه وضم بعضه إلى بعض - ثم أعاده فى مكانه ..

كان الموقف أكبر من أن تستوعبه حليمة، أو يستوعبه الحارث زوجها، فـانتفض عـلى الفـور، ليقول لحليمة فى حسم:

يا حليمة، لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب، فألحقيه بأهله، قبـل أن يظهـر ذلـك به.

وبالفعل، تبدأ حليمة فى تجميع حاجيات الطفل محمد، لتتجه به إلى آمنة، والتى بدا عليهـا التعجب لتسأل حليمة:

ما الأمر يا حليمة؟ كنت حريصة على بقاء محمد معك.

قالت حليمة لآمنة:

نعم يا آمنة .. ولكنى سأحكى لك.

وأخذت حليمة تحكى لآمنة ما حكاه ابنه لها، وآمنة تستمع فى اندهاش ثم سألت حليمة:

أتخوفت عليه الشيطان؟

أجابت حليمة:

نعم يا آمنة .. نعم ..

ضمت آمنة محمد إلى صدرها، ثم قالت وهى تنظر إليهم نظرة عميقة:

كلا، والـلـه ما للشيطان عليه من سبـيل، وإن لبُنَـى لشأنـًا.

ثم تابعت:

أفلا أخبرك خبـره؟

قالت حليمة فى شغف:

نعم ..

سكتت آمنة لبرهة وكأنها تتذكر، ثم قالت:

رأيت حين حملت به أنه خرج منى نور أضاء لى قصور بصرى من أرض الشام، ثم حملت به فوالـلـه ما رأيت من حَمْل قط كان أخف علىَّ ولا أيسر منه، ووقع حين ولدته وإنه لواضع يديه بالأرض رافع رأسه إلى السماء ..

ثم نظرت إلى حليمة، وقالت لها باسمة:

دعيه عنك يا حليمة .. دعيه عنك وانطلقى راشدة ..

وتنظر حليمة إلى محمد نظرة وداع، وتودعه وتودع آمنـة، وهـى تخـرج حزينـة عـلى فـراق الطفل.

خرجت وهى تعلم أنها ربما لن تراه بعد اليوم .. لكنها لم تكـن تعلـم أن القـدر يرتـب لهـما لقاءين آخرين ..

بعد سنوات طوال.

* * *

تنصرف حليمة إلى بيتها، تربى أولادها وترضع أبناءهـا وأبنـاء غيرهـا، تأخـذها الحيـاة، ويـرد عليها الأطفال من هنا وهناك، لكن الطفل محمد لا يغيب عن ذاكرتها أبدًا ..

أما محمد، فيكبر ويكبر، حتى يصبح شـابًّا يافعًـا تتحـدث مكـة كلهـا عـن أخلاقـه وشـهامته ورجاحة عقله، وتتناثر أخباره لتأتى لحليمة من بعيد، ربما كانت تذكر لصديقاتها أن هذا الشاب ذائع الصيت، كانت ترعاه فى بيتها أربع سنوات كاملة.

بعد سنوات يصبح محمد حديث مكة كلها، وصاحب ثورة بين أهلها ..

لقد أصبح نبيًّا ..

الآن أدركت حليمة ما كانت تقوله آمنة:

" كلا، واللـه ما للشيطان عليه من سبيل، وإن لبُنَى لشأنًا " ..

كانت تستمع حليمة إلى أخباره من بعيد، وتتذكر أيامها مع هذا الطفل العجيب، كانت تحزن لهذا الظلم الواقع عليه، وهذا الاضطهاد الوحشى من رجال قريش ضده.

وكانت تفكر فى كلامه ودعوته ..

وقررت أن تقطع التفكير، وتذهب إلى رسول اللـه، تخبره أنها آمنت به .. وأسلمت.

تظل حليمة تراقب الرسول وهو يستمر فى رحلته من بعيد، حتى يهاجر الرسول إلى المدينة ويحارب قريشًا، فى بدر وأحد والأحزاب، حتى تجىء لحظة اللقاء الثانى ..

لقد دخل محمد وجيشه فاتحا مكة ..

واستسلمت قريش للرسول، وتخرج مكة عن بكرة أبيها لترى المشهد التاريخى،

والرسول يعفو عن الجميع، ويقول فى رحمة وتواضع:

" اذهبوا فأنتم الطلقاء ".

ويهلل الناس ويذهبون ليسلموا على الرسول، إلا أن امرأة عجوزًا كانت تنظر للرسول من بعيد نظرات مختلفة عن الجميع، حتى شغلت فكر الرسول؛ مما دعاه أن يسأل الصحابة، وهو يشير إليها:

من هذه المرأة؟

وهنا يقول له أحد الصحابة باسمًا:

يا رسول اللـه مالك ومالها، إنها مرضعتك ..

وفجأة يتهلل وجه النبى، ويجرى إليها فرحًا، ويقول:

" أمى .. أمى ".



ثم يخلع عباءته ويفرشها على الأرض، ويجلسها عليها، ويقول للصحابة:

" دعونى أتحدث مع أمى " ..

وظل الاثنان يتحدثات فى سعادة وشوق عن ذكريات الطفولة الجميلة، حتى تأتى لحظة الفراق من جديد .. لكن أحدًا لم ينس الآخر ..

وفى غزوة حنين، غنم المسلمون غنائم كثيرة، فقال الصحابة هنالك من المنهزمين أخ لك فى الرضاعة يا رسول الله ..

وهنا توقف الرسول، ثم قال:

" إن كان ممكنًا إعادة الغنائم؛ لأن فيهم أخًا لى فى الرضاعة " .. فقالوا يا رسول الله: وهل تعرفه؟

قال رسول الله:

" لم أره قط ".

فتعجبوا وقالوا: ولماذا تفعل ذلك يا رسول الله؟

قال رسول الله:

" وفاء لأمى حليمة، وإنه لأخى ".

رغم تباعد المسافات، لم ينس النبى الكريم أمه حليمة، ولم تنس حليمة طفلها الصغير، الذى كان يحل عليها البركة فى كل مكان .. لكن القدر لم يرتب لهما لقاء ثالثًا بعد ذلك ..

فلقد ذهب كل فى طريقه .. على أمل أن يلتقيا فى الجنة، ويخلع رسول الله لها عباءته، ويفرشها لها على الأرض من جديد ..

ثم يجلسان يحكيان ..

ويحكيان ..

ويحكيان.

* * *

دروس وتحليل

1- عدم الاستسلام والإصرار على بلوغ الهدف يكلل المجهود بالنجاح (السيدة حليمة لم تستسلم بعد أن جلست طوال اليوم دون أن يعرض عليها طفل ترضعه، وأصرت على أن تعود بطفل، فكان محمد من نصيبها):

عدم اليأس ومحاولة الوصول إلى نتيجة أمر مهم للشخصيات التى تريد النجاح، فالذى يريد النجاح لابد أن يتوقع العقبات، ومن يثابر ويجتهد سيقف الله بجانبه، والسيدة حليمة السعدية لم تستسلم؛ لأنها لم تفز بطفل فى اليوم الذى ذهبت فيه للبادية، ولكنها أصرت على أن تعود بطفل، ورق قلبها لطفل مسكين، فكان فاتحة خير عليها، وكأنها كانت رسالة لمثابرتها على تحقيق ما تريد.

2- الشيطان له نصيب من كل واحد فينا، فما هو نصيب الشيطان من نفسك (جبريل يأخذ قلب الطفل محمد ويغسله بماء زمزم؛ ليطهره من نصيب الشيطان منه فى واقعة شق الصدر)

كل منا له شيطانه الذى يعيش من أجل أن يوقعه فى المعصية، وهو لهذا الهدف يحاول مرارًا وتكرارًا، ويتفنن فى تزيين الشر والمعصية لصاحبه، حتى أنه أحيانًا يتسلل إليه بمداخل إيمانية، والسؤال .. إلى أى حد تمكن الشيطان منا؟ إلى أى حد نستسلم له؟ هل نقاومه؟ هل ندرك أساليبه؟ هل نصيبه من أنفسنا يزيد أم ينقص؟ هل نجهده بطردنا لوساوسه دائمًا أم تصالحنا معه وأصبحنا لا نرد له طلبا؟ إن معركة الشيطان والإنسان هى معركة كل صباح .. فلنجهز أسلحة الإيمان بالعبادة والذكر وجهاد النفس، حتى نقابل ربنا بقلب سليم، وأعمال صالحة ننال بها الفوز العظيم .. الجنة.

3- الوفاء خلق عظيم من أخلاق الإسلام، كثيراً ما تلهينا الدنيا عن الانتباه إليه (الرسول يرجو المسلمين إعادة الغنائم بعد غزوة حنين لأخ له فى الرضاعة من السيدة حليمة السعدية وفاء لها)

آباؤنا لهم من الفضل علينا ما لا يعد ولا يحصى، وكثير من أصدقائنا أسدوا إلينا الجميل تلو الجميل، لكننا لا نقابل تلك الجمائل بما تستحق فى كثير من الأحيان، لو عاملنا أمهاتنا وآباءنا، نظير ما قدموه لنا من خدمات وتضحية طيلة حياتهم، لما وفينا لهم حقهم أبدًا، فما بالنا نغضبهم أحيانًا، ونغلظ إليهم القول أحيانًا أخرى؟! وما بالنا تلهينا مشاغل الحياة عن معروف أو أكثر أسداه إلينا صديق يومًا فلا نتذكره له؟!

لقد ظل الرسول يتذكر ما فعلته معه السيدة حليمة رغم مرور أكثر من خمسين سنة، وهو يريد أن يرد لها الجميل بأى صورة، وما إن وجد الفرصة بعد غزوة حنين حتى استأذن الصحابة فى أن يردوا الغنائم لأخ له فى الرضاعة من أمه حليمة .. إنه مثال عظيم فى الوفاء، نحتاج أن نقتدى به فى حياتنا .. فلنتذكر معروفًا واحدًا صنعه آباؤنا أو أصدقاؤنا فينا، ثم نفكر فى عمل وفاء لهم مرة كل شهر .. ساعتها ستدخل فى قلبهم السعادة، وسيمنحك الله سعادة أكبر؛ لأنك كنت سببًا فى إدخال السرور على إنسان.

* * *

رقية بنت محمد

مهاجرة إلى اللـه

رقية بنت محمد
مهاجرة إلى الـلـه

بعد ثلاث سنوات من مولد زينب، بنت الرسول الكبرى، وقبل سبع سنوات من بعثة النبى، أنعم الـلـه عليه وعلى زوجته خديجة برقية، ثم أم كلثوم، وبعد سنوات تزوجت زينب من ابن خالتها أبى العاص بن الربيع، وتمر الأيام والسنون، وينزل الـلـه على رسوله الرسالة، ليبدأ الرسول فى إبلاغها سرًّا .. فى نفس الوقت الذى يقترب سن رقية وأختها من الزواج، ليأتى إلى البيت من يريدهما لابن أخيه و ..

" جئناك نخطب ابنتينا رقية وأم كلثوم، وما أراك تضِنّ بهما على ابنى عمك .. عتبة وعتيبة ابنا العم عبد العزى ".

كانت هذه كلمات أبى طالب عم النبى، عندما أتى إلى بيت الرسول يريد خطبة ابنتيه رقية وأم كلثوم لعتبة وعتيبة ابنى ابن أخيه عبد العزى بن عبد المطلب (أبو لهب)، ويرد الرسول بلطف على عمه أبى طالب، دون أن يحسم الأمر، قائلًا فى ابتسامة:

" معاذ القرابة والرحم، ولكن هلا أمهلتنى يا عم حتى أتحدث فى هذا إلى بيتى؟"

كانت المشورة وأخذ الرأى سلوكًا طبيعيًّا عن الرسول، وكان التفاهم بينه وبين السيدة خديجة دافعًا لأن يؤجل الرسول الرد حتى يتحدث إلى زوجته أم رقية، فيعرف رأيها.

لكن الأمر على خديجة لم يكن سهلًا أبدًا ..

فخديجة تعرف جيدًا من هى أم عتبة وعتيبة، إنها أم جميل، المرأة القاسية، سليطة اللسان، سيئة الطباع والخلق، كيف ستتعامل مع ابنتيها؟ وكيف ستتفاهم معها رقية وأم كلثوم؟

لكن ربما كان رفضها القاطع فى وجود قرابة الرسول لهما، كان فى نظرها سيسبب مشكلة ..

واستقر الأمر فى النهاية على الموافقة، ليعقد قران رقية وأم كلثوم على عتبة وعتيبة.

لكن دعوة النبى فى مكة، وتزايدها يومًا بعد يوم، كان لها تأثيرها المباشر على ذلك الزواج ..

لم يتحمل عبد العزى بن عبد المطلب ما يدعو إليه الرسول، ورأى فى كلامه تهديدًا لتجارته ومكانته، وأخذ قلقه يزيد يومًا بعد يوم، وتحول هذا القلق إلى عداء صريح منه ومن زوجته أم جميل، حتى وصل الأمر إلى درجة غير مسبوقة، لينزل الله فيه سورة تعده بالعذاب الأليم ..

بسم الله الرحمن الرحيم: (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ {1/111} مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ {2/111} سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ {3/111} وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ {4/111} فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ {5/111}) **[المسد].**

وبدرجة شدة الآيات ووضوحها وقوتها، كان عناد أبى لهب وتكبره وتجبره .. لم يترك لنفسه مهلة للتفكير والمراجعة، بل تمادى فى كبره وتحديه وغبائه، ليقول لولديه فى غضب شديد:

رأسى من رأسيكما حرام إن لم تطلقا ابنتى محمد ..

ويستجيب الولدان لأمر أبيهما فى استسلام غريب، ويتم تطليق رقية وأم كلثوم بالفعل..

ربما شعرت رقية بالظلم حينها؛ لأنها طلقت بلا ذنب، وربما شعرت بالسعادة؛ لأنها تخلصت من نسب يعادى أبيها، ويعادى دعوته، ويعادى الله ..

ربما ..

لكن على أى حال، كانت الأيام تحمل خيرًا كثيرًا ..

وكثيرًا جدًّا ..

* * *

فى كل الأحوال يصبح لفظ مطلقة غاية فى الصعوبة على بنت، ومهما كانت الملابسات والظروف، يظل أمر الطلاق صعبًا؛ بما يحمل مرارة فى النفس، وبما يعرضها لتلميحات من هنا وهناك.

ويظل الأمر قاسيًا إلى أن ينسى، أو يحدث حدث استثنائى، يخفف الألم، ويلملم الجراح .. ومع رقية .. حدث هذا الحدث الاستئنائى ..

فلقد كان ينتظرها شاب من أفضل شباب مكة خلقًا وأغناهم وأكرمهم نسبًا وجاهًا ..

إنه عثمان بن عفان ..

لقد عوض الله رقية عن مشرك أبويه أعداء للدين وللبشر، بمسلم تقى ورع لطيف الطباع ..

وتشرق الحياة من جديد، وتملأ الفرحة قلب رقية مع زوجها عثمان بن عفان .. إنه زواج أكثر تفاهما، وأكثر نجاحًا، ويكمل الاثنان المشوار مع الرسول فى مكة لنصرة الدين والفكرة الجديدة، حتى تأتى السنة الخامسة من الهجرة، حيث يشتد الإيذاء على المسلمين إلى درجة لا تحتمل، ويقرر الرسول هجرة المسلمين إلى الحبشة؛ حتى يتخذ المسلمون هناك قاعدة جديدة لهم، يفرون بها بدينهم إلى حين.

وكانت رقية أول المهاجرين مع زوجها إلى الحبشة ..

وتودع رقية والدها ووالدتها، وتخرج وهما يدعوان لها بالأمان والسلامة ..

وعلى دابة ضعيفة تركب رقية متجهة إلى الحبشة، ضمن أحد عشر امرأة، هاجرن فى سبيل الله.

وفى مكة .. يشغل بال الرسول المسلمون المهاجرون .. هل وصلوا أم لا؟ هل حدث لهم مكروه أم لا زالوا فى أمان؟ هل تعقبهم أحد وآذاهم أم أنهم لا زالوا سالمين؟

وتشغل باله رقية ابنته، فلقد تأخر الخبر، وبدأ القلق يتسرب إلى نفسه كأب، حتى جاءت إليه امرأة من قريش تحمل الخبر، وتطمئنه، وهى تهتف قائلة:

يا محمد، قد رأيت ختنك -صهرك- ومعه امرأته ..



وينظر إليها الرسول ليقول بلهفة:

" على أى حال رأيتهما؟ ".

أجابت المرأة:

رأيته قد حمل امرأته على حمار من هذه الدابة الضعيفة، التى تدب فى المشى، يسوقها.

وهنا قال رسول اللـه داعيًا لهما:

" صحبهما اللـه، إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط عليه السلام ".

لقد نالت رقية مع زوجها عثمان شرفًا كبيرًا؛ إنها أول أسرة هاجرت فى سبيل اللـه بعد نبى اللـه لوط عليه السلام ..

بعيدة المسافة، ومرهق السفر، ولكن رقية كانت تعرف معنى الجهاد، وتقدر قيمة الرسالة، وتدرك أن المشقة ثمن زهيد لهذا الدين العظيم.

وفى الحبشة .. تتغير الأوضاع وتستقر الحياة مع النجاشى العادل، وتنجب رقية لعثمان " عبد اللـه ".

وتستمر رقية مع عثمان فى الحبشة يعيشان فى هدوء مع المسليمن، تربى ولدها عبد اللـه، وتتحسس أخبار أبيها وأمها من بعيد، وما وصل إليه المسلمون فى معركتهم مع قريش ..

إلا أن الأخبار كانت تأتى دائمًا مؤلمة موجعة، فلقد وصلهم نبأ الحصار الآثم الذى فرضته قريش على المسلمين فى شعب أبى طالب لمدة ثلاث سنوات متصلة، وما أن انتهى الحصار، حتى وصلها الخبر.. خبر انفرط له قلبها ..

لقد ماتت أمها خديجة.

* * *

أمر صعب أن تتلقى ابنة خبر وفاة أمها فى الغربة، من المؤلم أن تتوارى أعز الناس إليها عن الحياة، دون حتى أن تراها وتقبل جبينها، وتبكى بين يديها، وتلقى عليها النظرة الأخيرة.

أمر صعب على رقية أن تعلم أنها لن ترى أمها خديجة مرة أخرى، وأن أمها التى طالما صاحبتها، وظلت تحكى معها ولها، لن تحكى معها ولها بعد اليوم.

كانت رقية تعلم أن مصيبة الموت لم يكن لها إلا الصبر، وصبرت رقية.

وبعد وفاة أمها بثلاثة أعوام، جاء الخبر بهجرة الرسول إلى المدينة هربًا من قريش وجبروتها، والاتجاه لبناء الدولة المسلمة هناك.

وتهاجر رقية مع زوجها عثمان وابنها عبد الله إلى المدينة.

كان عبد الله قد بلغ ست سنوات، لكن القدر لم يشأ أن يمهله أكثر من ذلك، فلقد نقره ديك فى وجهه ليمرض بعدها ويموت.

تعرف رقية أنه لا دواء إلا الصبر، فتصبر وتصبر.

إلا أن اشتياقها إلى أمها وابنها زاد فى السنة الثانية من الهجرة، وبالتحديد قبيل غزوة بدر، لتمرض رقية بالحصبة، ويزداد المرض عليها حتى يأذن الرسول لعثمان ابن عفان بأن لا يخرج مع المسلمين فى بدر، ويجلس بجانبها.

وبينما كانت المعركة تشتد فى بدر، كان المرض يشتد على رقية، حتى انتشر الخبر الأليم..

لقد ماتت رقية ..

ويتماسك الرسول الأب ليهرع إلى بيتها، ليجد النساء من حولها يبكين، ويظهر الأسى والحزن فى عينيه، ويربت على أختها فاطمة يهدئها، بينما يحاول عمر بن الخطاب أن يسكت النساء بسوطه، فيمسك الرسول يده قائلًا:

" يا عمر، مهما يكن من العين والقلب فمن الله والرحمة، ومهما يكن من اليد واللسان فمن الشيطان ".

وينظر الجميع إليها النظرة الأخيرة، قبل أن تدفن فى البقيع، لتهاجر رقية إلى أمها، كما هاجرت إلى الحبشة والمدينة من قبل.

* * *

دروس وتحليل

1- اللـه لا ينسى المظلومين الصابرين (اللـه يعوض رقية بعد طلاقها بعثمان بـن عفـان زوجًا):

اللـه لا ينسى المظلوم، طالما رضى المظلوم بقضاء اللـه وصبر صبرًا جميلًا، وطالما وثـق بربـه ووكله فى شئونه، فسيعوضه اللـه حتمًا، ولـو بعـد حـين، وطـلاق المـرأة ظلـمًا مـن أشـد الأمـور صعوبة على المرأة، وهو ما حدث لرقية، على مكانتهـا فى مكـة، ولكـن صـبرها عوضـها بمـن هـو أفضل من ابن عمها، بما لا يجعل مجالا للمقارنة بينهما، وهكذا سيعوض اللــه كـل مـن ظلـم، وسيخفف عنه ويشف قلبه .. إنه العدل الغفور الرحيم.

2- رقية (ابنة الرسول) تعطـى القـدوة فى التضـحية وتحمـل المسـئولية (رقيـة أول مـن تهاجر مع زوجها عثمان بن عفان إلى الحبشة)

عادة ما يطلب المسئول ممن تحت مسئوليته أعمالًا معينة، ثم لا يقوم هـو بهـا، وعـادة مـا يطالب رئيس دولة رعاياه بالتقشف وتحمل المسـئولية، بيـنما يسـتثنى نفسـه وأولاده مـن هـذ الإجراءات، باعتبارهم طبقة أخرى، لا ينبغى أن يطبق عليهم ما يطبق عـلى النـاس .. الإسـلام لا يعرف ذلك، فعظمة الإسلام أنه يقدم القدوة دائمًا، وقبل أن يتحرك الناس يتحرك المسئول؛ حتى يقرر قيمة المساواة والعدل والقدوة، هكذا فعل " أردوغـان " رئـيس وزراء تركيـا، حيـنما كـان يشارك العمال فى حملة النظافة فى بلاده فى تركيا، وهكذا فعلت رقيـة مـع زوجهـا، فعنـدما أمـر الرسول بالهجرة إلى الحبشة، وهو أمر غاية فى الصعوبة والمشقة، ضربت رقية ابنة الرسول المثـل فى التضحية والمبادرة، بأن كانت هى وزوجها أول من ضحى وهاجر فى سـبيل اللــه؛ مـا شـجع الآخرين على الهجرة .. إن مشاركة المسئول والقائد وأبنائـه مـع الرعيـة أو المسـئولين، أمـر بـالغ الأهمية فى التأثير عليهم، ودفعهم للعمل واحترامهم لقائدهم.

3- وفاة الصغار صدمة كبيرة لأمهاتهم، لكنهم سيكونون سببًا فى دخـولهن الجنـة (رقيـة تحزن لوفاة ابنها الصغير):

من أشد المصائب أثرًا عـلى أى أم، أن تفقـد ابنهـا الرضـيع أو الصـغير، وهـو فى سـن الـبراءة الجميل، تلك البراءة الملائكية التى تذهب النظرة إليهم الهم والحزن عن الآبـاء، وتخفـف عـنهم مشقة الحياة؛ ولذلك كله، كان ثواب الـلـه عظيمًا لمن صبر على بلاء كهذا، ولن يكون لـه عـوض ومكافأة إلا الجنة.

ينادى الـلـه تبارك وتعالى يوم القيامة على أطفال المسلمين الذين ماتوا قبل أن يبلغوا الحلم .. يقول لهم: اذهبوا فادخلوا الجنة، فيقول الأطفال: لا يا رب لا ندخل حتى يـدخل معنـا آباؤنـا وأمهاتنا، فيقول الـلـه تبارك وتعالى: خدوا بأيدى آبائكم وأمهاتكم فادخلوا بهم الجنة.

إنه حديث يخفف الألم ويحمل البشرى لكل من فقـدت ابنهـا أو بنتهـا فى سـن صـغير، فلـو طلبت لابنها طلبًا من ربهـا، فلـيس أغـلى مـن أن تطلـب منـه أن تـدخل ابنهـا أو بنتهـا الجنـة، وسيكرمها الكريم بأن يجعلها رفيقة لابنها أو بنتها؛ ليكونا معًا فى حياة أبدية سعيدة، ليس فيهـا تعب ولا نصب، فاصبروا وأبشروا.

* * *

زينب بنت محمد

الوفاء العظيم

زينب بنت محمد

الوفاء العظيم

بعد خمس سنوات من زواج الرسول مـن خديجـة، وقبـل عشر سـنوات مـن بعثـة الرسـول، كانت زينب تستعد لتستقبل نور الحياة، بين أب تشهد له مكة كلها بـالخلق القـويم ورجاحـة العقل والمكانة العالية، وأم ذات نسب ومكانة، تجعلان أنظار مكة كلها تتعلق بها.

وفى بيت استثنائى فى التاريخ، ولدت زينـب، لتكـبر مـع الأيـام، وسـط أم وأب حنـونين، تلهـو وتلعب وتتعلم، حتى يأتى اليوم الذى تنتظره كل فتاة لنفسها، وتنتظره كل أم لفتاتها و ...

" ما أخبار زينب؟ "

سألت هالة باسمة فى زيارة لأختها خديجة، والتى أجابتها قائلة:

زينب بخير، حمدًا لله.

لاحقتها هالة بنظرة تحمل شيئًا:

كبرت زينب، أليس كذلك؟

اقتربت منها خديجة، وهى تقدم لها مشروبًا:

عيناك تحمل أشياء كثيرة ..

قالت هالة:

أبو العاص الآن أصبح تاجرًا ماهرًا ..

قالت خديجة فى لهجة مرحة:

ماذا تريدين يا أم العاص؟

قالت هالة بصورة مباشرة:

نريد أن نخطب زينب لابنى أبي العاص، ما رأيك؟

توقفت خديجة لبرهة تفكر، ثم قالت ووجهها ينطق بالموافقة:

أخبر أباها ثم أرد عليك يا هالة.

بعد أيام، يأتى أبو العاص بن الربيع ويستأذنه والد زينب، فى الحديث إلى زينب لمعرفة رأيها، ويدخل على زينب ليقول لها فى حنان:

" بنيتى .. إن أبا العاص ابن خالتك قد ذكر اسمك " ..

نظرت زينب إلى أبيها فى خجل، وسكتت فى حياء معروف فى هذه المواقف، ليخرج أبوها " محمد " على أبي العاص يبارك له.

عمت الفرحة المكان، ولف الخبر مكة، وأعطت خديجة لابنتها قلادتها تلفها حول عنقها هدية زواجها، لتنتقل زينب لبيت زوجها، ليبدآ معًا حياتهما الجديدة.

أحب أبو العاص زينب حبًّا كبيرًا، وبادلته زينب هذا الحب، وزاد من هذا الشوق أن أبا العاص كان كثير السفر؛ نظرًا لطبيعة عمله فى التجارة، مما يضطره للغياب عن زينب أيامًا .. فلما يزيد ألم الشوق والفراق على أبي العاص، ينشد شعرًا فيقول:

ذكرت زينب لما ورّكتْ إرَما ... فقلت: سُقْيا لشخص يسكن الحرما

بنت الأمين جزاها الله صالحة ... وكل بعل سيثنى بالذى علما

كانت الحياة مستقرة سعيدة هانئة، إلا أن حدثًا كبيرًا حدث، كان بمثابة زلزال هز أركان البيت ..

وكان تمهيدًا لأن يهز مكة كلها.

" أبي بعث نبيًّا؟ ما معنى هذا الكلام ؟ "

سألت زينب أمها خديجة، وقد بدا على وجهها الغموض والاندهاش، وسكتت برهة تفكر فى تلك المفاجأة، لترد عليها أمها فى هدوء:

أعلم أن الخبر مفاجئ، ولكنه حقيقة، ثم تابعت وهى تحكى:

منذ أيام جاء أبوك من غار حراء، ودخل علىَّ مفزوعًا، وهو يقول:

" زملونى .. زملونى ".

ثم تابعت قائلة:

حاولت جاهدة أن أهدئ من روعه، ثم اتفقنا أن نذهب إلى ابن عمى ورقة بن نوفل لبحث الأمر، فقال لنا إن ما قرأه فى الإنجيل يقول إن هذه علامات نبوة، وإن أباك هو نبى آخر الزمان.

سألت زينب، وهى لا زالت على حالة من التفكير:

نبى آخر الزمان؟

ثم تابعت متسائلة:

وماذا فعلت يا أماه؟

قالت خديجة:

آمنت يا زينب .. آمنت بالله وبرسوله.

ليس سهلًا أن يعلم أحد أن أباه قد أرسله الله رسولا إلى الأمة، وأنه أصبح نبيًّا من عند الله .. إن الخبر الاستثنائى الفريد فى حياة الإنسان، يجعله فى حالة من التفكير الدائم لفترة، ثم لا يلبث أن يدخل فى حالة من القبول بحكم الزمن ..

وهذا ما فعلته زينب، وكان عليها بعد ذلك أن تفكر فى موقفها من الرسالة نفسها، ومن دعوة أبيها النبى ..

وتحسم زينب أمرها وتسلم، ويبقى لها أن تقوم بخطوة أخرى ..

زوجها ..

وتشرح زينب لزوجها ما حدث، وأن أباها قد أصبح نبيًّا مرسلًا من عند الله، ثم تعرض عليه أمر الدين الجديد، وهنا يظهر التردد على وجه أبى العاص، فتقول له زينب فى حدة:

ما شأنك يا أبا العاص، ألا تؤمن بأبى؟

نظر إليها أبو العاص، وقال فى حرج:

يا زينب .. والله ما أبوك عندى بمتهم، وليس أحب إلى من أن أسلك معك يا حبيبة فى شعب واحد، لكنى أكره لك أن يقال إن زوجك خذل قومه وكفر بآلهة آبائه؛ إرضاء لامرأته، فهلا قدرت وعذرتنى ..

صدمت زينب من كلام أبى العاص، وحاولت معه مرة ومرات، لكن جرأة أبى العاص لم تكن كافية لاتخاذ قرار صعب كهذا، وكان خوفه من كلام قومه أقوى من إيمانه بدين جديد، حتى وإن اقتنع بهذا الدين واقتنع بصاحبه.

هناك مواقف فى حياة الإنسان تحتاج إلى جرأة استثنائية .. إنها مواقف تحتاج إلى قرارات قد تكون محورية فى الحياة أو مفصلية فى التاريخ ..

ولكن أبا العاص كان أضعف من أن يتخذ القرار، رغم اقتناعه به ..

وتتألم زينب، لكنها مع الوقت تستسلم للوضع، وتنتظر بين الحين والآخر أن يجرح الحب بينهما الفراق فى العقيدة، إلا أن آلام زينب لم تكن لتأتى من هذا الجانب فقط، فلقد كانت الآلام تزيد عليها، وهى ترى قريش كلها تحارب أبيها، وتعذب أتباعه بلا هوادة.

وتصعد قريش فى حربها إلى أقصى درجة، إلى الدرجة التى تتنازل فيها عن كل قيم المروءة والشهامة، وتنسى كل بقية من رحمة وأى لمحة من إنسانية، تحاصر قريش كل المسلمين فى شعب أبى طالب دون طعام أو شراب طيلة ثلاث سنوات كاملة.

كانت الآلام تعصر قلب زينب على أبيها وأمها، وكانت الأخبار عن أمها تزداد سوءًا يومًا بعد يوم ..

فلقد بدأت أخبار الإجهاد الشديد تأتيها، وبعد ثلاث سنوات، أذن الله أن يفك الحصار، وتهرع زينب إلى أمها لتجدها منهكة ضعيفة، وهى تخطت الستين .. ولم يستمر هذا الوهن كثيرًا، فلقد ماتت خديجة.

وتنفجر الدموع من عيون زينب، وينفطر قلبها على أمها.

إلا أن الآلام لم تكن لتنتة بعد، فلقد أمر اللـه رسوله بالهجرة إلى المدينة، لتفترق زينب عن أبيها، بعد أن افترقت عن أمها إلى الأبد، فلقد اضطرت أن تبقى فى مكة برفقة زوجها، إلا أنه بعد الهجرة إلى المدينة، نزل الوحى للتفريق بين المسلمين والمشركين .. ويصل الأمر إلى زينب لتخبر زوجها وهى تتحامل على نفسها قائلة:

يا أبا العاص .. لست حلًّا لك وأنت على ذلك الدين، فأسلمنى إلى أبى أو أسلم معى.

ثم تابعت فى حدة وحزن، وقد بدأت الدموع تملأ عينيها:

لن تكون لك زينب بعد اليوم، إلا أن تؤمن بما آمنت ..

نظر أبو العاص إليها، ولم ينطق ببنت شفة ..

فلقد وقع الكلام عليه .. كالصاعقة.

* * *

بعد قرابة عامين من هجرة الرسول صلى اللـه عليه وسلم للمدينة، وبالتحديد في شهر رمضان من العام الثانى للهجرة، تخرج قافلة تجارية كبرى يقودها أبو سفيان إلى الشام، ويعلم بها الرسول صلى اللـه عليه وسلم عن طريق استخباراته، ويخرج للتصدي لها، إلا أن الأخبار كانت قد وصلت لأبي سفيان بما ينوي الرسول صلى اللـه عليه وسلم فعله، فغير خط سير القافلة وبعث بضمضم بن عمرو إلى قريش؛ لإبلاغهم بما حدث، فيخرج كل زعماء قريش، يقودون مشركي مكة لقتال المسلمين..

ويخرج معهم – مكرهًا – أبو العاص بن الربيع؛ خشية كلام قريش، في موقف صعب لم يطلبه، ولم يتخيله.

وتدور رحى الحرب، وينتصر المسلمون – رغم قلة عددهم وعتادهم، ويقع عدد من المشركين أسرى للمسلمين؛ ينتظرون ماذا يفعل فيهم رسول اللـه.

وكان من بين هؤلاء الذين ينتظرون.

هو .. زوج ابنته صلى اللـه عليه وسلم .

أبو العاص بن الربيع !!

الآن يجلس أبو العاص أسيرًا عند حماه رسول الله، معرضًا للقتل أو الفدية، ويصل الأمر إلى زينب، لتصل الدراما إلى قمتها.

زوجة أسلمت، تحب زوجها، الذى يخشى أن يسلم خوفًا من أهله، يقع أسيرًا فى الحرب عند حماه صاحب دعوة الإسلام.

الجميع فى حيرة، وليس لزينب بنت رسول الله، ولا لرسول الله من الأمر شىء .. إلا الفدية، فهى الحل الوحيد ..

وتضع زينب يدها على رقبتها لتتحسس قلادة أمها خديجة، التى أهدتها لها فى زواجها، لتخلعها وتبعثها إلى والدها رسول الله، مع شقيق زوجها عمرو بن الربيع، فدية لزوجها.

ويمسك الرسول بالقلادة، فتهاجمه الذكريات، ويتذكر خديجة فيبكى، ويقول للصحابة:

" إن زينب بعثت بهذا المال لافتداء أبى العاص، فإن رأيتم أن تطلقوا لها أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا "، فبكى بعض الصحابة، وقالوا:

نعم يا رسول الله نشاء.

ويفك المسلمون أسر أبى العاص بن الربيع، وتلتقى عين أبى العاص بعين الرسول، ليطلب منه الرسول أن يترك زينب تهاجر إلى المدينة.

كان قرارًا صعبًا على أبى العاص، لكن الأصعب منه، هو ألا يوفى بوعده الذى قطعه على نفسه أمام الرسول، كى يعيد زينب إليه و...

" حمدًا لله على سلامتك يا أبا العاص "

قالتها زينب بشوق ولهفة، وهى تستقبل أبا العاص، بعد أن عاد إلى منزله ليجلس مجهدًا، وهو يقول:

لا أعرف كيف أشكرك يا زينب، ولكن ليس غريبًا عليك ما فعلت ..

قالت زينب:

ماذا تقول يا أبا العاص، أنت زوجى ..

نظر إليها أبو العاص بعيون مجهدة:

والآن على زوجك أن يوفى الوعد يا زينب ..

ثم تابع:

أعدى نفسك للعودة إلى أبيك فى المدينة ..

ويطلب أبو العاص من أخيه عمرو أن يصطحب زوجته قائلًا له:

يا أخى، إنك لتعلم موضعها من نفسى، فما أحب أن لى امرأة من قريش، وإنك لتعلم ألا طاقة لى بأن أفارقها، فاصحبها عنى إلى طرف البادية حيث ينتظر رسولا محمد، وارفق بها فى السفر، وارعها رعاية الحرمات، ولو نثرت عليها كنانتك لا يرنو منها رجل حتى تبلغ.

كان القرار تحديًا لقريش، لكن الوفاء بالوعد هذه المرة كان أقوى، ليخرج عمرو بن الربيع وأبوه كنانة مع زينب فى هودج، فإذا بهبار بن الأسود ونافع بن قيس يعترضان طريقها، وبعد مناوشات يتعصب كنانة حمو زينب، ويخرج قوسه ويشده، وهو يصرخ فى غضب:

والله لا يدنو منى رجل إلا وضعت فيه سهمًا ..

ويعلم أبو سفيان بالأمر، فيأتى ويقول لكنانة:

أيها الرجل كف عنا نبلك حتى أكلمك. فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه، فقال له: إنك لم تصب، خرجت المرأة على رءوس الناس علانية، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا، وما دخل علينا من محمد، فيظن الناس إذا خرجت بابنته علانية على رءوس الناس، من بين أظهرنا، أن ذلك عن ذل أصابنا عن مصيبتنا التى كانت، وأن ذلك منا ضعف ووهن، ولعمرى ما لنا بحبسها عن أبيها من حاجة، وما لنا فى ذلك من ثورة، ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات، وتحدث الناس أننا قد رددناها، فسر بها سرًّا وألحقها بأبيها.



أقنع منطق أبي سفيان كنانة، ليغمد سيفه، ويوافق على العـودة، ثـم يخطـط للخـروج مـرة أخرى في الخروج من مكة بعد عدة أيام ليلًا، وبمجرد وصوله إلى المدينة، يلتقى بزيد بن حارثـة، ليسلم زينب له، ليذهب بها إلى رسول اللـه.

أخيرًا تلتقى زينب بأبيها، أخيرًا يرى الرسول ابنته بعد قرابة عامين مـن الفـراق، لتعـانى هـى من فراق زوجها، وكأن القدر كان قد كتب عليها أن تعانى من فراق أحد؛ إما زوجها وإمـا أبيهـا، إلا أن الأيام القادمة كانت تحمل لها مفاجأة سارة، تجمع عليها أباها وزوجها .. **في آن واحد.**

* * *

تكمل زينب حياتها، ويكمل أبو العاص حياته .. يسافر في تجارته إلى الشام، ويعود إلى مكة، إلا أنه في إحدى المرات وهو عائد من الشام عبر مكة، تعترضه سرية من المسلمين، لتحصل عـلى العير وتأسر الرجال، إلا أن أبا العاص ينجح في الإفلات منهم هذه المرة.

ويدخل أبو العاص المدينة ليلًا باحثًا عن زينب حتى يجدها، وإذا به يقول لها في لهفة:

إني أستجير بك يا زينب ..

فلما خرج الرسول - صلوات اللـه وسلامه عليه - لصلاة الفجـر، واسـتوى قائمًـا في المحـراب، وكبر للإحرام، وكبر الناس بتكبيره، صرخت زينب قائلة:

أيها الناس، أنا زينب بنت محمد، وقد أجرت أبا العاص، فأجيروه.

فلما سلم النبى التفت إلى الناس قائلًا:

"هل سمعتم ما سمعت؟"

قالوا: نعم يا رسول اللـه ..

قال النبى:

"والذى نفسى بيده ما علمت بشيء من ذلك حتى سمعت مـا سـمعتموه، وإنـه يجـير مـن المسلمين أدناهم" ..

ثم يذهب إلى البيت ليتحدث إلى ابنته فى رفق:

"أى بنية أكرمى مثواه، ولا يخلص إليك، فإنك لا تحلين له ما دام مشركًا"..

ثم يبعث الرسول إلى السرية التى أسرته قائلًا لهم:

"إن هذا الرجل منا حيث علمتم، وقد أصبتم له مالًا، فإن تحسـنوا إليـه تـردوا عليـه مالـه، وإن أبيتم فهو فىء الـلـه الذى أفاءه عليكم، فأنتم أحق به " .. قالوا يـا رسـول الـلــه: بـل نـرده عليه، قال: " فردوا عليه ماله" ..

فى المواقف التى يخير فيها المسلمون بين الغنيمة والدعوة، يختارالمسلمون الدعوة على الفور .. فعلوها من قبل مع أبي العاص فى بدر، وسيفعلونها اليوم تارة أخرى مـع نفـس الرجـل، وهنـا يعرض أحد الصحابة على أبي العاص الإسلام، وأن يأخذ كل الأموال قائلًا:

يا أبا العاص، هل لك أن تسلم، وتأخذ هذه الأموال، فإنها أموال المشركين إلا أن صفة الوفـاء عند أبي العاص لم تكن لتنفك عنه أبدًا، ليقول للصحابة:

بئس ما أبدأ به إسلامى أن أخون أمانتى ..

كان رد أبي العاص يعنى أن فكرة الإسلام قد راودته بالفعل، إلا أنـه لا يريـد أن يقـدم عليهـا بفعل يراه منافيًا للأخلاق، وبالفعل يعود أبو العـاص إلى مكـة، ليعطـى كـل ذى مـال مالـه، ثـم يقول لهم:

يا معشر قريش، هل بقى لأحد منكم عندى مال؟

ليقول الجميع:

لا .. قد وجدناك فينا كريمًا.

فإذا به يفاجئهم جميعًا قائلًا:

أشهد أن لا إله إلا الـلـه، وأن محمدًا رسول الـلـه، والـلـه ما منعنى من الإسلام عنـده إلا أن تظنوا أنما أردت أن آكل أموالكم، فلما أداها الـلـه إليكم، وفرغت منها أسلمت ..

الآن فقط تكتمل فرحة زينب، ويجتمع الشمل أخيرًا بعد أن عاد أبو العاص إلى المدينة مسلمًا، لتستكمل مع زوجها سعادتها المعطلة، حتى اتخذ أبو العاص قراره الصعب، بالدخول في الإسلام ..

إلا أن العمر لم يمتد كثيرًا بزينب وزوجها مع أولادهما عليّ وأمامة؛ فلقد توفيت زينب في السنة الثامنة من الهجرة، ليبك عليها أبو العاص كما لم يبك في عمره قط .. بكى على زوجة وفية مخلصة محبة، وقفت بجانب زوجها في أصعب المواقف والأزمات، وظل يقول في حزن:

واللـه ما عدت أطيق الدنيا بدون زينب.

وينظر إلى ابنته أمامة، ويحتضنها والدموع تتساقط من عينيه، وهو يقول لها:

ذكريني بزينب يا أمامة .

ماتت زينب، وانتهت معها قصة الحب الجميلة والوفاء العظيم ..

ماتت زينب صغيرة، لكنها علمت الكبار أخلاقا عظيمة.

* * *

دروس وتحليل

1- من الحكمة ألا يسمح الزوج والزوجة بانهيار بيتهم بسبب المشكلات، ولـيكن التفـاهم والحوار هو سيد الموقف (زينب حافظت على علاقتها بزوجها سنوات، رغم عدم إسلامه):

أسلمت زينب وآمنت بدين أبيها محمد صلى اللـه عليه وسلم ولكن زوجها أبا العـاص بـن وائل رفض الدخول فى الإسلام، رغم احترامه لأبيها وعلمه بصدقه، وكانت هـذه المشـكلة جـديرة بأن تفجر البيت من أساسه، وتنتهى بالطلاق والفرقة والعداوة، لكن زينـب كانـت أكـثر حكمـة من كثيرين، يهدمون بيوتهم على مشكلات تافهة .. لقد قررت زينب أن تتعايش مع زوجها رغم عدم إسلامه (لم يكن قد أنزل حكم عدم زواج المسلمة من مشرك بعد) .. واختارت أن تصبر على زوجها حتى يعينه اللـه على الحق، اختارت ذلـك لأنهـا تحـب زوجهـا وبيتهـا وأولادهـا، ولأنهـا حكيمة تعرف كيف تتعامل مع من تخالفه الرأى، وتبحث عـن المسـاحات المشـتركة، حتـى وإن كان خلافًا فى العقيدة ..إنها دعوة لـلأزواج ألا يهـدموا بيـوتهم بسـبب كلمـة خرجـت فى وقـت غضب، أو طعام تأخر أو مشكلة فى المصـاريف .. إن الأسرة المسـتقرة تحتـاج إلى صـبر مـن كـل أطرافها، ومداوة للمشكلات لا تصـعيدها، حيـث يتلاعـب الشـيطان بـالجميع، ويـؤدى بهـم إلى الهلاك.

2- الإسلام يدعو للتعايش مع المخالفين فى الرأى والمخالفين فى العقيدة (زينـب تعـيش مـع زوجها سنوات رغم اختلافهما فى العقيدة):

يعلمنا الإسلام تقبل الخلاف فى الرأى، وأن الخلاف فى الرأى رحمة؛ لأنه يوسع الأفق، ويعـدد الحلول والاختيارات، وهو لا يعادى أصحاب الـديانات الأخـرى، طالمـا كانـت مسـالمة معنـا، بـل يدعو إلى معاملتها برفق ومودة، والتعاون معها بصورة طبيعية دون توجس أو حساسيات.

إن فكرة التعايش مع الآخر - رغم الخلاف الفكرى أو العقائدى - هى فكرة تبنى المجتمعات وتقويها، وتحميها من الصراعات والفتن التى ينتظرها الأعداء على أحر من الجمر.

3- اتخاذ القرار السليم يحتاج بعد القناعة العقلية إلى قوة نفسية تدعمه (العاص بن وائل كان مقتنعًا بما جاء به الرسول ولم يكذبه، ولكنه لم يستطع أن يسلم؛ خوفًا من أهله):

تميز الإسلام عن أى نظام بشرى آخر .. إنه نظام ربانى أنزله الله ليسير على هداه إنسان خلقه الله ويعلم أسراره؛ لذا اهتم الإسلام بالجانب الروحى والجانب العقلى على التوازى، فالجانب الروحى يعنى بالتربية النفسية التى تمكن الإنسان من الإقدام على ما يقتنع به عقله، وبدون التربية الإيمانية والنفسية، يظل الإنسان مقتنعًا بأفكار كثيرة، ولكن لا تطاوعه نفسه على تنفيذها والإقدام عليها؛ لفقدانه الشجاعة أحيانًا (عدم طاعة المسئول فى معصية)، أو الإيمان الكافى أحيانًا أخرى (الإقدام على الصلاة مثلًا) .. إن التربية الإيمانية بالعبادة والقرب من الله، والتربية النفسية بتدريب النفس على كبح شهواتها، والتحكم فى نزواتها وعدم الاستسلام لأوامرها - هما اللذان يساعدان الإنسان على اتخاذ قرارات صعبة فى حياته، قد تكون بسيطة أحيانًا، وقد تكون مصيرية فى أحيان أخرى.

4- تعامل الرسول (حما العاص بن وائل) مع زوج ابنته، حالة نادرة من السمو الأخلاقى والاجتماعى (الرسول يحدث العاص برفق بشأن رد ابنته؛ لأن الله أمر بعدم زواج المسلمة من مشرك، والعاص يوافق):

فى حياتنا العادية تتحول المشكلة الزوجية إلى حالات عداء غير عادية، من الممكن أن تتصاعد إلى حد بعيد، ولكن حالة الرسول مع العاص بن وائل، حالة فريدة من السمو الاجتماعى تحتاج للتأمل، فالرسول يحارب زوج ابنته ويأسره، ثم يستأذن الصحابة أن يفدوه بقلادة خديجة، ويطلب من العاص فى حوار راق، أن يرد ابنته؛ لأن الإسلام حرم زواج المسلمة من مشرك .. حالة احترام الخلاف الفكرى بين الاثنين كانت مذهلة، وتقبل وجهات النظر رغم الصراع بينهما بشأن العقيدة، ثم تقبل العاص أن يرد زوجته لتذهب

إلى أبيها فى هدوء غريب، كان أمرًا رائعًا .. إنها حالة تستحق التأمل، وتدعونا إلى الرقى بأخلاقنا فى وقت المشكلات، والخلافات مع الآخرين.

5- الدعوة إلى الله بالسلوك أعظم أثرًا من الدعوة إلى الله بالكلام (العاص بن وائل يسلم بعد عشرين سنة، بموقف نبيل من الرسول والصحابة برد أمواله):

يعانى المسلمون من مشكلة كثرة الكلام وقلة الفعل، أو تناقص الكلام مع الفعل أحيانًا .. نظل نحكى عن جمال الإسلام ولا نطبقه، ثم نغضب لأن الغرب لا يفهم الإسلام الفهم الصحيح. إن دعوة السلوك والفعل بالخلق الحسن والتعامل الكريم وإتقان العمل، أعظم أثرًا من كلام لا يطبق مهما كان جمال الكلام، ولقد دخل الإسلام بعض دول آسيا بأخلاق التجار المسلمين، وقيل: عمل رجل فى ألف رجل، خير من كلام ألف رجل فى رجل، فلنظهر جمال الإسلام فى سلوكنا وأفعالنا، ولنبرهن أننا نحب الله ورسوله فعلًا لا قولًا.

6- الوفاء خلق نادر نحتاجه مع أصدقائنا وأحبائنا. اجعل لنفسك يومًا كل شهر، واسمه يوم الوفاء (الرسول وزينب وأبو العاص كانوا رموزًا للوفاء فى القصة):

كان الوفاء صفة بارزة فى القصة إلى حد مذهل، فالرسول يبكى عندما يجد قلادة خديجة التى أرسلتها زينب لفك أسر زوجها العاص بن وائل، والعاص بن وائل يفى بوعده مع حماه، رغم صراع العقيدة بينهما ليعيد ابنته إليه، وزينب ترفض الزواج لمدة ست سنوات؛ وفاء للعاص وحبًّا فيه، وزينب تظل وفية لدينها ومبادئها فلا تدع العاص يقترب منها، ولا تستسلم للمعصية رغم حبها له.

إنها قصة وفاء نادرة نحتاجها اليوم مع آبائنا وأصدقائنا وأحبائنا، نحتاج إلى أن يجلس كل واحد منا مع نفسه، فيتذكر ما فعله والدانا معنا من جهد ومشقة، وما قدماه لنا من حب، ثم نفكر فى أن نرد إليهما شيئًا مما قدماه لنا، نحتاج إلى أن نتذكر صنيعًا جميلًا لصديق لنا أو محب، ثم نرده له بكلمة طيبة؛ اعترافًا له بالجميل .. جرب أن تخصص لنفسك يومًا ترد لوالديك وأصدقائك وأحبائك شيئًا مما قدموه لك اسمه " يوم الوفاء ".

* * *

فاطمة بنت الخطاب

موقف ثمنه الجنة

فاطمة بنت الخطاب
موقف ثمنه الجنة

ماذا بك يا خباب؟

بانزعاج شديد قالها " سعيد بن زيد " لخباب بـن الأرت، بعـد أن وجـد بعـض الكـدمات فى وجهه عند زيارته له، ليحاول خباب إخفاء وجهه، قائلًا بصوت خفيض:

لا شىء .. لا شىء ..

اقترب سعيد من خباب أكثر، قائلًا فى استنكار:

لا شىء وكل هذا فى وجهك؟

قال خباب:

إنها بعض الكدمات البسيطة ..

سأل سعيد فى لهفة:

ماذا حدث يا خباب؟

رفع خباب رأسه قائلًا فى ثبات:

إنه ثمن الإيمان يا سعيد ..

بدت علامات الاستفهام على وجه سعيد .. ليتابع خباب:

سأحكى لك كل شىء ..

وبدأ خباب يحكى:

سمعت عن محمد كثيرًا، وظلت تراودنى الأفكار كثيرًا بالـذهاب إليـه، حتـى قـررت يومًا أن أراه وأسـمع مـا يقـول، فـذهبت إليـه فى دارهـم التـى يجتمعـون فيهـا، ورأيتـه يتحـدث،



وسمعته يحكى عن دين عظيم، لا يقوى منصف إلا أن يتبعه، فقـررت أن أسـلم، وعنـدما عـرف بعض رجال قريش بإسلامى انهالوا علىَّ ضربًا، حتى حدث ما تراه فى وجهى ..

قال سعيد وقد بدا عليه التأثر:

كل ما حدث فى وجهك من أجل هذا الرجل؟ ماذا يقول هذا الدين يا خباب و...

* * *

" ما بك يا سعيد؟ "

قالتها فاطمة بنت الخطاب، لزوجهـا سـعيد، بعـد أن وجدتـه فى حالـة مـن التفكيرالعميـق، والذى التفت إليها فجأة قائلًا:

ها .. أفكر قليلًا ..

قالت فاطمة:

لم أعهدك فى هذه الحالة أبدًا.

قال سعيد:

وما أفكر فيه، لم أعهد التفكير فيه من قبل أبدًا يا فاطمة.

قالت فاطمة:

- وفيم تفكر يا سعيد؟

بعد أيام، كان سعيد بين يـدى الرسـول فى دارالأرقـم بـن أبي الأرقـم، متخـذًا قـراره الصـعب والخطير ..

لقد نطق الشهادتين، وأصبح من المسلمين، ليجلس بجانب صديقه خباب بن الأرت مبتسمًا، يستمع لرسول اللـه، ويتعلم الدين الجديد.

ويعود سعيد إلى بيته لتلقاه فاطمة بنت الخطاب، متسائلة فى ابتسامة:

أعتقد أنك ستحكى لى اليوم ..

قال سعيد مبتسمًا:

نعم يا فاطمة سأحكى لك كل شىء.

وتستمع فاطمة بإنصات وانبهار، وتبدأ ملامح وجهها تتغير، وينفتح قلبها شيئًا فشيئًا للإسلام .. وتتخذ فاطمة القرار ..

ستسلم فاطمة مع زوجها سعيد، ويبدآن معًا طريقهما الجديد، الطريق الطويل والصعب.

لم يكن قرار الإسلام قرارًا سهلًا على الإطلاق، فصاحب هذا القرار يدرك جيدًا أنه يتحدى الجميع، وأنه مقبل على مشكلات لا حصر لها، ولكنهم كانوا على يقين أن الإيمان أقوى، وأن الجنة تستحق.

وتبدأ فاطمة الطريق مع زوجها .. بالعلم ودراسة القرآن.

ويتفق سعيد مع صديقه خباب أن يتولى هو هذه المهمة، فيأتى خباب إلى المنزل، يعلم سعيد وزوجها القرآن.

واستمرا على هذه الحال أيامًا، حتى أتى يوم توقف خباب فجأة عن قراءة القرآن، والتفت سعيد وفاطمة نحو الباب بفزع، فلقد كان أحد الأشخاص يدق على الباب بمنتهى القوة .. والعنف.

* * *

كانت الدعوة لا تزال فى مهدها، وكان العداء لها كبيرًا، وكان عمر بن الخطاب أخو فاطمة بنت الخطاب من أشد هؤلاء الأعداء كرهًا للرسول، ولقد بلغ به الكره أن قرر فى أحد الأيام أن يذهب إلى بيت الرسول ليقتله.

ولقد بدأ التنفيذ بالفعل ..

وبكل الغضب، خرج عمر بن الخطاب من بيته فى اتجاه الرسول عازمًا على قتله و ...



إلى أين يا عمر بن الخطاب؟

هتف بها نعيم بن عبد اللـه، معترضًا طريق عمر، بعدما رأى كل هذا الغضب على وجهه .. ليجيب عمر في انفعال وعصبية:

أريد محمدًا، هذا الصابئ، الذى فرّق أمر قريش، وسفّه أحلامها، وعاب دينها، وسفه آلهتها .. فأقتله ..

لم يكن عمر بن الخطاب يدرك أن نعيمًا مسلم، فلقد كان نعيم يخفى إسلامه، ولما عرف ما ينويه عمر، فكر في حيلة يصرفه بها عما يريد، فقرر أن يكشف له إسلام أخته فاطمة وزوجها قائلًا له:

يا عمر .. أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟

نظر إليه عمر في دهشة وانزعاج، متسائلًا:

أهل بيتى .. أى أهل بيتى؟

لاحقه نعيم قائلًا:

ابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد واللـه أسلما وتابعا محمدًا على دينه.

صعق عمر من هول ما سمع، وأطلق الريح لقدميه في اتجاه بيت أخته وزوجها،

تنفس نعيم الصعداء، وهو يرى حيلته قد نجحت، بعد أن وجد عمر قد أدار ظهره، ليتجه مسرعًا إلى منزل أخته وزوجها.

كاد عمر بن الخطاب يقترب من البيت، وملامح وجهه غاضبة قاسية، تنذر بكل شر.. في نفس الوقت كانت آيات القرآن تتلى في بيت فاطمة وزوجها، فلقد كان يجلس معهم خباب بن الأرت يعلمهم القرآن، كما كان متبعًا مع غيرهم من الصحابة ..

إلا أن طرقات شديدة وعنيفة أوقفت الجميع عن الكلام، وألقت الفزع في قلوبهم، ليدرك الجميع بعد لحظات أن من يطرق الباب بهذه الشدة هو عمر بن الخطاب، وتدرك فاطمة وزوجها أن أمرهما قد انكشف.

وينظر الجميع إلى بعضهم البعض، ويختبئ خباب فى غرفة داخلية، وهو يقول فى خوف واضطراب:

" لإن نجا سعيد بن زيد وفاطمة بنت الخطاب فلن ينجو خباب ".

وتزداد طرقات الباب عنفًا، وصوت عمر بن الخطاب يزداد غضبًا، ويظهر القلق والخوف على وجه فاطمة وزوجها سعيد، وهو يتجه إلى الباب ليفتحه، ليجد عمر ابن الخطاب أمامه وقد ملأه الغضب، وهو يندفع داخل المنزل قائلًا:

ما هذه الهمهمة؟

رد سعيد فى اضطراب:

همهمة .. ما سمعت شيئًا.

يمسك عمر بملابس سعيد فى غضب، ليقول فى شراسه:

بل سمعت، وسمعت أيضا أنكما تبعتما محمدًا على دينه.

وتطور الأمر بسرعة ليفاجأ سعيد أن عمر بن الخطاب يضربه بعنف، وهنا لم تتحمل فاطمة الموقف، لتتدخل بيدها لتنقذ زوجها من يد عمر، وهنا التفت عمر إليها، ليرفع يده وينزل بها على وجهها، ليلطمها لطمة قوية، أسالت الدم من فمها.

وإزاء ما رآه سعيد من شجاعة زوجته، اندفع يقول فى تحد وصلابة:

نعم، قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك.

وبدأ الموقف يتغير .. فلقد تصاعدت شجاعة سعيد وفاطمة، وتراجعت حدة عمر، فلأول مرة، يجد عمر من يقف أمامه .. يواجهه ويتحداه، وتزداد دهشة عمر عندما تجرأت فاطمة عليه أكثر قائلة:

رغم أنفك يا عمر .. نعم أسلمنا وكنا نجلس نقرأ فى كتاب الله ونحفظ كلامه.

شعر عمر بأن شيئًا غريبًا ما يحدث، وأن فاطمة التى يسيل منها الدماء، قد أصبحت فى لحظة أقوى منه مرات ومرات، وزاد على ذلك شعوره بالخجل من نفسه، بعد أن رأى

الدماء تسيل من وجه فاطمة، وألقى عمر بجسده على الأريكة، وبدا عليه التفكير للحظات، ثم قال فى هدوء ممزوج بالهزيمة:

أرونى هذا الكتاب.

شعر عمر أن قوة ما أضيفت إلى فاطمة، وأن سر هذه القوة هو هذا الكتاب، أو أن قوة ما تضاف إلى الإنسان عندما يؤمن بما جاء به محمد، أيًّا كان، لكن مشاعره كانت تتجه إلى أن تعرف ما هو هذا الكلام الذى أتى به هذا الدين.

لكن مفاجأة أخرى ألقيت فى وجهه .. ألقتها فاطمة مرة أخرى بشجاعة يراها لأول مرة، قائلة:

هذا الكتاب لا يمسه إلا طاهر ..

قال عمر فى استسلام غريب:

وماذا أفعل إذن؟

قالت فاطمة:

تغتسل أولًا.

لم يصدق سعيد وفاطمة ما يراهما، وقد وجدا عمر يقوم فى استسلام عجيب ليغتسل، ثم يعود بعد قليل من الوقت ليطلب الكتاب مرة أخرى، لتمتد يد فاطمة لأخيها فى رحمة وعطف، ليمسك عمر بالورقة فى ترقب وتبدأ عيناه وقلبه يقرآن:

(طه {1/20} مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى {2/20} إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى {3/20} تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى {4/20} الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى {5/20} لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى {6/20} وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى {7/20} اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاء الْحُسْنَى {8/20}) [طه].

وتنظر فاطمة لعمر، وهو يقرأ الآيات، لتزداد دقات قلبها وهى تجد ملامح عمر تتغير، وقلبه يخشع شيئًا فشيئًا، وكأنه يقترب من أمر لم تكن تتوقعه أبدًا ..

رفع عمر رأسه، وظهر بوجه لم يظهر به من قبل، ليقول فى خشوع:

ما أحسن هذا الكلام! ما أجمله!

وفى هذه اللحظة يظهر خباب، ليقول فى حب:

عمر، والـلـه إنى لأرجو أن يكون الـلـه قد خصك بدعوة نبيه، فإنى سمعته أمس، وهو يقول: "الـلـهمَّ أَيِّدْ الإِسْلَامَ بِأَبِي الْحَكَمِ بْنِ هِشَامٍ أو بِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ "، فالـلـه الـلـه يا عمر.

وهنا ينظر إليه عمر وكأنه فوجئ قائلًا:

خباب ..

ثم تابع:

أين رسول الـلـه يا خباب؟

لم تصدق فاطمة نفسها ساعتها، ونطقت الفرحة على وجهها، وهى تجد عمر قد هداه الـلـه للإسلام.

كانت شجاعة فاطمة سببًا مباشرًا لهداية عمر، وكانت قوة إيمانها هى السبب فى تماسكها، وعدم تمكن الخوف منها أمامه، وكان إيمانها دافعًا لها لأن تتحمل الأذى فى سبيل الدفاع عن مبادئها أمام قوة عمر وبطشه.

ولقد نجحت فاطمة، لتهدى البشرية عظيمًا من عظماء الإسلام.

لقد نجحت امرأة فى ما كان يتوقعه الكثيرون مستحيلًا، حتى قيل:

لو أسلم حمار آل الخطاب، ما أسلم عمر بن الخطاب.

ولكن عمر بن الخطاب أسلم، والسبب كان امرأة تمسكت بدينها، وتسلحت بإيمانها، واستعانت بربها على القهر والجبروت.

الآن تبتسم فاطمة، وتنظر لعمر بن الخطاب سعيدة فخورة بما فعلت، شاكرة لربها ما وفقها إليه.

الآن تنظر فاطمة إلى عمر، هو يخرج إلى الناس جميعًا في مكة ليعلن إسلامه، ثم ينضم لصفوف المسلمين في إيمان نادر وصادم لقريش، لم تعلم قريش من أين أتى.

لكن فاطمة تعلم من أين أتى.

الآن تمر فاطمة بيدها على ذقنها، لتتذكر الدماء التى سالت من فمها عندما لطمها عمر.. كانت أجمل لطمة في حياتها، فهذه اللطمة أشعرت عمر بالخجل من نفسه بعدها، ليرق ويهدأ ويفكر ويسلم.

الآن تنظر فاطمة وتبتسم، وهى تجد عمر قويًا في الحق، إيمانه يزن إيمان العشرات، وعقله يبهر الجميع بتفكيره وآرائه، وتقواه تضيف إلى قوة جسده وقوة عقله بريقًا لا يستطيع أن يقاومه أحد.

تتذكر فاطمة موقفها، لتعرف أنه موقف يكفيها لأن تعيش حياتها الباقية هادئة مستريحة .. لقد كانت سببًا في إسلام أخيها، الذى قال فيه رسول الله:

" لو كان بعدى نبى، لكان عمر ".

تتذكر فاطمة، ويتذكر عمر جميل أخته عليه، فيجلس ويقول فيها شعرًا:

الحمد لله ذى المن الذى ... وجبت له علينا أياد ما لها غير

وقد بدأنا فكذبنا فقال لنا ... صدق الحديث نبى عنده الخبر

هنيئًا لك يا فاطمة، كنتِ سببًا في هدايته، فلقد هدى الله بك رجلًا، فنلت جزاء خيرًا من الدنيا وما فيها.

هنيئًا لك يا فاطمة ما فعلت، وهنيئًا لك الجنة بما فعلت، وهنيئًا لكل امرأة تبحث عن موقف واحد مثل موقفك ..

ثمنه الجنة .

* * *

دروس وتحليل

1- الإيمان يعطى قدرة غير عادية على تحمل الأذى المادى والمعنوى (خباب يؤذى من المشركين بسبب إسلامه):

لا يمكن تخيل أن المسلمين الأوائل تحملوا ما تحملوا من تعذيب جسدى واضطهاد معنوى بقدرتهم العادية، فلقد أمدهم الإيمان بالله بطاقة نفسية هائلة، جعلتهم يتحملون ما لا يتحمله بشر، بصورة أذهلت جلاديهم .. ودائمًا .. وفى كل العصور، لا يتوقع الطغاة أن يصمد أصحاب المبادئ ساعات، فإن صمدوا فلا يتوقعون صمودهم أيامًا، فإن صمدوا فلا يتوقعون صمودهم أسابيع، فإذا بهم يفاجئون بصمودهم شهورًا وسنين.

إنهم لا يعرفون أن الإيمان يضاعف قدرة الإنسان على الصبر؛ لأنه يعرف أن ما يحدث له لن يغفله الله أبدًا، فإيذاؤه سيترجم يومًا إلى درجات فى الجنة ونعيم مقيم، فضلا عن انتصاره على جلاديه فى الدنيا، حتى وإن نجحوا فى إنهاء حياته .. وسيظل دائمًا هو المنتصر الشجاع، وهم المهزومون الجبناء.

2- قوة العقيدة والإيمان بالمبادئ تعطى قوة وعزة لا يعرفها إلا أصحابها (فاطمة تصمد أمام عمر بن الخطاب وتهزه من الداخل):

تكمن قدرة الإسلام الرهيبة على تغيير النفوس، فى أنه يعطى قيمة للإنسان أمام نفسه، وتشعره بأنه قد أصبح يحمل مجموعة من المبادئ السامية المستمدة من الله عز وجل، ومن أشرف الخلق محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو ما يجعل الإنسان يمتلك قوة نفسية غير عادية أمام السادة والمسئولين مهما كان بسيطًا، وأمام الأغنياء مهما كان فقيرًا، وفاطمة كانت امرأة، طبيعى أن تخشى من عمر القوى الجبار، الذى يخيف الرجال، لكن قوة الإيمان بداخلها أعطتها قوة وشجاعة غير عادية، نجحت بهما أن تهز عمر من داخله، وتجبره على الهدوء والتفكير فى الأمر، وكانت بذلك سببًا فى هدايته ودخوله الإسلام، لترفع فاطمة من شأن النساء، بأن امرأة فعلت ما لم يستطع أن يفعله الرجال، ويدخل عمر فى دين الإسلام.



3- آيات من القرآن غيرت مصير عمر بن الخطاب، ونقلته من الكفر إلى الإسلام فهل يغير فينا القرآن شيئًا (عمر بن الخطاب يتأثر بآيات من سورة طه، ويدخل بعدها الإسلام):

القرآن كلام اللـه، يحمل بين حروفه نبض الإيمان وروح الإسلام، والقرآن ليس مصدرًا للحسنات فقط .. ليس مجرد كتاب، الحرف فيه بحسنة، والحسنة بعشر أمثالها، واللـه يضاعف لمن يشاء .. القرآن مصدر للطاقة والإيمان والعلم والتغيير، القرآن به كيمياء غريبة، تتفاعل من نفوس قارئيها، تلك الكيمياء التى استطاعت تغيير عمر بن الخطاب من رجل شرس يقتل ابنته حية، لرجل بوجهه خطان أسودان من كثرة ما بكى من خشية اللـه.

القرآن كنز عظيم، لا ينبغى أن نهمله أبدًا، بل لابد أن نقترب منه ونصاحبه كأصدقائنا؛ حتى يتسرب إلى نفوسنا ويمتزج مع خلايانا، ويصبح جزءًا منا، لا نستطيع أن نستغنى عنه، فإذا فقدناه شعرنا بأن شيئًا ما ينقصنا، ساعتها سيرفع القرآن من إيماننا .. وسيعطينا الطاقة لتغيير أخلاقنا، وسيمنحنا شجاعة الثبات على المبادئ، وقوة الصبر على الشدائد، والإصرار على بلوغ الجنة بإذن اللـه.

* * *



أم كلثوم بنت عقبة

الممتحنة

أم كثوم بنت عقبة

الممتحنة

" ما بك يا أم كلثوم؟ "

سألها وقد بدا عليه شيء من الاستغراب أبوها عقبة بن أبي معيط، وهو جالس فى منزله الفخم، يحكى عن محمد وعما يفعل به من طرق إيذاء مختلفة ..

تنظر أم كلثوم إلى أبيها، وهو يحكى مفتخرًا كيف أنه قد ألقى فى طريقه بأحشاء الخراف؛ إيذاء له واستهزاء به.

كانت أم كلثوم تستمع لكلام أبيها أحد أكبر أعداء محمد فى مكة، وأشد الناس إيذاء له، ولكنها لم تكن تبهر بما يفعل، ولم تكن عاطفتها نحو أبيها تستجيب لما يفعله.

كان عقل أم كلثوم مميزًا، وكان يعرف عنها القراءة والبحث والتفكير .. كان يعرف عنها أنها تحفظ الشعر والحكم والأمثال، وتقرأ فى ديانات اليهود والنصارى.

كل ذلك جعلها لا تستسلم لما يقال فى بيتها بسهوله، بل كانت تعرض كل ما يقال على عقلها وفكرها وثقافتها.

ولم يكن كل ذلك يقبل تلك الأصنام الصماء التى يتقرب إليها سادة قريش .. لم يكن وعيها وثقافتها وفطرتها يقبلون أبدًا أن الحجارة هى التى تتحكم فى الكون وتقرر مصيره.

نادتها دعوة محمد من بعيد .. نادت عقلها وقلبها وفطرتها ووعيها وذكاءها .. فكان طبيعيًّا أن تلبى النداء ..

وتخرج أم كلثوم من بيتها، متجهة إلى دار الأرقم، متخذة قرارها ..

وتجلس أم كلثوم بين يدى رسول الله، تحدثه ويحدثها، فتقتنع أكثر وينشرح صدرها لدين الله، وتشهد بالوحدانية بين يدى رسول الله.

وتخرج أم كلثوم من عند رسول الـلـه فرحة بإسلامها، ودينها الـذى يحـترم عقلهـا وذكاءهـا، وينسجم مع فطرتها.

خرجت أم كلثوم من دار الأرقم بعد أن أسلمت بين يدى رسـول الـلــه، لكنهـا كانـت تعلـم أنها تتجه إلى بيت أشد أعداء رسول الـلـه .. أبيها، عقبة بن أبى معيط ..

لتبدأ الأزمة، ويبدأ التحدى ..

* * *

" إذن تحبسين فى الدار، لا تخرجين أبدًا "

كان هذا هو الرد الطبيعى والمتوقع بعد حالة الثورة التى ظهـر عليهـا أبوهـا عقبـة ابـن أبى معيط، بعد الحوار الذى دار بينهما، وصرحت على إثره أم كلثوم بإسلامها بكل شجاعة ..

كان طبيعيًّا ومتوقعًا أن تدفع أم كلثوم ثمن تصريحها بدخول الإسلام، وتعاقب بهذا العقـاب من أبيها، الذى يؤذى الرسول نفسه، ويعاقب من طالته يداه من المسلمين على إسلامهم.

لكن أم كلثوم بذكائها كانت تعرف مشقة الطريق، وأنها قادمة لا محالة على تحد مع أبيهـا، لابد أن تصبر عليه ..

وحبست أم كلثوم فى الدار ، لا ترى النور، تجلس وحيدة فى محبسها، تتسمع أخبـار الرسـول والدعوة من هنا وهناك، تناجى ربها ليل نهار، بأن يفرج كرب المسلمين ويفرج كربها.

ويـأتى اليـوم الـذى يأتيهـا فيـه الخـبر بهجـرة الرسـول والمسـلمين إلى المدينـة، وهنـاك يبـدأ المسلمون فى تثبت أقدامهم، وبعد عام من مكث المسلمين فى المدينة، كان مصير أبيها عقبة بـن معيط يتحدد بصورة نهائية ..

فلقد زحف المشركون إلى المدينة ليقاتلوا المسلمين فى غزوة بدر فى السنة الثانية من الهجـرة، ويخرج عقبة بن أبى معيط مقاتلًا للمسلمين، وينتصر المسلمون فى المعركة، ويقتل عقبـة بـن أبى معيط فيها.

وتتلقى أم كلثوم الخبر، وتتقطع مشاعرها بـين حزنهـا عـلى أبيهـا، وحـب النبـوة والعاطفـة الفطرية، وبين فرحها لنصر المسلمين بحكم إسلامها وإخلاصـها لـدينها وربهـا، شيء صـعب عـلى النفس، أن تتمزق بين مشاعر الفرحة والحزن، فتظل حائرة، لا تعرف إلى أى اتجاه تذهب.

لكن فى كل الأحوال، تظل أزمة أم كلثوم قائمة بلا حل، فلم يكن أخواهـا الوليـد ابـن عقبـة، وعمارة بن عقبة، أقل إيذاء لها من أبيها، فلقد استمرا فى إيذائها وحبسها وعقابها على اختيارها دين الإسلام.

إلى أن جاء اليوم الذى أذن اللـه لها أن يفرج كربها، ويفك أسرها ..

ففى السنة السادسة من الهجرة،وبعد صلح الحديبية بـين المسـلمين والمشركـين، سـنحت لأم كلثوم فرصة لأن تهرب وتهـاجر إلى المدينـة لتلحـق بالرسـول والصـحابة، وتتلقـى أخـيرا نسـائم المدينة، ويستقبلها رسول اللـه بترحاب، وتحتضنها أخواتها المسلمات، وتنهمر الدموع الممزوجة بعواطف الحب والإيمان، وارتاحت نفسها أخيرًا بعد طول عناء ..

إلا أن بنود صلح الحديبية، كان لها معها قصة شهيرة ..

ومؤثرة ..

* * *

" نريد أن نرد أختنا أم كلثوم "

هكذا قال الوليد وعمارة أخوا أم كلثوم لرسول اللـه فى قوة، وهما واثقان من تنفيذ طلبهما؛ استنادًا إلى ما تم فى صلح الحديبية من شروط.

كان من شروط صلح الحديبية، بأن من جاء من المشركـين مسـلمًا يـرد إلى المشركـين، وطبقـاً لهذا الشرط، كان لابد أن تسلم أم كلثوم إلى الوليد وعمارة

وكان هذا أمرًا مزعجًا مؤلماً .. لأم كلثوم وللرسول وللمسلمين جميعًا؛ إذ كيف بعد أن بـذلت أم كلثوم كـل هـذا الجهـد، وضـحت كـل هـذه التضـحية، أن تعـود إلى المشركـين، وهـى الفتـاة الضعيفة الوحيدة، التى لن يدافع عنها أحد، ولن تملك من أمرها شيئًا.

وصل الخبر إلى أم كلثوم كالصاعقة، فهرعت إلى رسول الله خائفة، وهى تقول له فى اضطراب:

يا رسول الله، أنا امرأة، وحال النساء إلى الضعف، فأخشى أن يفتنونى فى دينى ولا صبر لى.

كان الأمر محيرًا للجميع، ولم يدر الرسول ما يفعل، ينفذ الشرط ويعيدها، أم يبقى عليها حرصًا عليها؟

كان الموقف يتأزم يومًا بعد يوم دون حل، حتى نزل الحل أخيرًا من السماء، حمله جبريل أخيرًا إلى رسول الله بآيات من رب العالمين.

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ اللهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى الْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ وَآتُوهُم مَّا أَنفَقُوا وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا ذَلِكُمْ حُكْمُ اللهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ {10/60})[الممتحنة] .

لقد نزلت الآيات أخيرًا كى تنقذ أم كلثوم من مصيرها، وتخرج المسلمين من حيرتهم وحزنهم .. لقد أمر الله بألا تعود أم كلثوم إلى الكفار، ولكنها علقت الأمر كله على أم كلثوم نفسها، بامتحان يوجه إليها أن تحلف بأنها ما خرجت إلى المدينة إلا حبًّا لله ورسوله، ما خرجت لالتماس دنيا، ولا بحثًا عن زوج.

وتقسم أم كلثوم على ذلك أمام رسول الله، وتشهد أمام الجميع، وهى تكاد تطير من الفرح بأن نجاها الله من فوق سبع سموات، ويبتهج المسلمون بنجاتها، بينما يصدم الوليد وعمارة صدمة كبيرة، ويعودا إلى المدينة بخفى حنين.

كان تكريمًا من الله لأم كلثوم بلا شك، كم فتاة فى العالم نزلت فيها آيات من القرآن كى تحل لها مشكلة؟ كم فتاة فى العالم سيظل يذكرها المسلمون كلما قرأوا القرآن الكريم؟، لقد ضحت أم كلثوم، وكان لابد أن يقف الله بجانبها.

ومكثت أم كلثوم فى المدينة، سعيدة بين أخواتها وأحبائها، سعيدة بدينها التى فرت به من أهلها وزبانية قريش، وستسعد أكثر بما سيأتيها بعد قليل.



الزوج .. وأي زوج؟! إنه الزبير بن العوام أحد العشرة المبشرين بالجنة ..

إنه تكريم آخر، أن يرتبط اسم أم كلثوم بنت عقبة بأحد عشرة صرح بهم الرسول بأنهم من أهل الجنة، حتى وإن كان هذا الارتباط لم يدم طويلًا ..

وأنجبت أم كلثوم من الزبير زينب، إلى أن قدر الله الطلاق بين أم كلثوم والزبير بعد قليل، إلا أن الله كان يحمل لأم كلثوم خيرًا كثيرًا ..

لا تحزني يا أم كلثوم، فلن ينس الله أبدًا من ضحى من أجله وفي سبيل دينه، وسيأتي الله لك بزوج أيضًا من العشرة المبشرين بالجنة.

عبد الرحمن بن عوف ..

أي تكريم لك يا أم كلثوم، ينزل الله فيك آيات من القرآن الكريم، ثم تعيشين مع زوجين مبشرين بالجنة.

أنجبت أم كلثوم من عبد الرحمن بن عوف إبراهيم وحميدًا، إلا أن قضاء الله قد جاء لينتقل زوجها إلى جوار ربه.

لا زال الله يرعى أم كلثوم، فلا يريد أن يتركها وحيدة أبدًا، لا زال الله يقف بجانب أم كلثوم، فيأتي إليها بصحابي جليل يكون زوجًا .. عمرو بن العاص ..

تكريم آخر من الله لمن ضحت بشبابها في سبيل الله، لكن الله أراد لأم كلثوم أن ينتهي بها الطريق، وأن ترحل إلى جواره يرعاها، حتى يأتي اليوم الذي تكافأ فيه المكافأة الكبرى على إخلاصها وصدقها مع ربها، في جنة عرضها السموات والأرض ..

سلام يا أم كلثوم ..

سلام يا زينة الفتيات، يا من تعلق قلبك بربك، فتعلقت قلوبنا بك.

* * *

دروس وتحليل

1- من علامات النضج فى التفكير أن نمرر ما نسمعه على عقولنا، فنفكر فيه ونغربله قبل أن نقره ونردده (أم كلثوم لم تكن مقتنعة بكلام أبيها عن محمد وذمه المتواصل له):

يقولون فى الغرب إن الإعلام هو الإله الثانى؛ لقدرته الفائقة على تغيير أفكار الناس، وتوجيه عقولهم، وبالتالى قراراتهم وسلوكياتهم، وكلما ضعف مستوى التعليم فى مجتمع، وانخفض مستوى الوعى والثقافة، كلما كان الإعلام قادرًا على أن يتلاعب بعقول الناس، فيشوه الحق ويزيف الحقيقة ويزين الباطل، مستخدمًا فى ذلك سلاح الإبهار والترديد، ولا أحد لديه القدرة أن يواجه ذلك إلا العقل، إذا كان منتبهًا غير مستسلم لما يطرح من أفكار وآراء دون تحليل ونقد ومناقشة، وبدون ذلك سنكون نهبًا للشائعات والأكاذيب والأفكار الهدامة والسلبية.

2- كل شىء فى الدنيا له ثمن، والجنة لابد لها من ثمن (أم كلثوم تواجه التحدى، وتصبر على حبسها فى الدار فى سبيل الله):

نحن مقتنعون وموقنون بأن كل شىء فى هذه الحياة الدنيا له ثمن، الطعام والشراب والزواج والشهادة والوظيفة، نقبل هذه الحقيقة ونعتبرها طبيعية وبديهية، وإذا كنا كلنا نريد الجنة، فلماذا لا نريد أن ندفع الثمن؟! ولماذا يُتصور أنها الشىء الوحيد الذى يأتى بلا جهد وعرق وتحمل؟! إن الجنة سلعة غالية لا يشتريها إلا من باع نفسه لله، وضحى بوقته وماله ، وتحمل الأذى فى سبيله.

3- لحظات الصراع النفسى بين حبين متناقضين، هى التى تحسم اختيار الدنيا والآخرة:

كثيرًا ما نتعرض لصراع داخلى بين حبين متناقضين، أحدهما يشدنا إلى السماء، والآخر يجذبنا إلى الأرض، ففى الصيام يحدث الصراع بين حبنا لله والرغبة فى إرضائه والفوز

بالجنة، وبين إشباع شهوة الطعام والشراب، وحين الغضب يحدث الصراع بين تفريغ شحنة الغضب بالسباب أو الضرب، وبين كظم الغيظ؛ طمعًا فى محبة اللـه (وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللـهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ {134/3}) [آل عمران] .

وعند القيام لصلاة الفجر يحدث الصراع بين أداء فريضة لها ثواب عظيم، وبين تلبية راحة الجسد .. كل هذه الصراعات وغيرها، تضعنا أمام تحدٍ بين اختيار الدنيا والآخرة، اختيار طاعة اللـه أو طاعة النفس، ونحن الذين نحدد اختيارنا ونتخذ قرارنا ومصيرنا.

4- اللـه يكرم أم كلثوم مرتين؛ بإنزال آيات لعدم عودتها إلى مكة مع أهلها، وتزويجها من اثنين مبشرين بالجنة:

مرة أخرى من مرات عديدة يكرم اللـه فيها المرأة فى شخص أم كلثوم، ويرسل رسالة باحترام الإسلام للمرأة، وإجلالها لقدرها. لقد قدر اللـه ما عانت أم كلثوم الفتاة الشابة فى سبيله من تضحيات، حيث واجهت أباها وأخويها، وتحملت مشقة الهجرة وحدها؛ حبًّا فيه، وطلبًا لرضا رسوله وفداء لدينه، وذلك بإنزال آيات فى القرآن الكريم، نتلوها إلى يوم القيامة؛ لنتذكر فيها ما فعلت أم كلثوم فى سبيل اللـه فى سورة الممتحنة، وكان زواجها من اثنين من المبشرين بالجنة، هما الزبير بن العوام، ثم عبد الرحمن بن عوف، تكريمًا على تكريم.

5- الصحابة بشر وليسوا ملائكة، يتعرضون لقوانين الحياة كما يتعرض لها باقى الناس (الطلاق يقع بين أم كلثوم والزبير بن العوام بعد فترة من الزواج):

من الخطأ تصور الصحابة أنهم ليسوا بشرًا، أو أنهم اتجهوا بكل سهولة إلى الإسلام، وعاشوا حياتهم دون صراعات نفسية وأخطاء حياتية. الصحابة بشر مثل البشر، يخطئون ويصيبون، وتحدث لهم مشكلات زوجية فى بيوتهم، قد تصل أحيانًا إلى حد الطلاق، وهذا أمر لا يدهشنا، طالما كانت نسبته طبيعية ومعقولة كحالات طبيعية فى الحياة الزوجية .. الصحابة بشر، يتألمون ويعانون ويترددون ويخطئون، ولكنهم أفضل البشر بعد الأنبياء؛ لأنهم كانوا أكثر الناس تضحية وصدقًا وإخلاصًا لله، وتغليبًا لمصلحة الدين على مصالحهم الشخصية.



6- التدين ليس الشرط الوحيد للنجاح في الحياة الزوجية (الحياة لم تستمر بين أم كلثوم والزبير بن العوام رغم تدينهما):

بلاشك .. التدين أمر مهم وأساسي في نجاح الزواج، لكن التدين يعني أن هناك مرجعية واحدة للطرفين، تحدد القوانين العامة التي تفض الخلاف والاشتباك عند حدوث مشكلة زوجية، إلا أن التدين وحده لا يكفي لنجاح الحياة الزوجية، فالحياة الزوجية الناجحة تحتاج إلى توافق في الطباع أيضا، مثل العصبية والهدوء والمرح والميل إلى الحزن والكسل والنشاط والطموح، وعدم السعي نحو الأفضل، وغير ذلك من التناقضات في الطباع التي من الممكن أن تكون عائقًا مع الوقت لإيجاد حياة طبيعية سعيدة، إلا إذا استطاع أحد الأطراف أن يتحمل طباع الطرف الآخر، ويتوافق معها، ومن هنا تأتي أهمية فترة الخطوبة لكشف الطباع، وإمكانية حدوث التوافق بشأنها بين الطرفين من عدمه.

* * *



أروى بنت عبد المطلب

الشاعرة

أروى بنت عبد المطلب

الشاعرة

" ويحك .. ماذا تقول؟ "

هتف بها فى انزعاج وغضب بالغ، طليب بن أروى عمة النبى صلى اللـه عليه وسلم بعد أن سمع أحد الكافرين، وهو عوف بن صبرة السهمى يشتم النبى، فإذا بـه ينـدفع إليـه فى غضـب، ليمسكه من لحيته، ويضربه فوق رأسه فيصيبه.

وهنا يذهب أحد أقرباء عوف بن صبرة إلى أمه " أروى "؛ شاكيًا لها، قائلًا فى غضب:

ألا ترين ما فعل ابنك يا بنت عبد المطلب؟

فإذا بها تنظر إليه فى حدة قائلة، وفى لباقة عرفت بها:

إن طليبًا نصر ابن خاله، وأسال فى ذى دمه وماله..

كان طليبًا ابنها قد أسلم، وكانت تعلم أن ابنها شجاع، عنده حمية، وهو ما يدفعه دومًـا إلى مشاجرات تقع بينه وبين من يتهجم على محمد.

وكانت هى تدافع عن ابنها؛ باعتباره يـدافع عـن ابـن خالـه، وطبيعـى ألا يسـمح بأحـد أن يسبه، حتى وإن كان السبب هجاء بدين جديد يخالف عقيدة من يسبه.

كانت أروى تقنع غيرها بما تقول، ولكنها فى قرارة نفسـها كانـت تفكـر فـيما يقولـه محمـد، وكانت كثرة اللوم لها على ما يفعله ابنها طليب يدفعها إلى مزيد من التفكير.

وفى غمرة هذ التفكير تحدث إليها ابنها طليب، ليدعوها إلى الإسلام والإيمان برسول اللـه..

وتفكر أروى، ثم تقرر قرارها الأخير..

ستذهب إلى رسول اللـه وتسلم.

ويستمر طليب يدافع عن محمد، ويستمر لوم الناس لها على ما يفعل ابنها، ويأتى أبو لهب أخوها إليها، يلومها على ما يفعله ابنها طليب قائلًا:

ألا ترين ابنك طليبًا قد صيَّر نفسه غرضًا دون محمد؟

التفتت إليه أروى قائلة:

خير أيامه يوم يذب عن ابن خاله..

سكت أبو لهب هنيهة، ثم نظر إليها فى ريبة، قائلًا:

يا أروى.. هل تبعت محمدًا؟

نظرت إليه أروى قائلة فى ثقة وتحد:

نعم.. اتبعت محمدًا..

وكانت مفاجأة أذهلت أبا لهب، ولكنها لم تكتف بأن تلقى فى وجهه هذه القنبلة، بل لاحقته قائلة:

قم إلى أخيك فاعضده وامنعه.

ظهر الارتباك على وجه أبى لهب، وهو يقول:

وهل لنا طاقة بالعرب قاطبة؟!

كان رد أبى لهب جبانًا لا ينم عن رجولة، بينما فعلت المرأة ما لم يستطع أن يفعله الرجال.. لقد آمنت بما اقتنعت به، وفى سبيل ذلك تحدت الجميع، ولم تخش شيئًا.

كانت أروى شاعرة، ظلت تنظم الشعر تنشر به الإسلام وقيمه، وتدافع عن الرسول، وعن الدين الجديد، وعاشت ترى الأيام الصعاب التى واجهها المسلمون فى سبيل الله، حتى جاء الفرج من رب العالمين بالهجرة إلى المدينة، ثم تصاعدت الأحداث حتى جاء فتح مكة، ورأت أروى المسلمين ينتصرون، وأخذت هى تنشد شعرها فى كل مكان فرحًا وابتهاجًا.

إلا أن دموع شعرها لم تكن لتصمد أمام الحدث الذى زلزل المدينة كلها..

لقد توفى الرسول..

وبكت أروى كما بكى شعرها طويلًا..

وعاشت أروى تكمل الطريق فى عهد أبى بكر، ثم فى عهد عمر، لكن فى العام الخامس عشر من الهجرة، كان الطريق قد وصل إلى نهايته، وكان البيت الأخير فى شعر أروى قد كتب.

فقد توفيت أروى فى هذا العام، وبقى شعرها بين الناس، يحكى عن شجاعتها وثباتها الذى فاق الرجال.

* * *

دروس وتحليل

1- سب الرسول جريمة تتكرر كل فترة، فهل وصلنا إلى أفضل الوسائل لمنعه؟ (ابن السيدة أروى يتشاجر مع عوف بن صبرة السهمى، بعد أن سب الرسول):

سيناريو سب الرسول يكاد يتكرر كل فترة بكل تفاصيله، ثم نعود بعدها لنقطة الصفر من جديد.. السيناريو يبدأ برسوم مسيئة تنشر فى جريدة مغمورة أو فيلم مسىء.. أبطاله ممثلون لا يعرفهم أحد، وبمجرد اكتشاف الأمر يعلو الصراخ، وتبدأ المظاهرات العارمة فى الخروج، تدعو للمقاطعة التجارية أحيانًا، وتتطور أحيانًا إلى أحداث عنف، كما حدث بعد أحداث الفيلم الأمريكى المسىء، وبعد كل هذا يحدث شىء فى منتهى الغرابة، هو قيام جرائد أخرى مغمورة بنشر الرسوم المسيئة نفسها ؛ إما لأنها تسعى للشهرة فى الغالب، مستندة فى ذلك لقوانين حرية الرأى والتعبير فى دولها، حتى وإن أساءت للأديان ، أو كرد فعل على تصرف خاطئ من الغاضبين.

تاريخ الإساءة للرسول يقول إن كل الإساءات التى وجهت للرسول نفسه، تجاوزها وصبر عليها دون رد، إلا فى حالة واحدة كادت تتسب فى فتنة بين الناس.

التصرف المثالى (الذى لن يحدث أبدًا) هو أن يتجاهل الجميع ما يحدث فيموت تلقائيًّا، دون أن ينتبه إليه أحد، وتكون قد ضاعت الفرصة على من يريد نشر الإساءة، لكن المشكلة أن هذا الكلام نظرى، فلن يستطيع أحد أن يمنع انطلاق عاطفة ملايين البسطاء لحب الرسول والغيرة عليه، والغضب مشروع بالطبع، لكن علينا ألا يتطور الغضب إلى أعمال تخريبية تتنافى مع قيم الإسلام الحضارية، وألا نشيع الظلم، فنأخذ شخصًا بذنب آخر.

إذن الرد يكون على أربعة محاور:

1) الغضب المنضبط (بافتراض أن الغضب سيحدث حتمًا).

2) التحرك القانونى لإصدار قوانين جديدة، تجرم ازدراء الأديان (أسوة بقانون معاداة السامية).

3) الحوار مع الأجانب؛ للتعريف بالإسلام الصحيح.

4) تغيير سلوكيات المسلمين التى تسىء للإسلام.

بدون هذه الوسائل، فعلينا أن نستعد لسيناريو سب الرسول القادم.

2- هل تستطيع أن تنصر الحق، حتى لو صدر ممن تخالفه فى الرأى أو العقيدة (السيدة أروى كانت تدافع عن حق ابنها فى الدفاع عن ابن خاله محمد، رغم اختلافها معه فى العقيدة):

الإسلام دين العدل، العادل يبحث عن الحق والحقيقة، دون النظر إلى الأشخاص؛ ولذلك قيل إن العدالة عمياء؛ لأن العدالة لو اعتبرت للأشخاص لحكمت بعواطفها، واتبعت فى أحكامها هواها، وهو ضياع للحقيقة والحق والعدل وإشاعة للظلم والفوضى.. وحكمة الدين، أن الإسلام يعلمنا أن نقر بالحق ونؤيده، حتى وإن اختلفنا مع صاحبه.

3- المرأة لديها شجاعة تخفيها خلف ضعفها، وأحيانا تكون أشجع من الرجال (السيدة أروى تعلن إسلامها بشجاعة، بينما يصرح أبو لهب بخوفه من العرب إن أسلم):

فى انتخابات مجلس الشعب بمصر 2010 م، كان التزوير فاضحًا إلى حد لا يحتمل، وكشر الظلم عن أنيابه، إلى حد غير مسبوق، وصمت الكثير من القضاة أمام جريمة تزور فيها إرادة الشعب، وكان أبرز من وقف ضد الظلم وضد نظام مبارك، وهو فى أوج قوته وشراسته، سيدة قاضية اسمها الدكتورة نهى الزينى، كشفت بكل شجاعة تزوير الانتخابات، وظلت ترددها دون خوف. لقد أعطت الدكتورة نهى الزينى مثالًا رائعًا لشجاعة امرأة، تفوقت بها على شجاعة كثير من الرجال فى قول الحق، والوقوف فى وجه الظلم والظالمين.



4- الموهبة نعمة سيحاسبنا اللـه عليها يوم القيامة، فاحذر أن تستخدمها فيما يغضب اللـه (السيدة أروى كانت تستخدم شعرها فى نشر الإسلام والدفاع عنه):

الموهبة نعمة ينعم اللـه بها على البشر، لكن اللـه لا يعطينا النعم، ثم يتركنا نتصرف فيها كما نشاء، فاللـه يعطينا المال ولكنه يحاسبنا على أوجه صرفه، فإن كانت خيرًا أثابنا، وإن كانت شرًّا عاقبنا، والموهبة سلاح ذو حدين، قد يستخدمه الإنسان فى نفع نفسه ونفع الناس، ونشر الأخلاق، وخدمة دين اللـه، وقد يستخدمها صاحبها فى إلحاق الضرر بالآخرين، ونشر الأخلاق والأفكار الفاسدة، والإضرار بقيم الدين ومبادئه.. فعلى كل ذى موهبة أن يشكر اللـه على موهبته، بأن يراقب اللـه وهو يستخدمها، فإن كانت ترضى اللـه، فليحمد اللـه ويسأله أن يزيده منها، وإن كانت تغضب ربه فليراجع نفسه، قبل أن يأتى يوم لا ينفع فيه مال ولا بنون.

* * *

فاطمة بنت محمد

أم أبيها

فاطمة بنت محمد

أم أبيها

" فمن يحمل الحجر الأسود إذن "

هتف بها أحد قادة قريش فى غضب بعد أن ظل هو وآخرون يتناقشون لمدة ثلاثة أيام أو أكثر، دون أن يتفقوا على الطريقة التى يحملون بها الحجر الأسود إلى الكعبة، بعد أن هدموها ليقيموا بناءها من جديد..

كان الحجر الأسود هو القطعة الأخيرة التى يريد الجميع أن ينال شرف رفعها إلى الكعبة كى يكتمل البناء، إلا أن الاختلاف زاد إلى أشده بين زعماء مكة، حتى كاد يصل الأمر إلى حرب، إلا أن صوت العقل تدخل، حتى أشار أحدهم بأن يحتكموا إلى أول من يدخل عليهم ويرتضوا حكمه، فكان الشاب الصادق الأمين " محمد " أول من يدخل عليهم، لتتجلى حكمته بأن يبسط رداءه، ويضع فى وسطه الحجر الأسود، ويشير على الجميع بأن يحملوا الرداء حتى يصلوا إلى الكعبة، ثم يقوم هو بوضع الحجر الأسود فى مكانه.

وقف الجميع ينظرون إلى الشاب محمد بانبهار وتقدير، وتواترت الأحاديث عن فعل محمد..

كان الحدث عظيمًا..

ولقد شارك محمد مرتين فى الحدث العظيم، مرة فى بنائه، ومرة فى إنهاء الخلاف، الذى كان من الممكن أن يتحول إلى حرب أهلية ؛ بغرض نيل شرف وضع الحجر الأسود..

لكن هذا اليوم لم يكتف بهذا الحدث العظيم، فلقد كان ينتظر محمدًا فى منزله حدث عظيم آخر..

له ولزوجته خديجة..

فلقد كان هذا اليوم هو اليوم الذى يكرم الله محمدًا وخديجة بآخر مولود لهما..

فاطمة..

كانت فاطمة آخر العنقود الذى اكتمل بعد زينب ورقية وأم كلثوم، شمس تشرق تشع النور والدفء فى أرجاء البيت، ومصدر للبهجة والسعادة وحبل متين يقوى أواصر الحب بين الزوجين.

أحبها الرسول حبًّا شديدًا، فلقبها بالزهراء، ليقول إنها زهرة حياته وبهجتها.

من يومها الأول يلتف حولها أخواتها الكبار يقبلونها ويداعبونها، لكن فاطمة الرضيعة لم تكن تشعر إلا بأمها الحنون، تبتسم لها وتداعبها، وبعد شهور تكتشف أباها الطيب، وبعد سنوات تجد فاطمة نفسها فى بيت يسوده الحب والدفء والتفاهم بين أبويها وأخواتها الكبار، وهى تتلقى على يديهما الخلق الحسن، وتتعلم منهما أصول الحياة.

مع الأيام تكبر فاطمة، وتكبر معها الأحداث، وهى فى سن خمس سنوات تبدأ فى إدراك ما حولها لترى أمها تصعد إلى الجبل حتى تصل إلى غار حراء، حيث يختلى والدها بنفسه، تحمل له الطعام ثم تنزل، ثم ترى أمها وهى تهدئ من روع أبيها بعد أن جاءه جبريل يبلغه بالرسالة، ويظل الرسول فى حالة غير مستقرة أيامًا وأمها تهدئه.

لم تكن تفهم فاطمة تفاصيل الأمر، لكن قلق أبيها كان ينتقل إليها، وكان ملامحه حينها لا تطمئنها، وكانت تفهم أن أمها تقف بجانبه وترعاه، ربما كان يخفف الرسول حينها من قلقه باحتضانها ومداعبتها، والنظر إلى وجهها، وهى تبتسم وتضحك، لتنقل إليه هدوء البراءة التى جاءت من عالم لا يعرف المشكلات، ولا المسئوليات ولا الهموم.

لكن فاطمة مع الوقت أخذت تفهم ما حدث لأبيها، وفهمت أن أباها نبى الله إلى مكة والعالم، وبمرور الوقت كانت فاطمة تزداد مكانتها عند الرسول، وحبها له؛ ربما لأنها البنت الأخيرة، وربما لأنها تحمل من البراءة ما يخفف عنه أعباء الرسالة، أو ربما لأنها كانت تحمل عاطفة غريبة، تجعل من حولها ينجذب إليها وتجعلها تنجذب لهم، وهو ما جعل علاقتها وطيدة بأخواتها زينب ورقية وأم كلثوم، إلى الحد الذى لم تستطع معه فراقهم، وهو ما أثر فى نفس فاطمة بشدة بعد أن عقد قران أختها زينب، ومن بعدها رقية وأم كلثوم على أولاد عمهما، وأنه بعد وقت قريب ستفترق عنهم..

" ما يبكيك يا فاطمة؟ "

هتفت بها السيدة خديجة منزعجة، بعد أن وجدت ابنتها فاطمة تبكى، لتنظر إليها وهى تقول فى حزن:

لا تدعى أحدًا ينتزعنى منك ومن أبى، فلست أطيق فراقكما..

كانت الروابط بين فاطمة وأبويها قوية، إلى الحد الذى تخشى فيه الابنة أن يأتى أحد، ويحرمها من أبيها وأمها حتى وإن كان هذا الأحد هو زوجها.

إلى أى حد إذن كانت المحبة والألفة والود والعاطفة القوية والحنان بين فاطمة وأبويها؟ إلى أى حد كان التفاهم والمصاحبة والرعاية؟

ابتسمت السيدة خديجة، ثم ضمت ابنتها فى حنان، وهى تقول لها:

اطمئنى يا بنيتى، لن تتركينا إذا أردت.

ابتسمت فاطمة وتسرب الهدوء إلى نفسها، أكملت حياتها فى بيتها الدافئ مع أمها وأبيها، يتحاكون ويتسامرون، وتتعلم منهما حب الخير والعفة والصدق والأمانة وحس الخلق.

شيئًا فشيئًا تدرك فاطمة أمر أبيها، وأنه يحمل رسالة من الله إلى مكة، وتكبر فاطمة وتكبر معها الأحداث، وتتضح لها أكثر.. جهاده مع قريش، هجرة المسلمين إلى الحبشة، إيذاء قريش لأبيها وتحمله فى سبيل رسالته و..

" ماذا تقولين؟ "

هتفت بها فاطمة بانزعاج شديد، بعد أن أخبرتها إحدى صديقاتها بأن عقبة بن أبى معيط، قد ألقى بسلا جزور على ظهر أبيها وهو يصلى..

قالت صديقتها:

سمعت ذلك من قوم كانوا يتحدثون عما فعلوا..

وبسرعة البرق تنطلق فاطمة إلى أبيها فى الكعبة، وبمجرد دخولها تحمل سلا الجزور من على ظهر أبيها، وهى تبكى من ظلم الظالمين وفجر خصومتهم، فينظر إليها الرسول، وهو يقول:

" لا تبك يا بنية ؛ فإن اللـه ناصر أبيك "

كانت فاطمة أول من تسرع إلى أبيها لتساعده، كان يدخل البيت فتجد على ثيابه آثار التراب من إيذاء قريش له، فتسبق كل أخواتها ؛ لتنظف التراب من على ثيابه، لينظر إليها الرسول بحب، قائلًا نفس العبارة التى تحمل إيمانًا ليس له حدود:

" لا تبك يا بنية ؛ فإن اللـه ناصر أبيك "

منذ الصغر وفاطمة تعيش مع أبيها معاناته مع قومه، واستمرت تعين أباها عليهم عامًا بعد عام، فى الوقت الذى كانت الأطفال من حولها يلعبون ويمرحون، تعيش فاطمة مع أبيها، بعد أن تودع رقية المهاجرة مع زوجها عثمان إلى الحبشة، وترى زينب تذهب إلى بيت زوجها، تعيش مع أبيها تراقب الأحداث، وتتفاعل معها، حتى جاء الحصار الأليم.. حصار قريش للمسلمين فى شعب أبى طالب لمدة ثلاث سنوات متواصلة، الحصار الذى انتهى بأول صدمة لفاطمة.. ابنة الخمسة عشر عامًا.

* * *

فى السنة السادسة من البعثة تقرر قريش المقاطعة العامة للرسول وأصحابه، ويجمع أبو طالب المسلمين وأهله فى شعب أبى طالب، ويتعرض المسلمون لحصار شرس.. لا طعام، لا زواج، لا معاملات.

وتدخل فاطمة مع أمها خديجة الحصار مع المسلمين.. تتحمل فاطمة الصغيرة وهى ابنة اثنى عشر عامًا ثلاث سنوات عصيبة، تأكل فيها أوراق الشجر، وتتحمل آلام الجوع والعطش، وتراقب فاطمة أمها وهى صابرة مجاهدة، لا تشتكى، وعندما يصلها الطعام تقول:

واللـه لا آكل حتى يأكل المسلمون.. فتقوم فتوزع الطعام على ضعفاء المسلمين.

يشتد الحصار يومًا بعد يوم، وبعد ثمانية وستين عامًا تلحظ فاطمة على أمها المرض يتسلل إلى جسدها.

ثلاث سنوات كاملة، بعدها ينتهى الحصار، وتساعد فاطمة أمها خديجة، وهى تعود إلى بيتها منهكة القوى ضعيفة هزيلة، بعد أن أرهقتها السنون وأجهدها الحصار..

الآن تجلس فاطمة بجانب أمها ترعاها، بعد أن منحتها أمها من الحنان والرعاية والصحبة والصداقة ما يكفى عشرات الأبناء.

إلا أنه مع مرور الأيام، كان المرض يشتد على خديجة، وكانت فاطمة تشعر أن الفراق يقترب، وهى تجلس بجانبها ترعاها وتحكى معها، وتتذكر ما كان يدور بينهما من أحاديث ومواقف..

حتى جاءت اللحظة الحزينة.. لحظة الفراق..

ماتت خديجة أم فاطمة الحنون، وينفطر قلب فاطمة على أمها وصاحبتها وحبيبتها..

وبكل العقل والحكمة والصبر والإيمان، تعلق فاطمة ذات الخمسة عشر عامًا، قائلة:

والله لا أقول إلا إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرنى فى موت أمى، والله لا أدرى، أأحزن لفراق أمى أم أفرح لما بشرت به فى الجنة.

إنه مؤشر الحكمة والإيمان لفتاة فى سن الخامسة عشرة.

لكن الآلام تزيد والمحن تشتد، ويتوفى جدها أبو طالب، لتجدها قريش فرصة كى تزيد الإيذاء على أبيها، و..

(وَيْحكم.. أستضعفتم أبى بعد وفاة جدى وأمى، والله لأرجمنكم بالحجارة).

صرخت بها فاطمة فى غضب لعشرة من الكافرين، التفوا حول النبى كان من بينهم أبو جهل، ثم أمسكت بالحجارة فى شجاعة لتقذفها على الكافرين مدافعة عن أبيها، الذى أخذ يقول لها نفس العبارة:

" هونى عليك يا بنية ؛ فإن الله مانع أبيك "

وتمر الأيام على فاطمة صعبة بطيئة حزينة، حتى يأتى الحدث العظيم بعد عام واحد..

لقد أمر الله الرسول بالهجرة إلى المدينة.

* * *

كانت الخطة ألا تهاجر فاطمة أولًا ؛ حتى لا تفهم قريش أن الرسول لازال فى مكة فتتعقبه، فكان الترتيب أن يهاجر الرسول أولا ثم تهاجر فاطمة، كان الأمر شاقًّا على فاطمة لاشك، لكن فاطمة التى تربت على تحمل المسئولية، كانت تعى وتفهم وتتحمل.

انتقلت فاطمة إلى حياتها الجديدة مع أبيها فى المدينة، ارتبطت فاطمة بأبيها ارتباطًا كبيرًا، وتأثرت بوالدها تأثرًا جعلها تقلده فى طريقة كلامه وحركاته، وفى ذلك تصفها عائشة، وتقول:

" ما رأيت أحدًا كان أشبه كلامًا وحديثًا برسول الله صلى الله عليه وسلم من فاطمة، وكانت إذا دخلت عليه قام إليها، فقبلها، ورحب بها، وكذلك هى تصنع به". (إسناده حسن: أخرجه أبو داود والحاكم (3 / 154)، وأقره الذهبى).

عاشت فاطمة مع أبيها صديقين، العلاقة بينهما ليست علاقة أوامر وتسلط من جهة الأب، ولا علاقة عناد وتمرد من جهة الابنة، بل تجمعها الصداقة والحوار والتفاهم والاحترام.

ولذا تعلمت فاطمة من أبيها الكثير، وتعاونت معه فى جهاده ضد المشركين إلى أقصى حد، إلى الحد الذى جعلها تخرج معه فى غزوة أحد تحمل قربة، والزاد على ظهرها لتسقى الماء.. تقدم الطعام والشراب للمقاتلين مع غيرها من نساء الصحابة، وهى تراقب أباها من بعيد، كانت الأمور تسير فى اتجاه النصر للمسلمين، وكان الجميع يرى المشركين فى حالة يرثى لها حتى وقع الخطأ القاتل من الرماة، هنا دخل خالد بن الوليد بجنوده، وانقلب الموقف رأسًا على عقب و..

* * *

" أبى "

صرخت بها فاطمة، وهى تجرى إلى أبيها، وقد وجدت الدماء تسيل على وجهه، فسارعت إليه واحتضنته فى حنان، ثم بدأت تجفف ما بوجهه من دماء، لكن يبدو أن الجروح كانت غائرة ؛ مما جعل النزيف مستمرًّا ؛ مما دفع فاطمة لأن تأخذ قطعة من حصير وأحرقته، ثم وضعتها على مكان الجروح ليتجلط الدم.

وعادت فاطمة مع أبيها إلى المنزل تطببه وترعاه، وتجلس معه وتحاكيه وتخفف عنه كأب وصديق..

هكذا كانت فاطمة مع أبيها، ولهذا رفع الرسول فاطمة إلى أعلى عليين، فقال فيها: **" سيدة نساء أهل الجنة فاطمة بعد مريم "**.

كان حب الرسول لفاطمة فياضًا معلنًا، يفتخر به وسط صحابته، ولا يداريه عن الناس، فكان يجلس بينهم حتى إذا جاءت فاطمة، قام فرحًا ليقبلها بين عينيها وفى جبينها.

أرأيتم كل هذا الحب بين أب وابنته..

أحبت فاطمة أباها حتى شابهته فى كل شىء، وحتى قالت عنها عائشة:

" ما رأيت أحدًا أشبه سمتًا وخلقًا برسول اللـه - صلى اللـه عليه وسلم - من فاطمة "..

كان الجميع يعرف حرص فاطمة على أبيها ورعايتها له، وحنانها الشديد له، وأنها تقوم بالدور نفسه الذى تقوم به السيدة خديجة قبل وفاتها، حتى قيل عنها بين الصحابة إنها " أم أبيها "، وكان حب النبى لها عظيمًا حتى قال عنها: **" فاطمة بضعة منى، من أغضبها فقد أغضبنى "..**

ربما لذلك لم يتقدم أحد لفاطمة طيلة عام فى مكة وعامين فى المدينة، لخوفهم بأن يكون النبى وحيدًا لا يجد من يخدمه ويرعاه.. لم يكن النبى فى عيون فاطمة وحدها، بل كان فى عيون كل المسلمين.

إلا أنه بعد زواجه صلى اللـه عليه وسلم من عائشة فى السنة الثانية من الهجرة، بدأ الخُطَّاب يتوافدون على رسول اللـه..

طلبها أبو بكر، لكن الرسول لم يقبل بلطف، ثم طلبها عمر من بعده، لكن الرسول اعتذر برفق أيضًا، ثم جاء من بعده عبد الرحمن بن عوف فكان الرد نفسه، وهنا تقدم بعض الأنصار لعلى بن طالب، وهم يقولون له فى دعابة:

يا على سبقك الكثير، لم لا تتقدم؟



كان عرض الأنصار علىّ بن أبى طالب مفاجئًا، وأصابه بالتردد والحيرة نوعًا ما، بعد أن عرف أن الرسول لم يقبل أبا بكر وعمر، ونتيجة لظروفه المادية الصعبة قائلًا:

لكن ليس عندى شىء..

الآن الأنصار أخذو يشجعونه، قائلين له:

ولكن رسول اللـه صلى اللـه عليه وسلم يحبك يا على..

وظل الأنصار على هذه الحال، حتى اقتنع على بالفكرة، وعزم بالفعل على الذهاب للرسول و...

" ما لك تسكت يا على؟ "

سأل النبى صلى اللـه عليه وسلم عليًّا بعد أن ذهب إليه لخطبة فاطمة.. ثم تابع بعد أن وجد عليًّا صامتًا فى لطف:

" لعلك جئت تخطب فاطمة "..

فقال على: نعم يا رسول اللـه، فقال: " هل معك شىء تتزوجها به "، فقال: لا يا رسول اللـه، فقال: " أليس عندك درع، كنت قد أعطيته لك "، فقال: نعم يا رسول اللـه، ولكنه لا يساوى سوى أربعمائة درهم..

قال رسول اللـه: " زوجتك به ".

ببساطة تم الزواج بلا تعقيدات تعكس عقدًا نفسية عند أى طرف، المهم تحقيق الهدف من الزواج، زوج صالح، وتوافر حالة من التفاهم، وقدرة على تحمل أعباء البيت ماديًّا واجتماعيًّا.

وفى حفل زفاف بسيط، تركب فاطمة بغلة النبى، يقودها سلمان الفارسى، والصحابة يحتفلون حولها فى عرض تقليدى برفع السيوف وحولهم المنشدون ينشدون أغانى الفرح والبهجة..

وانتهى حفل الزفاف البسيط لتذهب فاطمة مع على زوجها، فى بيت بسيط، فى مكان بعيد عن بيت أبيها رسول اللـه، لتبدأ مع زوجها بناء حياتهما يدًا بيد..

وقبل أن يذهب على وفاطمة إلى بيت الزوجية، همس الرسول فى أذن على قائلًا له فى لطف:

" يا على.. لا تحدث شيئًا حتى آتيكما ".

كان الرسول يقصد ألا يجامع علىٌّ زوجته قبل أن يأتيهما، ونفذ على بن أبى طالب ما قال الرسول، وظل الاثنان ينتظران الرسول حتى جاء، ولما دخل أمسك يد علىٍّ، ووضعها على يد فاطمة، ثم دعا الله قائلًا:

" اللهم إن فاطمة بضعة منى، اللهم إنها حبيبة إلى قلبى، اللهم إن عليًّا أخى وأحب الناس إلى، اللهم بارك لهما، وبارك عليهما، واجمع بينهما فى خير ".

كان الرسول يريد أن يبدآ حياتهما بتأسيس قاعدة جميلة، تعمر بها البيوت، وتستمر وتقوى.. قاعدة أنه ليس حما لعلى، بل أخًا له، بينهم من المودة والحب ما يكفى لكى يرعى ابنته، ويحافظ عليها.

بداية حياة زوجية يظللها الإيمان، ويرعاها الله برحمته وعطفه.

ثم يقول الرسول لعلى: " يا على ضع يدك على رأس فاطمة، وقل:

اللهم إنى أسألك خيرها، وخير ما خلقت له، وأعوذ بك من شرها وشر ما خلقت له"..

ويفعل علىٌّ ما أمره به الرسول، وقبل أن يتركهم الرسول نظر إليهما الرسول قائلًا لهما فى حنان:

" قوما وصليا ركعتين ".

وضع الرسول لبنة البداية الصحيحة لبيت مسلم، بيت يبدأ بطاعة الله، لا بمعصيته، بيت يدعو الله بصدق أن يكون جمعها كله خير، جمع قائم على التفاهم والمودة والرحمة والتعاون، وبناء بيت على أسس أخلاقية، تهدف فى النهاية إلى الفوز بالجنة والنعيم المقيم.

وضع الرسول البداية الصحيحة لزوجين، العلاقة بينهما موصولة الصلة بالله، حتى يكون الدين مرجعًا لهما عند الخلاف، وحافزًا لهما للعمل والطاعة، وإسعاد كل طرف

للآخر.. زوجين حما الزوج ليس شخصًا همه أن ينصر ابنته على زوجها، إنما العلاقة بينه وبين زوج ابنته قائمة على الحب، وبالتالى يسهل تحقيق التفاهم وحل المشكلات.

نعم مشكلات..

فحتى بيت فاطمة بنت رسول اللـه، وعلى بن أبى طالب، الشاب الذى رباه رسول اللـه صبيًا فى بيته، ستحدث فيه مشكلات ؛ لأن هذه هى سنة الحياة مهما كانت مثالية الزوجين ودرجة حرصهما.

إلا أن الفرق بين الزواج الناجح والفاشل، أن الزوجين فى الحالة الأولى لديهما من القواعد التى تجعلها قادرين على حل أى إشكال دون تصعيد للموقف، وإشعال الحرائق فى كل مكان.

ابتعدت فاطمة قليلًا عن الرسول، لكنه لم يستطع أن يبتعد عنها، لم تتوقف زياراته لها أبدًا، كان إذا خرج من المدينة مسافرًا صلى ركعتين، ثم ذهب إلى فاطمة لتكون أول من يزورها، وكان إذا جاء وقت السفر خارج المدينة، كانت هى آخر من يراها قبل سفره.

إنها فاطمة الزهراء، حبيبة رسول اللـه، وزهرة حياته.

لم يستطع النبى فراق فاطمة، كانت فاطمة جزءًا من جسده لا يستطيع أن تنفصل عنه، فى كل يوم يمر يشعر أن نغزات تؤلمه من فراق ابنته الحبيبة، لكن ماذا يفعل؟

كان الرسول يعيش فى قطعة أرض يملكها رجل غنى من الأنصار، اسمه حارسة بن النعمان وكان كلما تزوج الرسول زيجة أعطاه قطعة إضافية من الأرض، لكن شعر النعمان ما يدور بخلد الرسول، فذهب إليه وعرض عليه فى لطف وأدب قائلًا:

يا رسول اللـه، أما تشتاق لقرب فاطمة؟

نظر إليه الرسول، وقال فى خجل:

" نعم، ولكنى استحييت منك يا حارسة، فقد أعطيتنا كثيرًا "..

قال حارسة متلهفًا فى بشر، وكأنه ينتظر الإشارة بالموافقة من الرسول:

يا رسول الـلـه، والـلـه إن ما تأخذه منى أحب إلى مما تتركه لى، وإن ما أعطيه إليـك لأحـب إلى قلبى مما تبقيه لى، فخذ هذا المكان لهما يا رسول..

قال له له الرسول:

" أبدلك الـلـه به يا حارسة قصرًا فى الجنة "..

وتأتى فاطمة لتعيش بجانب الرسول مع زوجاته، ليهدأ بال الرسـول، وتسـعد فاطمـة، فلقـد اقترب الحبيبان، ولن يتحملا بعد ألم الفراق.

* * *

فى بيت الزوجية تنفذ فاطمة وصية أبيها برعاية زوجها، ومن أول يوم تعرف واجباتها نحوه، وتتفانى فى خدمته ؛ من تنظيم للبيت ورعاية لشئونه، كانت تعرف أنها ابنة رسـول الـلــه وابنـة خديجة ؛ لذا لابد أن تعطى المثل والقدوة لأجيال قادمة، فى الاهتمام بزوجهـا ورعايتـه، فكانـت تنظف وتعجن وتخبز وتطحن، مثـل غيرهـا مـن النسـاء فى بيـوتهن، هكـذا رأت أمهـا فى بيتهـا، وهكذا تعلمت من أبيها.

ولقد تعلمت فاطمة من أبيها الكثير، حتى قالت عنها عائشة:

" ما رأيت أصدق ولا أكثر حياء فى حياتى من فاطمة إلا رسول الـلـه صلى الـلـه عليه وسلم "..

وتقول:

قيامها وجلوسها ونومها كأنك ترى النبى صلى الـلـه عليه وسلم في كل شىء..

وكغيره من بيوت المسلمين، عانت فاطمة وعلى من مشكلة الفقر، كان على يجتهـد كثـيرًا فى العمل.. كان يشكو لفاطمة ما وصل إليه من إجهاد، فكان يقول:

آه من ظهرى، انحنى من كثرة ملو الماء، وآه من يدى انجلت..

إلا أنه يبدو أن عليًّا نفسه قد شعر بـأن الأمـر قـد أجهـد فاطمـة، فأحـب أن يخفـف عنهـا، فطلب منها أن تذهب إلى رسول الـلـه تطلب منه خادمًا يقوم بشئون البيـت، وذهبـت فاطمـة إلى رسول الـلـه بالفعل لتجلس معه وتتحدث إليه، إلا أنه فى أثناء الحـديث شـعر الرسـول بـأن شيئًا ما تريد أن تقوله، فأراد الرسول أن يشجعها على طلبها، فقال لها:

" ألك حاجة يا بنيتى؟ "..

نظرت إلى أبيها، وهمت بطلبها، ولكنها خجلت، وتراجعت لتقول وكأنها تدارى شيئًا:

لا.. لا حاجة يا أبى..

سكت الرسول، ولم يرد أن يلح عليها ليستكمل معها حديثه الودود، وتعود فاطمة إلى بيتها لتخبر عليًّا بما حدث، وأنها استحيت أن تطلب منه هذا الطلب، فاتفق معها على أن يذهبا سويًّا للرسول، ويخبراه بما يريدان..

ويذهب على وفاطمة إلى بيت الرسول، ويتبادلان الحديث معًا، ليتطرق الحديث عن أحوال المعيشة، ومدى المعاناة التى يعانيها على وفاطمة، حتى أمسك على بيد فاطمة أمام الرسول ليقول له:

يا رسول الله.. انظر إلى يد فاطمة.

وينظر الرسول إلى يد فاطمة ليرى ما بجلدها من الإجهاد، ليتابع على:

يا رسول الله، أعطنا خادمًا..

سكت الرسول هنيهة، وتذكر أهل الصفة من المهاجرين الذى لا يجدون قوت يومهم، لينظر إليها قائلًا فى رفض وفى رفق:

" لا والله، إن هؤلاء السبى أبيعهم، وآتى بأموال، لأنقذ من هو أكثر احتياجًا منكما.. أهل الصفة (أى الفقراء الذين لا يجدون ما يأكلوه) "..

كان رد الرسول من منطلق القائد العادل أكثر من كونه الأب الحريص على راحة ابنته، ولذلك نظر إلى طلب ابنته وزوجها، وكلاهما له مكانة فى قلبه، يعرفها الجميع، باعتبارهما مسلمين ضمن مسلمى المدينة، فنظر فى طلبهما ليجده رفاهية، لا ينبغى له أن يستجيب لهما فيه، وهناك من يتضور جوعًا وهو لا يجد ما يطعمهم به.

إلا أن الأمر لازال يؤرق رسول اللـه، يريد أن يساعدهما بأى طريقة، فيذهب إلى منزلهما، ويدخل على فاطمة، وكانت نائمة فى فراشها، فجلس بينهما فى الفراش، وقال لهما فى رفق:

" ألا أخبركما بما هو أفضل من الخادم؟ "

نظر إليه فاطمة وعلى ليقولا:

بلى.. أخبرنا يا رسول اللـه..

فقال لهما رسول اللـه:

" إذا أويتما إلى فراشكما، فقولا: سبحان اللـه ثلاثًا وثلاثين، والحمد لله ثلاثًا وثلاثين، واللـه أكبر أربعًا وثلاثين، يغنيكما اللـه عن الخادم ".

أراد الرسول أن يعالج الموقف إيمانيًا، والتزمت فاطمة وعلى بوصية الرسول ورددا الدعاء بيقين واهتمام وثقة، وكان المثير أنهما لاحظا تغييرًا بالفعل، حتى قال على:

فواللـه ما إن بدأنا فيها، حتى زادنا اللـه قوة، فما نحتاج لخادم.

وتمسكا بها تمسكًا عجيبًا حتى قال:

وواللـه ما تركتها أبدًا، فقال له رجل من أهل العراق: ولا يوم صفين (المعركة الشهيرة)، قال: ولا يوم صفين.

من بعدها كان الرسول يتابع ابنته وحبيبته، ويراقب صحتها.. ففى إحدى المرات رآها النبى صلى اللـه عليه وسلم وجهها مصفر من كثرة الجوع، فشعر النبى صلى اللـه عليه وسلم بالسيدة فاطمة، فرفع يده، وقال:

" اللـهم مشبع الجوعى، لا تجع فاطمة بنت محمد "..

كان سهلًا على اثنين رباهما رسول اللـه فى بيته، مثل فاطمة وعلى، أن يفهما رسالة الرسول بسرعة، وأن يستعينا باللـه على مشقة الحياة، وأن يجعلا صلتهما باللـه ورجاءهما فيه وتفاهمهما معا حلًا لمشكلاتهما المادية، بدلا من أن تأخذهما أزمات الحياة إلى دوامات لا



آخر لها.. لقد عرفت فاطمة طريقها مع على ليبنيا معًا بيتهما السعيد، ويستقبلا أولادهما إلى الحياة، ويرحبا بهما على أسس سليمة، يتعلمون منهما كما تعلموا هم من رسول الله.

كان الفقر مزعجًا لهما بلا شك، كما يسبب الفقر إزعاجًا وألمًا لأى أسرة، لكن الحب والتفاهم وأخذ الأمور ببساطة، وجو المرح الذى يقضى على كآبة المشكلات، كان علاجًا فى معظم الأحيان.. لبيت فاطمة وعلى.

إلا أنه مهما كانت مثالية الزوجين وتدينهما، فإن حدوث المشكلات سنة كونية، طالما كنا على ظهر الحياة، ولقد دقت أبوابهما مشكلة ليست بالصغيرة على بيت فاطمة بنت النبى، وعلى بن أبى طالب..

مشكلة لم تكن صغيرة

أبدًا..

* * *

" أين على؟ "

سأل الرسول صلى الله عليه وسلم ابنته فاطمة، بعد أن دخل منزلها فى إحدى زياراته لها، فأجابته فاطمة فى حزن، وهى تقول:

علىٌّ غاضبنى، وترك لى البيت..

بدا الانزعاج على وجه الرسول، وبعد أن تحدث مع فاطمة قليلًا، خرج من عندها يسأل عن علىٍّ ويبحث عنه، حتى وجد رجلًا فسأله عن علىٍّ..

فقال الرجل:

وجدته فى المسجد يا رسول الله..

وما إن سمع الرسول كلام الرجل حتى انطلق إلى المسجد، وما إن دخل المسجد حتى وجد عليًّا نائمًا فى بقعة بها تراب، يتقلب فيها، ويبدو على وجهه الهم والغضب، فإذا بالرسول يقترب منه فى رفق، ثم أخذ يمسح عنه التراب، وهو يقول له مداعبا:

" قم أبا تراب.. قم أبا تراب "..

فوجئ على بالرسول أمامه، فجلس فى اهتمام، وفوجئ أكثر بأسلوب الرسول معـه فى الكـلام، حيث لم يسأله عما حدث ولم يوجه له اللوم على ما فعل، بل قال له فى حنان الأب:

على.. بالـلـه عليك عد معى إلى البيت.

ويعود على إلى البيت، ليمر الموقف بسلام، وتعـود الحيـاة إلى الاسـتقرار مـن جديـد، إلا أن حدثًا آخر طرأ على حياتهما، كان بمثابة زلـزال يهـز البيـت فى عنـف شـديد.. لقـد فكـر عـلىٌّ فى الزواج على فاطمة..

ليس هذا فحسب، فلقد أراد الزواج من بنت أبى جهل أعدى أعداء الإسلام!!

كان الأمر مزعجًا لفاطمة بلا شك، فدخول امرأة جديدة على حياة أى زوجة لم يكن بالحدث السعيد بأى حال، لكن الأمر بالنسبة للرسول كان إزعاجًا من نوع آخر، فلقد شعر أن الأمر يمثـل إهانة لابنته، وتهديدًا لاستقرارها فى بيتها، أن تكون ابنة عدو الـلــه مـع ابنتـه فى بيـت واحـد، ولذا خرج الرسول على المنبر موضحًا ومفسرًا موقفه قائلًا:

" إنى لا أحرم حلالًا، ولا أحل حرامًا، ولكن لا ينبغى لابنة عدو الـلـه أن تجتمع مع ابنة نبـى الـلـه فى بيت واحد "..

لم يكن الأمر منعًا للتعدد أو اعتراضًا عليـه إرضـاء لابنتـه فاطمـة، بـل كـان احترامًـا للمـرأة، ووضع قيود للتعدد فى صالح كرامة المرأة، واستقرار حياتها.

ثم تابع:

" وإنى لا أريد لعلى أن يفعل شيئًا، ولكن إن أراد أن يتزوج فليطلق ابنتى هذه المرة "..

شعر على بالخطأ، وأن الأمر أكبر مما تصـوره، وعـاد إلى فاطمـة فى تواضـع قـائلًا لزوجتـه فى موضع صعب على الرجال:

يا فاطمة، لعلى أخطأت فى حقك، وأنت أهل للعفو والمغفرة، فهل تعفى وتغفرى؟

نظرت إليه فاطمة للحظات، ثم نظرت إليه قائلة وفى عينيها اللوم والتواضع والحكمة معًا:

..أعف يا ابن العم، وأغفر يا ابن العم.



كانت عاصفة شديدة كادت تودى ببيت فاطمة، وزاد من شدة العاصفة أنها كانت تحمل من على، وفى شهورها الأخيرة، وربما كان هذا السبب هو ما هدأ العاصفة بعد ذلك كثيرًا، فلقد فكرت فاطمة فى مولودها القادم وهو ما جعلها تفكر فى المستقبل أكثر من الماضى، وبعد شهرين من ذلك الحدث، وبعد عام من الزواج كان أول حفيد للرسول من فاطمة.. كانت المشكلة قد انتهت تمامًا.

الحسن..

كانت فرحة الرسول لا توصف، فالرسول لم يكن له ذكور، فكل أبناء الرسول من الذكور ماتوا، فأبو القاسم الذى أنجبته له السيدة خديجة توفاه الله، وكذلك إبراهيم الذى أنجبته له مارية.. لم يبق للرسول إلا بناته الأربعة.. زينب ورقية وأم كلثوم وفاطمة، عاش النبى لهن طوال حياته يربيهن ويعلمهن، ويعطى القدوة للمسلمين فى حياته وبعد مماته فى رعاية الأب لأبنائه، وحسن علاقته بهن..

الآن فقط لدى الرسول حفيد يحمله على ذراعيه ويحنكه بنفسه ويسميه هو.

يذهب النبى إلى فاطمة مباركًا ويقول لعلى مبتسمًا:

" يا على.. ما سميتم الغلام؟ "

فيجيب على: سميناه حربًا..

كانت شجاعة على وجرأته فى القتال قد دفعته لأن يسمى ابنه حربًا، إلا أن فلسفة الرسول كانت تختلف عن على، فلقد أراد الرسول اسمًا به إسلام وإحسان، لا عنف وحرب، ولذا ابتسم له قائلًا:

" ألا سميته الحسن؟ "

وينزل علىٌّ على رغبة الرسول، فيسمى ابنه الحسن.

إلا أن نعم الله على رسوله توالت، ليقر الله عينه بحفيد آخر هو الحسين، ليسميه علىٌّ " حربًا " أيضًا، ليقول له الرسول مداعبًا، " ألا سميته الحسين ".. فيسميه الحسين، ثم يأتى

الثالث، فيسميه الرسول " محسن "، إلا أن اللـه يتوفاه صغيرًا، لتلد فاطمة بعده زينب وأم كلثوم.

لقد تكونت الأسرة التى كانت تخفف عن الرسول، وتقر عينه، وتعيد إليه بسمته وقت الأزمات..

إنهم آل البيت، الذين قال فيهم رسول اللـه:

" لا يبغضن أهل البيت أحد، إلا أدخله اللـه النار "..

لكن رغم كل هذا الحب، لم يكن يطغى هذا الحب أبدًا على رؤية الحق وتطبيق العدل، حتى على فلذة كبده فاطمة.. لم يكن ذلك النوع من الحب الظالم المفسد للأبناء والمدلل لهم والظالم لغيرهم، حتى وإن كانوا على حق، بل كان ذلك الحب المتوازن الذى يقوى العلاقة بين الآباء والأبناء وفى نفس الوقت يغرس الأخلاق ويهذب النفوس ويبنى الشخصية الصالحة، وهذا ما حدث بوضوح فى موقف، تدخل فيه أسامة بن زيد، بعد أن وسطه بعض الصحابة، ليرفع الحد عن امرأة مخزومية سرقت.

وعندما فاتح أسامة الرسول فى الأمر، غضب الرسول بشدة، وقال لأسامة فى انفعال:

" يا أسامة.. أتشفع فى حد من حدود اللـه؟ "

وخرج الرسول إلى الناس ليخطب فيهم قائلًا:

" إنّما أهلك اللـه الذين من قبلكم، أنهم إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف، أقاموا عليه الحد.. وايْمُ اللـه، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت، لقطعت يَدَها "..

رغم كل هذ الحب لفاطمة، أراد الرسول أن يعلى الحق والعدل على أى حب لإنسان مهما كان، حتى وإن كان هذا الإنسان، حبيبته فاطمة.

وكانت فاطمة حكيمة وناضجة إلى الحد الذى تفهم فيه كلام الرسول جيدًا، وتعرف مغزاه، ولا تعتبره نقيضًا لحبه لها.. لم تأخذ فاطمة من النبى وجهه الأبيض المشوب الحمرة وطريقة مشيته ونومه وسمو أخلاقه فقط، بل أخذت منه الحكمة ورجاحة العقل أيضًا، إلى الحد الذى جعلنا لم نسمع بمشكلة قط بين فاطمة وأى واحدة من زوجات الرسول،



بل لم نسمع كلمة قالتها في حقهن من منطلق الغيرة على أمها خديجة، أو شكوى اشتكتها إحدى النساء من فاطمة.

لم تكن فاطمة أم أبيها، بل كانت ابنة أبيها أيضا..

لكن الحدث العظيم اقترب بعد أن وصلت فاطمة إلى عامها الثامن والعشرين، ومعها كاد ينخلع قلب فاطمة..

وقلب المسلمين جميعًا.

* * *

وصل أبو فاطمة وحبيبها وصديقها ورسول الله إلى عامه الثالث والستين، وفي نهاية عامه الأخير يصاب بالحمى، لتشتد عليه شيئًا فشيئًا، ومعه يشتد الألم والحزن على فاطمة..

ويخيم الحزن على الجميع.. فلقد بدا أن الرسول والأب يرقد رقدته الأخيرة، وتأتي فاطمة تمشي، ينظر إليها الجميع وهي تمشي مشية الرسول نفسها ، وينفتح الباب لتقع عينا فاطمة على عيني الرسول، ليبتسم لها الحبيب والأب والصديق، ويقول لها في حنان:

" ادن مني يا فاطمة ".

وتهرع فاطمة إلى أبيها والدموع تتساقط من عينيها لترتمي في أحضانه باكية، فإذا برسول الله يحاول أن يهدئها فيهمس في أذنيها بسر تبكي بعده فاطمة، فإذا برسول الله يهمس في أذنيها ثانية فتضحك فاطمة.

أثار الموقف فضول الجميع من زوجات النبي، ونظرن إلى فاطمة يحسدنها على ما خصها به رسول الله - صلى الله عليه وسلم..

كان الموقف عجيبًا، لكن تفسيره كان حاضرًا لهن جميعًا، فالجميع يعرف علاقة الرسول الأب بابنته فاطمة، لكن الجميع كان يريد أن يعرف..

لذا.. فما إن خرجت فاطمة حتى لاحقتها عائشة، وهي تسألها في لهفة:

ماذا قال لك رسول الله يا فاطمة؟

إلا أن فاطمة فاجأتها قائلة:

ما كنت أفشى على رسول اللـه سره.

هكذا تعلمت فاطمة من أبيها، هكذا تعلمت من رسول اللـه.

إلا أن المرض اشتد على رسول اللـه، واقتربت لحظة النهاية، والعرق يتصبب منه، وهو يقول بصوت متهدج:

" لا إله إلا اللـه.. إن للموت لسكرات ".

يدخل جبريل فيلقى السلام، يقول جبريل: يستأذن عليك ملك الموت أن يدخل عليك، وما استأذن على أحد من قبلك، ولن يستأذن على أحد من بعدك ، فأذن له النبى.. فيدخل ملك الموت، ويلقى السلام على النبى صلى اللـه عليه وسلم ، فيرد عليه النبى السلام. فقال ملك الموت للنبى صلى اللـه عليه وسلم :

إن اللـه أرسلنى كى أخيرك بين البقاء فى الدنيا، وبين لقاء اللـه عز وجل..

فقال النبى صلى اللـه عليه وسلم : " بل الرفيق الأعلى ".

وتغمض عين النبى، وترتفع الروح إلى بارئها، وتبكى فاطمة كما لم تبك فى عمرها، لا يهدئها إلا تلك الكلمات التى أسر بها فى أذنيها قبل وفاته..

من أين تأتين بالصبر يا فاطمة؟

رأيت أمك خديجة تموت وأنت ابنة خمسة عشر عامًا، بعد حصار قريش للمسلمين طوال ثلاث سنوات.. رأيت والدك وهو أفضل رجال مكة يهان من أراذل الناس من أجل رسالته.. هاجرت مع أبيك، واشتركت فى غزوات معه.. توفيت أخواتك الثلاث رقية وأم كلثوم وزينب لتجلسى أنت وحيدة بجانب أبيك ترعيه وترافقيه فى جهاد، والآن يموت بين يديك قرة عينك وأعظم من أحببت فى هذه الدنيا.

تعلمين النساء الصبر على فراق الأحبة.. تعلمين الناس التحمل والاستسلام لقدر اللـه.

تحملت فاطمة الكثير، وصبرت على ما لم يستطع أن يصبر عليه الرجال..

كانت كلمات الرسول الأخيرة لها هى سلواها الوحيدة، لم تنسها أبدًا..

كما لم تنسها عائشة..

كانت تريد أن تعرف ما هو ذلك السر الذى أسره لها الرسول ولم تعرفه، فذهبت إليها لتقول لها:

أما زلت مصرة ألا تخبرينى يا فاطمة؟

نظرت إليها فاطمة، وهى تبتسم ابتسامة حزينة، لتقول لها:

أما الآن.. فنعم يا عائشة.. سأخبرك..

تهلل وجه عائشة واستمعت بإنصات لفاطمة، وقد بدا عليها أنها تتذكر:

فى المرة الأولى دنوت منه فقال لى: يا فاطمة إنى ميت الليلة، فلما رأى دموعى، قال لى: " يا فاطمة.. أما ترضين أن تكونى أول أهلى لحاقًا بى، وأن تكونى سيدة نساء أهل الجنة"، فضحكت.

ثم التفتت إلى عائشة، وهى تقول: سأكون أنا أول أهله لحاقًا به يا عائشة.

تجلس فاطمة فى بيتها تتذكر أباها، وتتذكر حديثه عنها، وعن أبنائها يوم القيامة، وهو يقول:

" أنا وفاطمة والحسن والحسين ومن أحبنا، نأتى يوم القيامة، يحاسب العباد ويجلسون معنا نأكل ونشرب حتى يفرغ من حساب العباد "..

لم يكن أحد ينتظر الموت فى العالم كله بحب كما انتظرته فاطمة، فالموت بالنسبة لها يعنى لقاء أبيها وحبيبها.. لم تكن تريد أن يطول الفراق عنه ؛ لذا سارعت بذكر وصيتها لزوجها علىّ..

وكانت وصاياها غريبة..

لقد أوصت زوجها عليًّا، بأن يتزوج بعد وفاتها من ابنة اختها، فلن يكـون هنـاك أحـن عـلى الحسن والحسين منها، ثم أوصت أن تدفن ليلًا ؛ حتى لا يتزاحم عليها الناس، وأن تغطى جيدًا ؛ حتى لا يرى أحد جزءًا من جسدها أثناء الدفن.

ذكرت فاطمة وصيتها، وأخذت تنتظر اللقاء، تحلـم بأبيهـا وتتـذكر أحاديثـه ومواقفـه معهـا طيلة رسالته كلها..

عاشت مع الرسول مشوار رسالته وحتى وفاته ؛ لذلك كانت على شوق شديد كى يعود اللقاء والذكريات..

ولقد حان موعد اللقاء سريعًا..

فبعد ستة أشهر فقط من وفاة الرسول، أذن الـلـه ببداية رحلة السفر، واختار لها ربهـا يـوم الثلاثاء فى العشرين من شهر رمضان فى السـنة الحاديـة عشرة للهجـرة، وسـنها تسـعة وعشريـن سنة.

ماتت فاطمة ودفنت فى البقيع، وبكى عليها زوجها عـلى بـن أبي طالـب بكـاء شـديدًا، وهـو يقول:

والـلـه ما أتعبتنى الأيام، كما أتعبتنى لفراق أحمد وفاطمة فى شهرين متتاليين..

الآن تحقق وعد الرسول لك يا فاطمة، وكنت أول من لحق به من أهلـه، الآن تأتنسـان معًـا وتتحدثان معًا فى الجنة، بعيدًا عن هموم الدنيا ومشكلاتها..

وستجلسون معًا أنت ورسول الـلـه والحسن والحسين يوم القيامة.. تأكلون وتشربـون حتـى يفرغ الـلـه من حساب العباد..

الآن يبقى حلمنا أن نلحق بكما ونزوركما، ونسمع منكما قصة حب خالدة..

بين أب وابنته..

بين الأب محمد.. والابنة فاطمة.

* * *



دروس وتحليل

1- العلاقة بين الآباء وأبنائهم ينبغى أن تكون علاقة صداقة وحب ومودة (الرسول كان يقبل فاطمة إذا دخلت عليه):

كانت علاقة الرسول بابنته فاطمة علاقة فريدة، علاقة أب صديق لابنته يحترمها ويحبها، ولا يخجل من أن يقوم وهو جالس وسط أصحابه ليرحب ويقبلها.. كانت العلاقة علاقة حب ومودة وصفاء وتفاهم ؛ لذا كان التعلق بينهما شديدًا، وقيل عن فاطمة إنها أم أبيها، فهل يستطيع الآباء أن تكون العلاقة بينهم وبين أبنائهم على هذه الدرجة من السمو والرقى، فلا يظن الأب أن كل وظيفته فى تربية أبنائه هو الأمر والنهى، ولا يظن الابن أنه جاء الدنيا ليثقل كاهل أبيه بطلبات لا تنتهى.. هذه العلاقة الجميلة نتمنى أن تكون موجودة فى بيوتنا، فلنتعلم من الرسول وفاطمة، كيف تكون العلاقة بين أب وابنته، وبين أب وأولاده.

2- الغيبة والنميمة من آفات اللسان التى يقع فيها كثير من النساء (لم يعرف عن فاطمة أنها قالت كلمة سيئة فى حق زوجة من زوجات الرسول):

كثير من النساء يقعن فى فخ الغيبة والنميمة، وهما صفتان ذميمتان، تتسببان فى إثارة المشكلات بين الناس والحقد بينهم وقطع العلاقات وإفساد الحياة، هذه المشكلة سببها قلة الوعى الدينى، الذى يجعل من يرتكبه يتلذذ بهتك أعراض الناس، وهو لا يعلم أنه يأكل لحم أخيه ميتًا، وأن كلمة واحدة قد تلقى به سبعين عامًا فى نار جهنم، وسببها أيضًا هو الفراغ، الذى تعانى منه كثير من النساء، حيت تترك المرأة أو الفتاة نفسها فريسة له، دون أن تشغل نفسها بما يفيد، وسببه أيضًا قلة الوعى، وعدم نضح العقل الذى يجعل المرء نفسه لا يتحدث إلا فى تفاهات الأمور وحكايات الأشخاص.

إن الغيبة والنميمة آفتان خطيرتان من آفات اللسان، تصيب المجتمع بالأذى وتسبب الكثير من المشكلات الاجتماعية، فليتق كل منا الـلـه فى حديثه، وليمسك لسانه عن قول السوء، ولنا فى السيدة فاطمة أسوة حسنة.

3- الصبر يرفع مقام صاحبه عاليًا عند ربه (مقام فاطمة عند الـلـه أكبر من أخواتها ؛ لأنها كانت الأكثر صبرًا):

بعض النساء والأمهات يتعرضن لمشكلات كثيرة فى حياتهن، وربما يبتلين بمصائب فى أولادهن أو حياتهن الخاصة، والصبر فى هذه الحالات ليس نعمة فقط لأنه سيكون الوسيلة لتحمل هذه المشكلات والمصائب، وإنما سيكون نعمة ؛ لأنه سيرفع مقام صاحبتها عند الـلـه كثيرًا، كما رفع الـلـه من مقام فاطمة عنده، ففى حياتها تعرضت لوفاة أمها وأختها وأبيها، وعانت مع الرسول معاناة شديدة، فرفعها صبرها درجات ودرجات عند ربها.

4- المبالغات المادية فى أمور الزواج، قد تكون سببًا فى ظلم الفتيات والأبناء، وسببًا فى كثرة المشكلات لديهم (الرسول يوافق على زواج فاطمة من على بن أبى طالب رغم فقره):

لا أحد ينكر أهمية المال فى الزواج، وحق الآباء فى الاطمئنان على بناتهم أنهن سيكونون فى مستوى معيشى معقول.. هذا طبيعى، ولكن المشكلة أن نقع فى فخ المبالغات، التى ترتبط بالمغالاة غير المنطقية، والتى لها علاقة بالتفاخر أو الضغط على الطرف الآخر لتأكيد رغبته فى ابنتهم، ولتكون دليلا فى الحفاظ عليها، والحقيقة أن هذه المبالغات (غير المنطقية) عادة ما تؤدى إلى نتائج عكسية، أو أنها تتسبب فى إفشال زواج قد يكون ناجحًا إذا ما وصل الطرفان إلى درجة من التفاهم والود بينهما.. إذا تأكدنا من نبل الأخلاق وحسن الطباع وصدق العواطف، فلنجعل أنفسنا ميسرين لا معسرين فى الأمور المادية (دون إفراط ولا تفريط) ؛ حتى نساعد فى بناء أسرة نتوقع لها النجاح بإذن الـلـه.

5- الزواج السعيد لا يعنى خلوه من المشكلات (فاطمة وعلى كانا يعانيان من المشكلات المادية):

الزواج السعيد لا يعنى أن كل شىء على ما يرام، وأن لا مشكلات تواجه الزوجين، بـل يعنـى أن الطرفين متفـاهمان، ويملكـان مـن الحـب والتفـاهم والثقافـة والتعـاون والإيمـان بالـلــه مـا يمكنهما من مواجهة المشكلات والتغلب عليها.

إن المشاركة فى هموم الحياة عنصر مهم جدًّا فى نجـاح الـزواج، والزوجـان اللـذان يتعاونـان لحل ما يواجههما من مشكلات، هما اللذان يصنعان الحياة السعيدة المستقرة، والزوجان اللذان ينتظران حياة زوجية بلا مشكلات سيتعرضان حتمًا.. لصدمات فى الطريق.

6- الحياء خلق فى غاية الأهمية للبنات، وبدونه تفقد الفتاة رضا الـلــه واحـترام النـاس (السيدة فاطمة توصى بأن تغطى جيدًا عند دفنها ؛ حتى لا يرى أحد جسدها أثناء الدفن):

الفتاة التى تكشف أجزاء من جسدها، أو تلبس الملابس الضيقة لتظهـر مفاتنهـا، لا تعـرف أنهـا تفقد بذلك خلقًا ملاصقًا للفتيات، اسمه الحياء، وإذا كان الحياء مطلوبًا من الشـباب مـرة فهـو مطلوب من الفتيات عشر مرات، فبدون الحياء تفقد الفتـاة احترامهـا أمـام النـاس، وقبـل ذلـك وبعده تفقد رضا الـلـه، وتنشر الفتنة وتتسبب فى فساد الأخلاق فى المجتمـع المسـلم.. وللأسـف الكثير من الفتيات المحجبات يسببن الحيرة بما يفعلـن، فيغطـين الـرأس، ولكـن يتـزين ويلبسـن ملابس لا تدل إطلاقًا على أن صاحبة هذه الملابس ترتـدى الحجـاب مخافـة الـلــه أو طمعًـا فى رضاه، أو تنفيذًا لأوامره، والحياء لـيس فى الملابـس فقـط، بـل فى المشـية وطريقـة التحـدث مـع الجنس الآخر، فلنتعلم من السيدة فاطمة معنى الحياء، ولنقتـدى بهـا، وسنشـعر سـاعتها برضـا الـلـه واحترام الناس.

* * *

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مقدمة	5
خديجة بنت خويلد الأميرة المجاهدة	7
دروس وتحليل	27
سودة بنت زمعة أم أمهات المؤمنين	35
تحليل ودروس	46
عائشة البريئة	49
دروس وتحليل	79
حفصة بنت عمر حارسة القرآن	89
دروس وتحليل	105
زينب بنت خزيمة أم المساكين	109
تحليل ودروس	114
أم سلمة العاقلة	117
تحليل ودروس	131
زينب بنت جحش المنفقة	135
دروس وتحليل	141
جويرية بنت الحارث المخلصة	145
تحليل ودروس	151
صفية بنت حيى الرؤية	153
تحليل ودروس	162
رملة بنت أبي سفيان أم حبيبة مع اللـه	165

الموضوع الصفحة

دروس وتحليل 175

مارية بنت شمعون جارية من مصر 177

دروس وتحليل 184

ميمونة بنت الحارث أخت المؤمنات 187

دروس وتحليل 193

نسيبة بنت كعب بطولة نادرة 197

دروس وتحليل 209

أسماء بنت أبي بكر قصة كفاح 211

دروس وتحليل 222

أم أيمن امرأة من الجنة 225

دروس وتحليل 233

أم كلثوم بنت محمد الصابرة 237

دروس وتحليل 243

حليمة السعدية 245

دروس وتحليل 254

رقية بنت محمد مهاجرة إلى اللـه 257

دروس وتحليل 263

زينب بنت محمد الوفاء العظيم 265

دروس وتحليل 276

فاطمة بنت الخطاب موقف ثمنه الجنة 279

دروس وتحليل 288

أم كثوم بنت عقبة الممتحنة الممتحنة 292

الموضوع الصفحة

دروس وتحليل...297

أروى بنت عبد المطلب الشاعرة..............................301

دروس وتحليل...305

فاطمة بنت محمد أم أبيها...................................309

دروس وتحليل...331

فهرس الموضوعات..334

* * *

هذا الكتاب

نفكر ..

كيف تنظر فتاة في القرن الواحد والعشرين إلى صحابية في العام الأول من الهجرة ..

ونتساءل ..

إذا كانت المسافة بين زمننا وزمن صحابيات رسول الله ﷺ قرونًا، فما هي المسافة بين فتيات جيل صاخب، يتنفس التكنولوجيا ويدمن السرعة، ويمطر كل يوم بعشرات الأفكار الجديدة والمتناقضة والغريبة ، وبين فتيات جيل الرسول والوحي والمعجزات والصراع القبلي، والمحن الكبرى، والجهاد من أجل بناء صرح عظيم اسمه الإسلام؟

نحاول أن نتخيل ..

كيف تنظر ميرفت إلى السيدة خديجة؟

وكيف ترى نادية السيدة عائشة؟

وما رأى سعاد في السيدة حفصة ؟

وهل تعرف سناء السيدة زينب؟

وهل سمعت جوري عن جويرية، وأم محمد عن أم أيمن، وفاطمة عن فاطمة؟

هل تعرف البنات أن الله جعل لهن أمهات أخريات غير أمهاتهن، في آية صريحة واضحة في مقدمة سورة الأحزاب:

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ... ﴾ [الأحزاب:٦] .

هل تدركين المعنى وتشعرين القيمة والمكانة التي وضعك الله سبحانه وتعالى فيها؟

لقد جعل زوجات آخر نبي وأعظم نبي محمد ﷺ أمهات لك، تتحدثين إليهن وتتعلمين منهن وتحكى لزملائك عن مواقفهن وبطولاتهن ..

والسؤال لك الآن :

هل تعرفين عن أمك ما يجب أن تعرفه البنت عن أمها؟

كم مرة تذكرينها في اليوم؟ كم مرة زرتها في كتب السيرة والتاريخ؟ كم مرة تذكرت لها حكمة خففت عنك عناء كرب، أو نصيحة هدتك لحل أزمة مررت بها، أو موقفًا اقتديت به في حياتك؟

إذا كنت تذكرين أمك وأمهاتك، فذكرى غيرك؛ فهم في حاجة إليك وإليهن ..

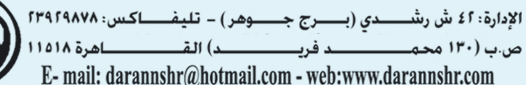
وإذا كنت لا تذكرين ..

فبين يديك الآن ذكريات بعطر النبوة، وحكايات تحدث مرة واحدة في التاريخ..

بين يديك الآن حكايات أمهاتك وأصدقاء أمهاتك، ومن سار معهن على الطريق ..

بين يديك الآن كتاب أمهات وصحابيات المؤمنين ..

ينادونك بحب أن تجلسي معهن قليلا في حوار أسرى .. في زمن نتمنى له أن يعود.



دار النشر للجامعات

الإدارة: ٤٢ ش رشدي (برج جوهر) - تليفاكس: ٢٣٩٢٩٨٧٨

ص.ب (١٣٠ محمد فريد) القاهرة ١١٥١٨

E- mail: darannshr@hotmail.com - web:www.darannshr.com



9789778512208